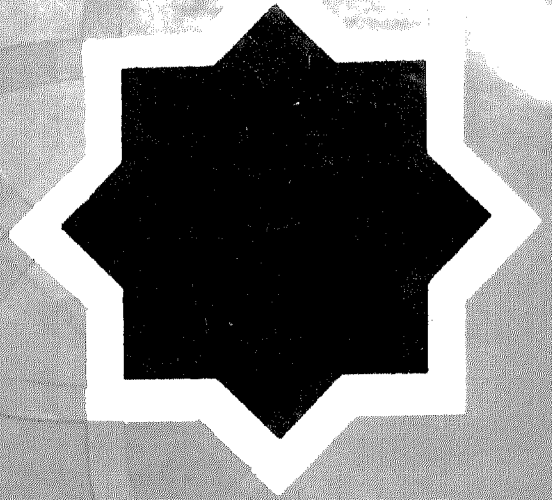
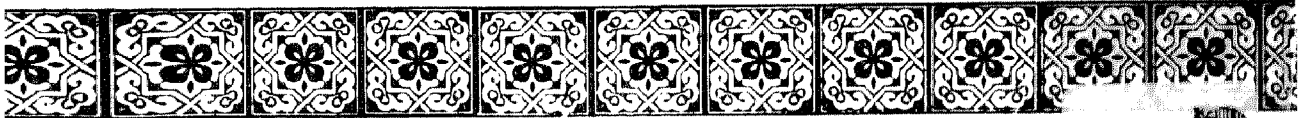
محمد اسماعيل ابراهيم



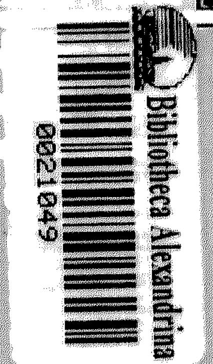
أول أركان الإسلام

الشهادة

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله



الإنسان ما لم يعلم



دار الثقافة العربية للطباعة
تليفون ٩١٦٧٢٤١ - عابدين

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

مقدمة الكتاب

أخي قارىء هذا الكتاب :

• السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فإن من أقوى دوافع الحمد والشكر لربي أنه بمنه وكرمه وعونه وفقني إلى إعادة طبع هذا الكتاب ، وإتاحة الفرصة لي لكي أنقح وأزيد فيه ، وأخرجه في ثوب جديد من جودة الورق وحسن الطباعة ، وكيف لا ينال مثل هذا الكتاب أعظم العناية والاهتمام ، وهو يبحث في ركن الإسلام الأول ، الذي هو الأساس المتين لبقية الأركان التي بني عليها الإسلام ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

• وقد كان لزاماً علي وأنا أجمع مادة هذا الكتاب أن أتحرى الحقائق ، وأتخير منها ما هو موثوق بصحته وأصالته ، وأنه مما أجمع السادة الأئمة والعلماء على أنه حق لا مرية فيه ، لمطابقته لتعاليم الإسلام نصاً وروحاً .

• وموضوعات الكتاب تبحث في أهـــداف الشهادة لفظاً ومعنى ومغزى ، وكيف أنها هي كلمة التقوى التي لا يصح إسلام ولا إيمان إلا بالنطق بها جهاراً واعتقاداً ، كما أنها تبحث في الرسالة والرسل ودعوة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وسيرته العطرة .

• وإنه من دواعي غبطتي أن يقع هذا الكتاب في يدك ، وتجد معه فرصة ممتعة لمطالعته والأنس بما اشتمل عليـــه من ذخائر العلوم الدينية ،

ونفائس البحوث الشرعية التى هى من أصول العقيدة وجوهرها ، ويسعدنى أن تتذوق ما هو معروض أمام بصرك وبصيرتك من حقيقة التوحيد فى عبادة الله ، وتفرده سبحانه وتعالى فى الذات والصفات والأفعال ، وأنه ليس كمثله شىء .

● ولقد حرصت وأنا أجمع مادة هذا الكتاب أن أستمد معلوماته من أعذب الموارد العلميـة ، ومن أصدق النصوص الدينية ، وأدق الشواهد والدلائل العقلية ، وأجمل ما نطق به أهل الذكر فى الذات العلية ، بحيث يكون كل سطر من سطوره باعثا على التأمل فى وجود الله تعالى وتوحيده ، وأن فى كل صفحة من صفحاته مجالا حيا لتقديس الله تعالى وتمجيده ، لكى يشعر القارىء أن بين يديه حقائق عليا تحي قلبه ، وتنير فؤاده ، ويحس طيلة اندماجه معها بالفكر والروح أنه مع الله سبحانه وتعالى ، يؤمن بقدرته ووحدانيته ورحمته وعزته .

● ولما كان الهدف من الكتاب وأبحاثه هو موضوع الشهادة بوحدانية الله تعالى ، ثم الشهادة بأن محمداً هو رسول الله حقا وصدقا ، فقد دعانى ذلك إلى أن ألقى الأضواء تلو الأضواء لمعرفة رب العالمين بأسمائه وصفاته ، وبالدلائل العقلية والنقلية التى تثبت وجوب وجوده ، وأنه ليس كمثله شىء ، كما أنه دعانى أن أعرض موجزاً لحياة الرسول وسيرته ، لكى يعرف القارىء طرفا عن نشأته وشمائله وما قام به من جهاد فى سبيل الله ومن صبر واحتمال وجلد فى نشر الدعوة الإسلامية .

والله أسأل أن يوفقنى وإياك للعمل بما جاء فى القرآن الكريم وأن يلهمنى وإياك اتباع سنة رسول الله فى صدق وحب وإخلاص .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تمهيد

خصائص الرسالة الإسلامية

• كل من تتوق نفسه إلى البحث فى أصول الدين الإسلامى وأركانه وأحكامه ، يجد فيما ألفه العلماء قديما وحديثا تراثاً زاخراً بنفائس العلوم والمعرفة ، وكل من يشتاق قلبه إلى درس آيات الكتاب وسنة الرسول ﷺ ، يجد فى بحار تفاسيرها وشروحها درراً من الجوهر المكنون ، وكل من تحن روحه إلى استرواح نسائم حكمة الإسلام وفلسفته وروحانيته ، يجد فى جوها آفاقاً مشرقة ، مليئة بفيوض التجلى والإلهام ، وكل ذلك من عظيم فضل الله تعالى على عباده المؤمنين المخلصين منذ عهد السلف الصالح ، ومن تلاهم من الأئمة الأعلام ، والعلماء المجتهدين والفقهاء الراسخين فى العلم والعباد والمتصوفة المشتغلين بصدق وإخلاص بعبادة الله تعالى ، وهم وكل من ذاقوا حلاوة الإيمان وتمسكوا بدين الله تعالى ، وغاروا عليه ، عبر الأجيال إلى يومنا هذا. فلا عجب إذا ما ألفينا المكتبة الإسلامية غنية بكنوز عظيمة غالية ، من لآلىء العلم والحكمة والأدب الصوفى الرفيع ، وكلما زاد يتزود به قلب الإنسان وعقله ، فى طريقه الموصل إلى سعادة الدارين . وإليك بعض خصائص الرسالة الإسلامية .

• إن الرسالة الإسلامية الشامخة الذرى ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء وأنها بفضل الله تعالى دائمة النماء والازدهار ، تؤتى أكلها فى كل حين بإذن

ربها ، لأنها رسالة العلم والحياة ، والباعثة على حركة الفكر والعمل ، وهي منذ ظهورها ، لم تقف في ماضيها عن التثقيف والتهذيب ، ولن تقف أبداً في حاضرها ومستقبلها عن متابعة نشاطها الدائب في الإصلاح والتقويم ، وفي كشف أسرار هذا العالم الذي نعيش فيه ، لأنها تدعو دعوة صريحة إلى التأمل والتعمق في فهم هذا الكون ، وما فيه من سنن وقوانين ونظم ثابتة أوجدها البارىء سبحانه ، لتكون مجال بحثنا ودرسنا والإفادة منها ، وما من شك في أن العلم الذي امتدحه المولى سبحانه في القرآن ، وقرر فيه أن مرتبة الذين يعلمون فوق مرتبة الذين لا يعلمون ، هذا العلم هو الذي يعطي الأمم المتفوقة فيه مقام الصدارة والسيادة دائماً ، ويوم ناقى عن كواهلنا كابوس التخلف والجمود ، وتتخلص من شرور الغفلة والجهل ، سيكون ذلك يوم بعث لنا وانطلاق إلى حياة جديدة ، نفهمها على ضوء فهم جديد لحقائق القرآن العليا ، التي غابت عنا بسبب انصرافنا عن دراسته دراسة علمية وعملية ، والانشغال بأمور الدنيا وحدها .

● ومن خصائص الدين الإسلامي الذي جاء به رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، أنه دين الحق الذي يهدي من اتبعه سبيل السلام ، وأنه دين الحياة الذي يشمل كل ما ينفع الناس ، وأنه دين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويؤيد ذلك أن مشكلات الأمور في حياتنا مهما غمضت أو تعقدت ، فهي لا تحل إلا بما يطابق سننه وأحكامه التي وضعها رب العالمين ، وما طالعتنا الكشوف العلمية الحديثة بجديد ، إلا وجدنا في أطواء هذا الدين الحنيف دلالات تشير إليها في كتابه ، وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن الذي نزل قبل ظهور هذه العلوم الحديثة ، ويجد فيه الباحث آيات بينات عنها ، تدل على أنه تنزيل من عليم خبير .

● ومن خصائص الرسالة الإسلامية ، أنها ليست وقفاً على جماعة من الناس دون جماعة ، بل هي للجميع ، فإلى جانب رجال الدين المتخصصين فيها ،

تعيش ملايين البشر من عامة المسلمين ، لا تدرس ولا تتفقه ، وقد لا تقرأ ولا تكتب ، وهى مع هذه الأمية وبفضل اتباعها لمبادىء الإسلام القويمة ، والتزامها تقوى الله وطاعة رسوله وأولى الأمر ، تتمثل فيها أنوار المعرفة وآداب السلوك ، وسمو الإحساس ونبل الإدراك مما يدل على أن الإسلام دين الفطرة ، وأنه دين الإلهام والصفاء الروحى ، الذى يتحقق معه قوله تعالى : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم » .

● ولا حاجة بنا إلى القول ، بأن ما ألف فى دراسة الدين وبحوثه ، وما وضع من مؤلفات فى تفصيل أحكامه وبيان حكمة تشريعاته ، يفوق فى كثرته وغزارته ما صنف فى العلوم والفنون الأخرى ، لأن رسالة الإسلام رسالة خصبة ،مثمرة دائماً ، ظلالها وارفة ، وثمارها طيبة،والمسلمين فى ميادين هذه الرسالة الفسيحة مجالات مباركة أبدعوا فيها التعبير ، عن تفكير عقولهم السليمة ، ومشاعر قلوبهم المؤمنة الملهمة .

صور من أحوال المسلمين قديما وحديثا

● لقد أتى على المسلمين حين من الدهر تفرغوا فيه للدرس والبحث والاستقصاء فى أمور دينهم ، وكانت الرحال تشد من بلد إلى بلد ، طلباً للعلم والتفقه فى الدين ، كما كانت للمسلمين عناية خاصة بالاجتماع فى البيوت أو المساجد لدراسة القرآن والحديث والفقه ، وكانت أصداء هذه الاجتماعات تدوى فى محيطهم ، ويتحدث بها شيبهم وشبابهم ، ولكن لما تقلبت الأحوال بالمسلمين ، وغيروا ما بأنفسهم تحت تأثير العوامل السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية التى أدخلها عليهم الغرباء المفسدون والأجانب المستعمرون ، أو أوجدها الاحتكاك بغيرهم من الأمم ، قل بسبب ذلك اهتمامهم بتعلم دينهم وتفهمه ، واقتصر الكثيرون على الضرورى منه ، إلى أن جاء وقت قل فيه من يطلب التفقه فى دينه ، وأن القابض على دينه منهم كالقابض على الجمر .

• ولو أنك أردت أن تقف على ما يعرفه الرجل الأمى أو العادى أو المثقف ثقافة مدرسية مدنية ، لراعك ما يبدو لك جلياً من حقائق محزنة عن مبلغ الضآلة بل الجهـالة التى تتفشى فى كثرتهم ، ذكوراً وإناثاً فى معظم بلاد المسلمين ، بل ولبكيت أسفا وحزنا ، على ما وصل إليه بعض المسلمين من اعتناق مبادىء تناقض روح الإسلام ، ولا أكون متجنيا إذا ما قلت قولا لا مواربة فيه :

إن من المسلمين من لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه .

وإن منهم من لا يفقه من أركان الإسلام شيئا .

وإن منهم من لو حدثته فى أمر دينه لإرشاده وهدايته اثقل عليه الحديث .

وإن منهم من لا يهمه أن يعرف دينه ، أو أن يعمل به .

وإن منهم من يفهم من الإسلام أشياء ليست منه .

وإن منهم من لا يقرأ القرآن ، ولا يقرأ الحديث أبداً ، ولا أى كتاب دينى .

وإن منهم من يدعى المعرفة بالإسلام وأحكامه ويفتى فيه وهو أجهل الناس به .

• ولا أكون متجنيا ولا متحاملا على أحد إذا ما قلت :

إن من المسلمين من استخفوا بدينهم ، ولم يأبهوا بما يجب له من القداسة .

وإن منهم من تنكر للإسلام ، وظن جهلا منه بأمره ، أنه سبب تأخر المسلمين .

وإن منهم من وقع فى أسر الشبهـات التى يختلقها أعداء الإسلام ، وآمنوا بها .

وإن منهم من يزعم مع الزاعمين الواهمين أن الإسلام قد استنفد غايته ، وأدى رسالته ، بعدما قضى على الوثنية والشرك فى الجزيرة العربية ، وأنه لا عمل له الآن .

وإن منهم من يستسلم لقول القائلين إن الدين قد تخلى عن مكانه للعلم ، وأنه قد سلم قيادة الناس فى حاضرهم ومستقبلهم لسلطان العلم وحده .

وإن منهم من يستنيم للأفكار الخاطئة التى يرددها الملحدون ، أن الحياة تسير بقوة العلم ، لا بقوة الدين ، الذى فقد سلطانه وأثره فى الحياة الحاضرة .

وإن منهم من يقيس أهمية الإسلام بعدد معتنقيه ، وتساوره الشكوك فى مصير هذه الملايين العديدة التى تدين بغير الإسلام ، فكأن الأمر عندهم كم لا كيف ، وشكليات لا حقائق من عند الله .

● وهذا الذى ذكرناه من مزاعمهم هو افتراء على الحق ما بعده افتراء ، لأن كل من يصدر عنهم مثل هذا الزيف والضلال والبهتان إنما يهرفون بما لا يعرفون ، لأنهم لم يدرسوا دينهم، ولم يتفقهوا فى شىء منه ، ولو أن هؤلاء المتعلمين أنصفوا لأولوا الدين عنايتهم بالبحث والدرس ، وعندئذ تتفتح أمام بصائرهم قضايا الإسلام ودعوته السامية وتنجلى حقائقه العليا ، لأنه ما كان يليق بهم وهم ينتسبون لدولة العلم ، أن يغفلوا أولى البديهيات ، وهى أن الأديان السماوية كلها نزلت لغايات واضحة كل الوضوح منها :

أنها جاءت لترفع الإنسان من حضيض الجهل ، وتسمو بعقله وروحه .

وأنها تدعو إلى توحيد الله تعالى ، وعدم الشرك به وإخلاص العبادة له وحده .

وأنها تحث على مكارم الأخلاق ، وطلب العلم ، ولو فى أقصى الأرض .

وأنها تهدى الناس جميعاً إلى طرق الخير وسبل السلام بالعمل الصالح والكلم الطيب .

وأنها جاءت لتمحو غشاوة القلوب ، وتزيل ظلمات البصائر ليرى الناس قدرة الله تعالى وعظمته ورحمته ، فيسبحوه و يقدسوه سبحانه وتعالى ، بكرة وأصيلا .

وأنها نزلت لتنظم العلاقات بين الناس على أساس المحبة والعدل والإحسان .

وأنها هي وحدها طريق الوصول إلى محبة الله تعالى ، والفوز بمغفرته ورضوانه .

الدين والعلم

• هناك مع الأسف من يخلط بين رسالتي الدين والعلم ، ومن تتملكه الهواجس والظنون ، كلما رأى أن رجال العلم يخترعون ويبتكرون ، وأن رجال الدين لايخترعون ولايبتكرون شيئاً جديداً وهذا ماقد يدعو إلى التشكك والحيرة عند من يقيسون الأمور بمقاييس المادة المنظورة ، لا بمقاييس المعاني والحقائق المستورة ، وإذا أردنا أن نعقد المقارنة بين العلم والدين ، فلاوجه للمقارنة بينهما لاختلاف اتجاهيهما ، لأن جوهر الدين شيء قدسي علوي من عند الله ، يتصل بالقلب والروح ، وليس من صنع البشر ، حتى يخضع لأهوائنا وآدابنا وأحكامنا ، وأن مايقال عن العلوم البحتة ، فهي إنما تتصل وتنحصر في أمور مادية محسوسة ملموسة هي من صنع الله تعالى، نفحصها ونحللها ، ونجري التجارب عليها لننتفع بنتائج تفاعلاتها ، ونستفيد من السنن الكونية التي أوجدها الله ، في المادة التي منها وعليها نعيش ، وشتان بين معنويات غيبية مجالها القلب والإيمان والاعتقاد بقدرة الله تعالى، وبين ماديات ملموسة مجالها الحواس والمشاهدات ، ويجب أن نؤمن أن الدين يحض على العمل والبحث والابتكار لأنه جاء ليصلح حياة الناس مادياً وروحياً ، بينما العلوم المادية البحتة لاتحض على شيء من السمو الروحي والفضائل والمكارم ، بل إن من ثمارها آلات التدمير والتخريب ، وتقوية الإنسان على الشرور والطغيان .

• إن من الخطل أن ينساق خطر التفكير المادي الأعمى إلى فهم هذا

الكون البديع على ضوء المادة وحدها ، وأثرها فى الحياة والأحياء ، وأن يعللوا وجود الأكوان على أنها من عمل الطبيعة الآلى والعشوائى فقط ، دون تفكير فى خالق عظيم حكيم أوجدها ، وسيرها فى مساراتها ، وأخضعها لسلطان قوانينه المحكمة فيها . لأن الإنسان إذا ما تحكمت فيه المفاهيم المادية العمياء دون غيرها ، داخله الريب فى حقيقة هذا الرب القادر المقتدر ، وقد ينكر وجوده ، أو يجره ذلك إلى مجافاة ما جاءت به الأديان السماوية ، لأنها تنطق بما وراء المادة ، وما فوق الطبيعة ، وتتحدث عن عوامل روحية وملائكية لا تراها الأبصار ، ولكن تؤمن بوجودها البصائر المؤمنة بالله وكتبه وملائكته ورسله ، ولذلك نجد أن هؤلاء الماديين الملحدين يعيشون فى حيرة الشك وفتنة التشكيك ، وأصبحت أفكارهم وأحاديثهم سهاماً مسمومة تصيب قلوب الأغرار وضعاف الإيمان ، ممن ينصتون لهم ، ولو أنك سألت هؤلاء الماديين الملحدين عن حقيقة هذه المادة التى فتنوا أو نسبوا إليها القدرة على إيجاد هذا الكون لعجزوا عن تعريفها .

* وليس هذا طبعاً شأن كل المشتغلين بالعلوم البحتة ، والبحث فى المادة ، بل إن منهم من زادتهم هذه الدراسات العلمية فى الأرض وفى السماء ، إيماناً بالله وقدرته وعظمته سبحانه ، وهؤلاء هم الذين حق عليهم وصف الله تعالى لهم بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فهؤلاء يؤمنون أن علومهم هذه أثر من دعوة الدين الذى يحث على النظر والتأمل والتعمق فى فهم ما حولنا من الأشياء ، ويؤمنون أن دعوة الدين أعم وأعمق من دعوة العلم المحدودة الآفاق ، والمحصورة فيما نراه قريباً منا ، ولو تأملنا ملياً فى رسالة الدين ، لوجدناه يدعو إلى الاشتغال بالعلم والاستزادة منه ، فى قوله تعالى : « رب زدنى علماً » ، والدين يغذى روحك بالرضا والاطمئنان ، والدين إذا ما لازمه العلم كان سعادة لصاحبه ما بعدها سعادة ، بينما العلم وحده بغير دين ولا تدين ، لا خير فيه ولا نفع ، لأنه

قد يدفع صاحبه إلى استخدامه فى الشر والأذى أو يورده موارد الفتنة والافتتان. ولو أن العالم خضع لسلطان العلم وحده، دون وازع من دين أو ضمير، لكان فى ذلك هلاك الحرث والنسل بما يحدثه العلم المادى من وسائل التدمير وأدوات الهلاك، وأنه لا يمنع وقوع ذلك الدمار والخراب إلا قوة الإيمان بالله، والاعتقاد برسالاته، والخوف من انتقامه تعالى.

ضرر الجهل بالدين

• من الملاحظ فى زماننا هذا أن كثرة من الناس تجهل دينهم، ومن تعلم منهم شيئاً منه فهم لا يعملون به، وأمثال هؤلاء الغافلين اللاهين لا يحسون فى قرارة نفوسهم بأى وخز فى ضمائرهم من إغفال أمور دينهم، وتقصيرهم فى أقدس شىء وهو علاقتهم بخالقهم ورازقهم سبحانه وتعالى، وليتهم مع ما هم عليه من ظلم لأنفسهم، يمنعون عن الناس شرورهم، وسوء أعمالهم، بل إن منهم من هو أضر على الاسلام من أشد أعدائه، بما ينشرونه من أباطيلهم وجهلهم وأضاليلهم، التى يفسدون بها عقول الدهماء، وعقائد البسطاء، وذلك لأنهم يتعرضون لما لا يعرفون من حقيقة دينهم، أو يقولون على الله الكذب وهم لا يعلمون.

• ولقد سمعت ورأيت كثيراً من المسلمين الذين لا يصلون ولا يصومون يقولون فى معرض الرضا عن نفوسهم. إننا بحمد الله سليمو الطوية، خالصو النية، لا نؤذى أحداً، ولا نخلف وعداً، ولا ننقض عهداً، ولا نكذب على الناس أبداً، وهم يظنون أنهم بهذا الذى يدعونه (والله أعلم بحقيقته) قد صاروا مسلمين حقاً وتسقط عنهم تكاليف الاسلام. ويكفى فى الرد على أمثال هؤلاء أن نقول لهم. ربما وجد من بين المجوس والنصارى واليهود وغيرهم كثيرون ممن قد يفعلون ذلك، إنهم بقولهم هذا قد نسوا أو تناسوا أن ما يعملونه هو بعض ما يأمرهم به الاسلام من مكارم

الأخلاق ، وأنه ليس كل ما يأمرنا به ، وإلا فأين الصلاة والزكاة والصوم والحج ؟ فهل هذه الفرائض أشياء لم يكلفهم بها الاسلام ؟ ألا فليعلم أمثال هؤلاء أن الاسلام كل لا يتجزأ وأن جوهره لايتم إشراقه وبهاؤه إلا بأصوله وفروعه ، وبأركانه وآدابه ، وبظاهره وباطنه .

فتنة بعض المسلمين بالحضارة الغربية

• لقد هالني يوما ما ذكره جليس لي زار أوربا ، أنه يتمنى أن يحشر مع أهلها المسيحيين لأنه رأى من مظاهر سلوكهم ودماثة أخلاقهم وحسن زيهم ومرافقهم ما لا يراه في محيط أغلب المسلمين الذين لقى من أحوالهم ما ينفر من أخلاقهم وتأخرهم ، ولا شك أن أمثـــال جليسي هذا كثير ممن فتنتهم المظاهر الأوروبية الخلابة ، وليست هذه المظاهر وليدة عقائدهم الدينية ، وإنما هي نتيجة التقدم المادي وانتشار الثقافة في مجتمعاتهم ، ويوم أن تتحرر أوطاننا الاسلامية من الاستعمار ومؤامراته ضد المسلمين ، ويوم أن نفهم مبادىء ديننا ونطبقها بنصها وروحها وأهدافها عندئذ نجـد بلادنا جنة الله في أرضه ، وندرك أن ماأعجب وأدهش المفتونين من المدنيةالغربية إنما هي بعض ما يدعو إليه دين الاسلام من التقدم والرقي والتحضر ، فليس العيب هو عيب الدين الاسلامي الحنيف ، وإنمـا هو عيب تأخر المسلمين وجهلهم وفقرهم وانقيادهم لسلطة المستعمرين المتعصبين المتغطرسين ، ولخضوع حكوماتنا الاسلامية وأولي الأمر فيها للضعف والاستسلام والخور أمام أعدائهم وأهوائهم .

• ورب قائل بغير وعي وإدراك لمـا يقول : « الدين المعاملة » يقصد بذلك أنه ما دام الإنسان يحسن معاملة الناس فقد قام بواجبات دينه ، كأن الدين لا يطلب إليه إلا المعاملة الطيبة مع غيره . ونسي هذا الغافل أن المعاملة أساسها معاملة المخلوق مع خالقه ، فهي بمعناها الصحيح وقبل كل شيء

معاملتك مع الله سبحانه وتعالى وعلاقتك بتقواه ومرضاته بحيث يراك مطيعاً لأوامره ، راغباً فى محبته ، مقبلا على ما جاء به الرسول الأعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فهذه هى المعاملة المقصودة فى قول القائل : الدين المعاملة ، لأنها هى المدخل إلى كل معاملة طيبة أخرى مع الناس أجمعين .

● ومن أوليات أصول الدين ، وفاتحة مبادئه القوية التى هى أساس جميع المعاملات ، الاقرار والايمان والاعتقاد بحقيقة ومغزى وأهداف قولك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وفى هذا الكتاب شرح لهذه الشهادة المزدوجة ، وبيان مفصل لهذا الركن الركين من قواعد الإسلام ، وقد استعنت الله وهو خير معين ، أن يقدرنى على إيضاح معناها ، وإظهار ما تنطوى عليه من أسرار مكنونة ، يشعر بها من ينطق بها قولا واعتقاداً ، ويتدبرها ذكراً وفكراً ، ويهتدى بوحيها حقيقة ومنهجا ، ومن أجل ذلك ألفت هذا الكتاب .

أبواب الكتاب

يشمل الباب الأول كلمة الشهادة والإقرار بها باللسان وبالقلب معاً ، وبيان دعوة التوحيد فى رسالات الرسل الكرام، وقضية الشرك والمشركين، وبناء صرح الإسلام على الشهادة . ويتناول الباب الثانى موضوع التوحيد فى حقيقته وأركانه استعراض علم التوحيد أو علم الكلام وتاريخ نشأته ومباحثه وأهدافه ، وكيف أنه حارب الإلحاد والزندقة فى فترة من فترات تصارع الآراء والمذاهب ، وفى هذا الباب تعريف بما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه وما يجوز ، وبيان لما يجب للرسل عليهم السلام ، وما يجوز عليهم وما يستحيل ، وقد ألم هذا الباب أيضاً بكثير من البراهين العقلية والنقلية لإقناع من يعوزهم الإقناع ، ولإفهام من فتنوا بأقوال أهل الشك والشبهات بحقائق الإسلام الناصعة ، لتخليصهم من مواطن الضلال

والكفر . واحتوى الباب الثالث والأخير على خلاصة وافية لسيرة خير الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعض ما كتبه عنه العلماء الأجلاء وأهل الفضل والصلاح والتقى .

● وربما سأل سائل: أين هم قراء الكتب الدينية ؟ وأين الذين يبحثون عنها ؟ لأنه مع الأسف قد قل قراء الكتب الدينية ، وانصرف الكثيرون عنها وشغلوا بغيرها ، وأقبل الكثير جداً من شباب الأمم الإسلامية على قراءة القصص على اختلاف أنواعها من بوليسية إلى غرامية إلى فكاهية ، وأغلبها ينطوى على كثير من الأعمـــال الإجرامية والحيل الشيطانية والانحرافات الجونية التى لا يكتسب منها الشباب شيئاً يصلحهم أو يقومهم ويهديهم سواء السبيل ، وإن الحكومات الإسلامية مطالبة بما لها من سلطة الرقابة على المطبوعات أن تمنع القصص التى لا خير فيها ولا فائدة . وإن شباب أممنا الإسلامية وهم عماد مستقبلها فى حاجة ماسة إلى ثقافة دينية رشيدة يجدونها منشورة فى كتب مشوقة وأبحاث قيمة ومقالات سهلة التناول ولا يجدون عسراً ولا مشقة فى فهمها والانسجام معها .

● وإن الغيورين على إصلاح الشباب وتوعيتهم بأمور دينهم إنما يودون هم أن يعيشوا عيشة السعداء ، سعادة حقة ، فهم لا يرونهم منقطعين عن ركب الحياة ومسيراتها ومباهجها ، ولا يريدونهم محرومين مما أحله الله لعباده من الطيبات التى أوجدها الله سبحانه وتعالى ليأخذوا نصيبهم منها وإنما يريدونهم ممن عرف أوامر دينهم وعملوا بها ، ولم ينحرفوا عنها ، وديننا بحمد الله دين سمح يدعونا أن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ، وأن نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً .

حول العلم والدين

● يظن بعض قصار النظر أن بين الدين والعلم خصومة، ويقول بعض المتزمتين إنه يجب الفصل ما بين الدين والعلم، زعما بأنهما ضدان لا يتفقان، ونقيضان لا يجتمعان، ويتوهم فريق آخر من دعاة الشك والتردد أن العلم فيه مباحث تشكك المؤمنين فى قداسة الدين، وتضعف روح الإيمان، وكل هذه نظرات خاطئة، وآراء مضللة، وأفكار هدامة، لأنه قد ثبت ثبوتاً لا شك فيه أنه لا شيء على الإطلاق أقوى صلة بالدين، وأشد وثوقاً به. وألزم له من العلم، فهو وحده الذى يمس مواطن الإيمان من الإنسان، لأنه يغذى العقول، ويطمئن القلوب، ويسمو بالأرواح، ويزيل غشاوة الغفلة والجهالة التى تحجب نور الحقيقة، ويقضى على المعتقدات الفاسدة والتقاليد الضارة والبدع السيئة.

والعلم أياً كان موضوعه فى المسائل الدينية أو الدنيوية ضرورة ماسة لا غنى عنه فى حياتنا المادية والروحية على السواء، وقد امتدح المولى سبحانه وتعالى العلم فى القرآن، ورفع شأنه، وجعل مرتبة الذين يعلمون فوق الذين لا يعلمون، ويكفى العلم فخراً أن الله سبحانه كان المعلم الأول الذى علم الإنسان ما لم يعلم، وجاءت السنة المطهرة تمجد العلم، وتحث على طلبه من المهد إلى اللحد، وتدعو إلى تحصيله ولو فى أقصى الأرض، فى بلاد مسلمة أو غير مسلمة، ولا يعقل أن يدعو الدين إلى العلم وهو يعلم أن فيه ما يدحضه، أو ما يخونه من مباحثه ونتائجه.

● والعلم مدرسة جامعة لشتى المعارف والثقافات والدراسات دينية وغير دينية، لأنها كلها لازمة لاستكمال مطالب الحياة، ولكن لا يغيب عنا أن العلوم منها ما هو أساسى وجوهرى، ويجب أن يتقدم على غيره، وينبغى ألا يفوت أحداً نصيبه منه، وهذه هى العلوم الدينية بأصولها وفروعها،

فهى لازمة لتقويم حياة كل فرد خلقياً وروحياً ، لذلك كانت هى أشرف العلوم . وأجدرها بالتحصيل والتفقه فيها ، وبدونها لا نفهم معنى لوجودنا ، ولا ندرك غاية لحياتنا فى هذه الدنيا ، ثم إن هناك علوماً تتصل بمقومات عيشنا وحضارتنا فى الزراعة والصناعة والتجارة والعمران ، وهى ترتبط بلوازمنا من مطعم وملبس ووسائل مواصلات وعلاج ودفاع ، وهناك فنون وآداب تصقل النفس وتهذب الطباع ، كما أن هناك علوماً لا جدوى منها ، ولا خير فيها ، مثل علم السحر والتنجيم وما شابه ذلك وقد حرمها الشرع .

● ولو تتبعنا تاريخ العلم لوجدنا أنه كان يسير سيراً بطيئاً فى القرون الأولى ، لذلك عاش الناس دهوراً طويلة فى ظلمات الجهل والتأخر ، وربما كان من أسباب ذلك جمود بعض رجال الدين ورؤسائه وتعصبهم لكل قديم ، ومحاربتهم لكل جديد ، خصوصاً إذا خالف نصوص الدين فى نظرهم أو مبلغ علمهم وفهمهم ، ولكن منذ ثلاثة قرون بدأ العلم الحديث فى الظهور ، وتحررت معه العقول من الأغلال وتخلصت الأفكار من القيود ، وأخذت تنطلق فى عالم الحرية الفكرية الفسيح ، وأعلن العلم غزواته فى ميادين البر والبحر والجو ، وكانت له انتصارات وفتوحات ما زالت تكتسح أمامها الخرافات والأساطير والأوهام التى سيطرت على عقول الناس وحرمتهم من ثمرات العلم وتجاربه ونتائجه التى قلبت العالم المادى والفكرى رأساً على عقب ، وكان خير دليل وبرهان على ما جاء فى الكتب السماوية من النظر فى الكون وما تطور من الحياة وبقاء الأصلح والأنفع فيها ، وها هو ذا العلم ما زال يأتى بالعجب العجاب وينشر فى أرجاء الوجود أضواء ساطعة أنارت بصائرنا وأبصارنا حقائق كانت مشهورة فى هذا العالم ، وما كنا لولا البحث والدرس ندركها أو نعقلها ، فلما تفهمناها تجلت لقلوبنا مشاهد رائعة من قدرة الله سبحانه ، وظهرت على أضوائها عظمة الله وحكمته ظهوراً زاد

إيماننا ، وقوى اعتقادنا ، وأحيا شعورنا بأننا نعبد رباً واحداً أحداً ، فرداً صمداً ، قادراً مقتدراً ، ليس كمثله شيء . وهو السميع البصير .

● فإذا كنا اليوم نعيش عيشة رغدة ، ذات مستوى طيب فى المطعم والمسكن والملبس والصحة والأمن أعلى من مستوى معيشة أسلافنا ، فالفضل فى ذلك العلم الذى أمرنا الدين بتحصيله لعمارة الكون وتمدينه وتحضره ، ولا يهم من أى سبيل نحصله لأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها ، والحديث الشريف يقول « اطلب العلم ولو بالصين » ومعلوم أن أهل الصين لا يعتنقون الإسلام ، وإن الفضل فى هذا المستوى العالى فى حياتنا الحاضرة يرجع إلى العلم ، الذى تعتبر آثاره من أجل نعم الله على عباده ، وهى آثار تحيط بنا فى كل ما يتصل بأسباب الحياة ومرافقها ، وكلها من ثمرات العقل الذى وهبه الله لنا ليكون أداة للتعليم والتعلم والابتكار والازدهار .

● لقد حارب رجال الدين المسيحى العلماء الذين قالوا بأن الأرض ليست مركز الكون ، وعارضوهم وحاكموهم لأن رأيهم ينافى ما جاء فى الكتب المقدسة ، أو لم يرد بها وما كانت الكتب المقدسة أبداً موسوعات للعلوم الرياضية أو الفلكية أو غيرها ، وإنما هى كتب هداية وإرشاد وإيمان ، ثم دار الزمان دورته فاذا العلم ينتصر وتثبت الأبحاث أن الأرض كوكب يدور حول الشمس ، وهى فرد من مجموعتها رغم أنف المكذبين ، وجاءت النتائج العديدة المحسوسة تدل على ذلك دلالة لا تقبل الجدل ؛ فانك تقرأ عن مواعيد محددة عن حدوث خسوف أو كسوف أو مرور ذنبات فتأتى كلها مطابقة للواقع تماما ، وإنك تسمع عن الأقمار الصناعية ودورانها حول الأرض ومعها فى فلكها حول الشمس ، وكل ذلك تسجله الآلات الراصدة وتنقله الإذاعات ، فهل هذا وهم وخيال وسحر ، أم حقيقة واقعة لا ريب فيها ؟ نعم ، لقد أثبت العلم وجوده ، وذهب الكافرون به بغيظهم ، والمتعصبون ضده بجهلهم ، ولم ينالوا منه شيئاً .

• وهناك جماعات ضعيفة الإيمان واهية الأخلاق تظن أن الدين فيه كبت وحرمان من متع الحيـاة ومباهجها ، والحقيقة أن ما يشعرون به من هذا الـكبت إنما مرده إلى عقد نفسية مثل عقدة الذنب التى يشرحها ويحللها علم النفس ، وهى التى تحرك ضمير الإنسان وتوبخه على ما يرتـكب من آثام ، والدين برىء من هـــذه العقد لأنه أباح لنا الطيبات من الرزق ، ولم يضيق علينا فى الاستمتاع بكل ما هو حلال ومباح ، والدين يسر كله ، وإنما روح التمرد والإباحية والجهل هى التى تملى على هؤلاء المفتونين ضلالهم ، والله سبحانه وتعالى جعـل قلوبنا وعقولنا متطورة فى الفـكر والشعور ، فبعد أن يفتن بعض الناس حينا بحب الشهوات من النساء والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة فى فورة الشباب ، تراهم ينتقلون إلى حب الجمال المعنوى فى كهولتهم ، ومنه إلى حب العلم ، ثم إلى حب الإيمان كلما تقدم بهم العمر . والإنسان فى أطوار النضج العقلى والصفاء الروحى والهدوء النفسى لا يجد أشهى من العلم مطلباً ، ولا أعذب من الإيمان مورداً ، ولا أعظم من حب الله تعالى ورسوله مقصداً .

البدع والتقاليد السيئة

• إن الإسلام دين الحق والهدى ، وهو دين كامل شامل لا يحتاج إلى شىء يكمله أو يحسنـه ، لأنه ينطوى على ما فيه صلاح الدنيا والآخرة ، ولـكن مما يؤسف عليه أن الناس أحدثوا فى معتقداتهم محدثات ظناً منهم أنها تزيدهم قرباً من الله . وابتدعوا أموراً قصدوا بها المبالغة فى طاعة الله ، ومن ذلك أن يترهب المسلم وينقطع للعبادة ، وأن يلتزم الصـوم والصمت وأن يطوف بالأضرحة ومزارات الأنبياء والأولياء ، رغبة فى بركاتها مع أن الطواف لا يكون إلا حول الـكعبة ، وكثير من الناس يتمسكون بعادات واهتمامات وتقاليد يحسبون أنها من الدين فى شىء ، مثال ذلك ما نشاهده من

منكرات فى المآتم والأفراح والموالد وزيارة المقابر وحفلات الزار ،
ولا شك أن كثيرا من هذه الخرافات والعادات السيئة والبدع المخالفة للدين
انحدرت إلى المسلمين من عصور الجهل والتأخر ، هى من أسباب استخفاف
غير المسلمين بنا ، وظنهم أن ديننا يدعو إلى هذه المساخر ، وأمثال هذه البدع
السيئة لا سند لها فى الدين ، وإنما هى أمور دخيلة ومدسوسة ، فمثلا ترجع
فكرة الموالد إلى ما كان يفعله غير المسلمين لأحبارهم وقديسيهم ، ثم أدخلها
على المسلمين بعض حكامهم لأغراض سياسية . ثم استغلها من جاء بعدهم من
أدعياء أرباب الطرق ، وجعلوها تجارة لهم ، وأخذوا يطوفون بالأمصار
والقرى ، ويكلفون أتباعهم نفقات تثقل كاهلهم فى سبيل إقامة السرادقات
وإطعام الطعام . وقد فرقت هذه البدع المسلمين شيعا وأحزابا ، بما يلقيه كل
شيخ مغرور فى نفوس أتباعه من أنه وحده على الحق .

● وقد آن الأوان للقضاء على هذه البدع ، واستئصال شأفتها ، لأنها
جلبت على الناس الفقر والذل والهوان ، وصاروا عبيد التقليد الأعمى ،
كما أنها سبيل إلى الشرك الخفى بما توحيه إليهم من أن لغير الله قوة وإرادة
فى تصريف أمور العباد . وكم فى ريفنا المصرى من جهل مطبق أعمى السذج
والبسطاء عن نور الحق ، حتى استغلهم المرتزقة باسم الدين والتصوف أسوأ
استغلال (١) .

وإن التصوف وهو أسمى المراتب التعبدية التى يصل إليها المسلم ، ليس
فى حقيقته برسوم ولا علوم ولا التزام وإنما هو أخلاق وسلوك وآداب
محمدية وتواضع وزهد ، وبالجملة فهو الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج
من كل خلق دنى ، فأين هذا ممن يدعون التصوف وهم لا يعرفون منه إلا
اسمه ، وانتحال مظاهر مسرحية له . أما جوهره فهم أبعد الناس عنه ،

(١) هذا هو شأن المتجرين باسم الدين ، أما هؤلاء الذين تقوم طرقهم الصوفية على
مبدأ التوحيد واتباع الشرع والاقتداء بسلوك مشايخهم الرفيع ، وتعاون الإخوان على البر
والتقوى ، فهذا ما نجله كل الإجلال ونعترف بفضله وأهميته .

وأجهلهم به ، وليس التصوف شيئا سهلا يسعى إليه الساعى ، وإنما هو حالة روحية يصل إليها قلب المؤمن ، وتتحكم فى عقليته ونفسيته وتوجهه إلى طاعة الله تعالى دون غرض أو هدف سوى مرضاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

● والابتداع فى الدين مذموم لقوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ، وأما من يسن لإخوانه المسلمين سنة حسنة كالتضحية بالمال والنفس فى سبيل الله والوطن ؛ والتعاون على البر والتقوى ، بإنشاء المؤسسات الخيرية والتعاونيـة ، والدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر ، ومقاومة البدع التى تعددت ألوانها ، وأمعن الناس فى ارتكابها ، وتعاموا عن شرها وخطرها ، فمثل هذه السنن الحسنة مما يمتدحه الشرع ، ويكون لفاعلها أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وليعلم المسلمون أن ديننا برىء من كل هـذه البدع السيئة ، وأنه لا يرضى عن أصحابها ، وعليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وليطمئن كل غيور على الدين بأن كل هذا الزيف فى الأمور الدينية سوف ينتهى بفضل العلم والوعى والقضاء على الجهل . قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » . صدق الله العظيم .

الباب الأول

التوحيد دعوة جميع الأنبياء والرسل

قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » [1] .

(صدق الله العظيم)

---

(١) هذه السورة تعدل ثلث القرآن لاحتوائها على حقيقة التوحيد ، وقد نزلت ردا على مشركى العرب الذين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك وصفه لنا ، فأنزل الله تعالى هذه السورة .

التوحيد فى دعوة الرسل

• جاء الإسلام يحمل رسالة التوحيد التى حملها رسل الله وأنبياؤه من قبله لينيروا بها الطريق إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقد جاهد جميع هؤلاء الرسل والأنبياء جهاداً شاقاً مريراً ، ليرفعوا لواء الوحدانية عالياً خفاقاً ، فمنهم من أوذى وكذب ، ومنهم من اضطهد وعذب ، ومنهم من لاقى مصرعه فى سبيل هذه الدعوة ، ووسيلة الرسل فى تبليغ رسالتهم هى الدعوة إلى عقيدة التوحيد ، وبيــــان حقيقتها ، التى تناقض بداهة عقيدة الشرك ، وتهدمها من أساسها .

• فـكان لا بد من وقوع الصدام العنيف ، والنزاع المستمر بين أمرين مختلفين كل الاختـلاف ، ومحال أن يتقاربا ؛ وقد كان لرسل الله من سلامة الفطرة وحسن الفطنـة ، ما جعل منطقهم مسكتاً لـكل مجادل ، وبراهينهم تخرس كل معارض ، وتقنع كل سامع ، وتفحم كل معـــاند ، لذلك خشى المشركون على عبادة آلهتهم أن تنهار ، وتذهب دولتها وصولتها ، فلم يجدوا منفذاً من هزيمتهم أمام منطق الحق القاهر ، سوى الإنـكار والعناد ، وتأليب الدهماء والغوغاء على رسل الله ، والتغلب على الحق بالخصام والـكيد والإيذاء .

• وهكذا كتب على أنبيـاء الله ورسله أن يخوضوا غمار هذا النزاع والصراع مع قوم معاندين ، لا يريدون أن ينقادوا للحق ، وكلما قيل لهم إن آلهتكم التى تصنعونها لا تبصر ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع ، كبر عليهم أن يسمعوا هذا التحقير لمعبوداتهم ، وشق عليهم هذا السب والتشهير بها ، وخاف أئمة الشرك وسادة الـكفر ، أن يخرج سلطان الدين من أيديهم ، فيفقدوا بذلك رياستهم ومغانمهم ، فـكان من مصلحتهم الذاتية ، وضرورة بقائهم فى مراكزهم العليا أن يشعلوها حرباً لا هوادة فيها ، مع رسل الله

وأنبيائه ، وأن يجمعوا أتباعهم على التنكيل بهم وقتلهم ، وذلك هو سلاح البغى والعدوان الدنىء ، إذا أراد أن ينتصر على الحق الأعزل .

ولقد أخبرنا القرآن الكريم عن ذلك فى رسل بنى إسرائيل فقال فى سورة المائدة (آية ٧٠) : « لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، وأرسلنا إليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم ، فريقاً كذبوا ، وفريقاً يقتلون » ، ولذلك نجد أن الأمم السابقة عاشت مع رسلها فى منازعات ومصادمات فيها الجاهلية الجهلاء ، والعصبية العميـــاء ، وسادت جماعاتهم روح القطيعة والعداوة بين من آمن بالرسل ومن كفر ، فكان الوالد ينكر ولده ، والأخ يقاتل أخاه ، والصديق يعادى صديقه ، كل ذلك من أجل التمسك بعقائد الآباء والأجداد والإصرار على تقليدهم مهما كانوا فى ضلال وخسران مبين .

وإليك طرفاً من قصص رسل الله أولى العـزم الذين أبلوا بلاء حسناً فى دعوتهم وجهادهم ، لنشر عبادة الله وحده .

دعوة إبراهيم عليه السلام

● فى طليعة من لهم الصدارة من رسل الله فى نشر عقيـدة التوحيد ، فى ربوع آسيا وإفريقية ، خليل الله ورسوله إبراهيم عليـه السلام ، فهو بلا مراء أبو البشر الروحى وأبو الأنبياء ، نشأ عليه السلام فى بابل من بلاد العراق قديماً ، منذ آلاف السنين ، وكان أهل بابل يعيشون وقتئذ فى رغد من العيش ، ويحكمهم ملك مطاع ، هو النمروذ بن كنعان ، وكانوا وثنيين ، يصنعون الأصنام بأيديهم ، ويتخذونها أرباباً لهم ، واستغل النمروذ جهل قومه وفساد عقيدتهم ، وأمرهم بعبادته هو أيضاً ، لأنه أفضل من الأصنام التى لا حول لها ولا قوة ، وفى وسط هذه البيئة الفاسدة العقيدة ، المضطربة بين عبادة الأصنام وعبادة النمروذ ، ولد إبراهيم عليه السلام فى بلدة قدام آدام لأبيه آزر ، فلما شب وترعرع آتاه الله رشده ، وهـــداه إلى الحق ،

وعرف بوحى من ربه ، أن الله سبحانه واحد لا شريك له ، وأن عبادة التماثيل والأصنام وكل ما سوى الله تعالى ضلال فى ضلال .

● حمل إبراهيم عليه السلام عبء النبوة والرسالة ، وبدأ بدعوة أقرب الناس إليه وهو والده ، وهنا يحدثنا القرآن الكريم عما دار بينهما من حوار ، فاسمع ما جاء فى سورة مريم (آية ٤١ — ٤٨) .

« واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً .

إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً .

يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً .

يا أبت ، لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا .

يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .

قال : أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا .

قال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا .

وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » صدق الله العظيم .

● وانصرف إبراهيم عن أبيه محزون الفؤاد ، كاسف البال ، لما وجده من عناده وجفوته وغلظته ، واعتزله ليبتعد عن جوه المسموم بالشرك ، لأن أباه كان يصنع هذه التماثيل ويبيعها ويروج لها ، ولم يثنه ما لاقاه من سوء معاملة أبيه له ، عن الاستمرار فى رسالته ، ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام . ويصور لنا القرآن الكريم موقفاً من مواقف الحوار بين إبراهيم عليه السلام وقومه ، وفيه الحجة البالغة والمنطق السليم . قال تعالى فى سورة الشعراء (آية ٦٩ - ٨٦) .

« واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟

قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين .

قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟

قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟

فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين .

والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

رب هب لى حكماً ، وألحقنى بالصالحين ، واجعل لى لسان صدق فى الآخرين .

واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين » .

● أعيت إبراهيم عليه السلام الحيل فى إقناع قومه ، ولم تفدهم الأدلة والبراهين المنطقية ، ولا الحجج الدامغة الكلامية ، فلجأ إلى برهان عملى يعرّض حياته للخطر ، فأقدم عليه رابط الجأش غير هياب ، وانتهز فرصة عيد قومى خرج له أهل بابل جميعاً للاحتفال به ، وذهب هو خفية دون أن يراه أحد إلى معبدهم . حيث أصنامهم قائمة ، وانهال عليها بفأسه يكسرها ويحطمها حتى جعلها جذاذاً وفتاتا ، وترك الصنم الأكبر ، وعلق الفأس فى رقبته ، لحكمة أضمرها فى نفسه ، وفى هذا يحدثنا القرآن الكريم حديثاً مستفيضاً ، قال تعالى فى سورة الأنبياء (آية ٥١ — ٧١) :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين .

إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟

قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟

قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .

وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين .

فجعلهم جذاذاً ، إلا كبيراً لهم ، لعلهم إليه يرجعون .

قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين .

قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .

قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

قال : بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون !

فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا إنكم أنتم الظالمون .

ثم نكسوا على رءوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟

أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون !

قالوا : حرّقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين .

قلنا : يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم .

وأرادوا به كيداً ، فجعلناهم الأخسرين .

ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

● ولم يذعن قوم إبراهيم لهذا الدليل القاطع ، وبما شاهدوا من الحق ، وأمر النمروذ بسجنه ثم حرقه . فجمع أهل بابل الخشب والحطب أياماوليالى ، وأشعلوا فيها النار حتى تأججت واشتد لهيبها ، وألقوا بإبراهيم مكتفا فى وسطها رميا بالمنجنيق ، وظنوا أن النار قد أكلت لحمه وشحمه ، وأنه أصبح رماداً تذروه الرياح ، ولكن الله حفظه وصانه ، وأمر النار أن

تكون برداً وسلاماً ، وخرج إبراهيم من النار ، ولم تمسسه بسوء ، فهال القوم هذا الإعجاز ، وكادوا يؤمنون به وبدعوته ، ولما ذاعت وشاعت هذه المعجزة ، وقرعت أسماع النمروذ ، خاف أن يفتتن الناس به ، وأمر أن يحضروه فوراً إلى قصره ، وأخذ يحاور إبراهيم عليه السلام ، فى حقيقة إلهه الذى يعبده ويدعو إليه ، ودار بينهما هذا الحوار الذى يصوره لنا القرآن الكريم أجمل تصوير .

قال تعالى فى سورة البقرة (آية ٢٥٨) :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أن آتاه الله الملك .

إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيي ويميت .

قال : أنا أحيي وأميت .

قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

● وخرج إبراهيم عليه السلام من مجلس الملك خائفاً يترقب ، لأنه توجس الشر من النمروذ ، وعقد العزم على الهجرة من وطنه ، والفرار من انتقام قومه ، وصحبته زوجته السيدة سارة فى رحلاته وأسفاره التى قطع فيها الوهاد والقفار ، متنقلا بين سوريا وأرض كنعان (فلسطين) ومصر والعراق والشام وفارس والهند ، وكان أينما حل يدعو الناس إلى توحيد الله ، وترك عبادة الأصنام ، ولقد لاقى فى رحلاته كثيراً من المتاعب والشدائد والأهوال ، وهو لا يبالى بهذه الصعاب ، لأن غايته كانت بناء دولة التوحيد ورفع صرحها عالياً بين الأمم ، وقد ساقته الأسفار ذات مرة إلى بلاد يعبد أهلها الكواكب ، فأراد إبراهيم أن يظهر لهم خطأهم وفساد اعتقادهم ، عن طريق العقل والإقناع ، ويصور لنا القرآن الكريم هذا الشأن فى سورة الأنعام (آية ٧٥ — ٨٣) .

• « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين .

فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون .

إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين .

وحاجه قومه قال: أتحاجونى فى الله ، وقد هدان ، ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ؟ .

وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا .

فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون .

الذين آمنوا ، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون .

وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم » .

وكانت نتيجة هذا الحوار أن دخل الاقتناع فى عقول بعض هؤلاء القوم ، فصدقوا حديثه وقوة منطقه ، فآمنوا به واتبعوا دعوته .

• وظل إبراهيم يسيح فى الأرض شرقاً وغرباً ، وعناية الله تلازمه ، وتوفيقه تعالى وإلهامه يصاحبه ، حتى أقام معالم التوحيد فى كل بلد نزل فيه ، ففى مكة البلدة المقفرة الموحشة ، رفع قواعد البيت الحرام ، وجعل أفئدة

الناس تهوى إليها ، وتقصدها من كل فج عميق ، وفى بلاد الهند والصين وصلت أخبار دعوته وانتشرت بذورها فنمت وترعرعت، وخلفت وراءها آثاراً مباركة ، حتى أن أغلب الكتب المقدسة فى هذه البلاد تظهر فيها تعاليم إبراهيم عليه السلام الخاصـــة بعقيدة التوحيد ، ففى البوذية والبرهمية والكنفوشيوسية اتجاهات صادقة إلى أصول التوحيد ، ويقول الباحثون إنها من تعاليم إبراهيم التى وصلت إلى هناك ، وامتزجت بعقائدهم الدينية ، وأصبحت اللمعات المشرقة فى ثنايا كتبهم وتعاليمهم مقتبسة أصلا من سراج التوحيد ، الذى أنار به إبراهيم عليه السلام بلاد الله ، التى وصلت إليها دعوته أو أخبارها .

« وحتى فى فارس ، وهى البلاد التى عرفت قديماً بأنها تعبد النار ، فإن هناك آراء لبعض الكتاب تقول : إن ذلك كان فى أول الأمر عملا مقبولا ، يراد به احترام النار وإجلالها ، لأنها أبت أن تحرق إبراهيم عليه السلام من إحراقها ،وهم لهذا احترموها فقط ، وما نشك أنهم كانوا يؤمنون بمن جعل النار تتنكر لطبيعتها وهو الله تعالى ، إكراماً لسيدنا إبراهيم الخليل عليه صلاة الله وسلامه ، ولكنه مع مرور الزمن وتقادم العهد نسى النـاس ذلك ، وقدسوها ثم عبدوها ، وهذه الحـالة بالذات سوف نراها واضحة وجلية فى موضوع الشرك وعبـادة الأصنـام ، وكيف أن العمل الصالح ينقلب أحياناً إلى نقيضه تماماً ، والخلاصة أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمجهوداته ومحاوراته وتضحياته وكثرة مآثره الخالدة لم يكن فرداً ، بل كان أمة فى شخص واحد .

دعوة موسى عليه السلام

ومن رسل الله أولى العزم الذين أبلوا بلاء حسناً فى مكافحة الشرك ، ونشر دعوة التوحيد موسى عليه السلام ، فقد ترك وطنه مصر ، وما كان ينتظره فيها من رفعة المنزلة ، وعظم الجاه ، لأنه ربيب قصر الملك فيها ، شملته عناية فرعون وزوجه منذ طفولته حتى شب وكبر ، وأصبح يشار إليه بالبنان ، بأنه سوف يكون له شأن كبير وخطير فى مصر ، كما كان شأن يوسف عليه السلام ، من قبل ، ولكنه ترك كل ذلك وغادرها إلى أرض مدين ، حيث عاش هناك أجيراً لشيخ عجوز ، يرعى له غنمه ، ويقوم على خدمته عشر سنوات ، وقد زوجه إحدى ابنتيه لما آنس من استقامته وأمانته ونزاهته، وقد رضى موسى بهذه الحياة بكل مافيها من شظف وجهد، لأن بين جنبيه شعلة متقدةمن الإيمان ، جعلته ينفرمن حياة فرعون المترفة ، وما فيها من استكبار وظلم ، وكفر وشرك ، ولأن فرعون فرض نفسه إلها على شعبه ، يعبدونه من دون الله .

• وبعد أن أتم موسى عليه السلام الأجل المتعاقد عليه مع الشيخ لخدمته تحرك فى قلبه الحنين إلى وطنه ، فعاد مع زوجه إلى مصر ، وسار جنوباً حتى وصل طور سيناء ، وهناك ضل الطريق ، ووقف حائراً لا يدرى أين يتوجه ، حتى أبصر ناراً من الجهة التى تلى جبل الطور فأسرع إليها بعد أن قال لأهله :

« امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس ، أو أجد على النار هدى » وفى تلك الليلة المباركة ، وعلى شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة نودى : يا موسى : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى » فكان ذلك بدء نبوته وفاتحة رسالته ، وأمره ربه قائلا : « اذهب إلى فرعون إنه طغى » فطلب موسى من ربه أن يؤيده بأخيه هارون ليشد أزره ، لأنه كان أفصح

منه لساناً . وأعطاه ربه من البراهين على صدق دعوته معجزتين : إحداهما في عصاه ، والأخرى في يده ، وفي سورة طه (آية ٤٢ - ٥٢) يتبين ذلك في قوله تعالى :

« اذهب أنت وأخوك بآياتي ، ولا تنيا في ذكري ،
اذهبا إلى فرعون إنه طغى ،
فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ،
قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ، أو أن يطغى ،
قال : لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ،
فأتياه فقولا : إنا رسول ربك ، فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ،
قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى ،
إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ،
قال : فمن ربكما يا موسى ؟
قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ،
قال : فما بال القرون الأولى ؟
قال : علمها عند ربي في كتاب ، لا يضل ربي ولا ينسى » .

• ويقص علينا القرآن في سورة الأعراف (آية ١٠٣ — ١٢٨) مشهداً من مشاهد الحوار بين موسى وفرعون ، قال تعالى :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .

وقال موسى : يا فرعون ! إني رسول من رب العالمين ، حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معي بني إسرائيل .
قال : إن كنت جئت بآية ، فأت بها ، إن كنت من الصادقين .
فألقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبين .

ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين .
قال : الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم .
يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ؟
قالوا : أرجه وأخاه ، وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم .
وجاء السحرة فرعون قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟
قال : نعم وإنكم لمن المقربين .
قالوا : يا موسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقين .
قال : ألقوا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .
وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ، فإذا هى تلقف ما يأفكون .
فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .
فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين .
قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .
قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم ، إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ، فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين .
قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً ، وتوفنا مسلمين .
وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك وآلهتك ؟
قال : سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ، وإنا فوقهم قاهرون .
قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

ولقد لاقى موسى وهارون عليهما السلام كثيراً من العنت والمشقة فى رسالتهما إلى فرعون وقومه ، وكثيرا من المتاعب مع بنى إسرائيل ، كل ذلك من أجل توحيد الله سبحانه وتعالى ، والبعد عن ضلال الشرك والأصنام .

دعوة عيسى عليه السلام

● ومن هؤلاء الرسل الكرام عيسى عليه السلام ، فهو ينتمى إلى أسرة عريقة فى الصلاح والشرف ، وقد ولدته أمه السيدة مريم العذراء البتول بغير أب ، وتلك إرادة الله الذى خلق آدم من تراب ، وفى هذا يحدثنا القرآن فى سورة مريم (آية ١٦ — ٢١) .

« واذكر فى الكتاب مريم ، إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا .
فاتخذت من دونهم حجاباً ، فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا .
قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا .
قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا .
قالت : أنّى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ؟
قال : كذلك قال ربك ، هو على هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمراً مقضيا » .

● فلما وضعته تحيرت فى أمرها ، وساورها القلق والحزن ، ولكنها سمعت وهى فى تلك اللحظات الحرجة صوتاً يناديها ، ألا تحزنى ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا ، فكلى واشربى من هذا الجدول الذى أوجده الله لك فى تلك الهضبة المجدبة المقفرة ، فاطمأن قلبها لما خاطبها وليدها ، وهو فى المهد بإلهام من الله تعالى ، وأيقنت أنه سيدافع عنها ، وسيبرئها من قذف القاذفين ، وعيب العائبين ، وقال لها :

« فإما ترين من البشر أحداً فقولى : إنى نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم إنسيا » .

فلما رجعت إلى قريتها ، وأتت به قومها تحمله ، وجه إليها الناس تأنيباً وتقريعاً ، وقالوا لها :

« يا مريم لقد جئت شيئاً فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » فالتزمت الصمت وأشارت إلى طفلهـا أن كلموه » فسخروا من إشارتها وقالوا لها : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ ولكن الله أطلق لسانه ، وقال لهم :

« إنى عبد الله، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت .

وأوصانى بالصلاة والزكاة ، ما دمت حيا ، وبراً بوالدتى ، ولم يجعلنى جباراً شقيا .

والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا .

ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً ، فإنما يقول له : كن فيكون » .

● يقول المؤرخون أن هيرودوس ملك اليهود وقتئذ لما سمع بحكاية مريم وولدها عيسى عليهما السلام ، خاف على ملكه ، وأمر بقتل كل طفل فى بيت لحم ، فخشى زكريا وبقية المؤمنين عليهما من القتل ، وكلف يوسف النجار أن يرحل بهما بعيداً ، فسار إلى مصر ، واستقر ببلدة عين شمس ، ويقول بعض مفسرى القرآن الكريم إن قوله تعالى : « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » ، أن المقصود مصر ، وهناك عاشوا يعملون ، فمريم كانت تغزل الكتان والصوف ، ويوسف النجار كان يحتطب ويبيع الحطب ، وأقاموا بمصر بضع سنين ، ثم عادوا إلى فلسطين ، ونزلوا هنـاك بقرية الناصرة ، بعد موت هيرودوس .

● ولما بلغ عيسى عليه السلام الثانية عشرة ظهرت بوادر نجابته وفضله ، وكان على صغره يجالس العلماء ويناقشهم ، ويسائلهم فى كثير من المسائل الدينية . ومضت فترة طويلة بعد ذلك قضاها كما يقول بعض المؤرخين متنقلا بين بعض الأقطار كما فعل إبراهيم عليه السلام من قبل ، وكان عمله الذى كرس له همته أن يرشد بنى إسرائيل الذين انحرفوا عن شرائع الله التى جاءهم بها موسى عليه السلام ، وعطلوا العمل بكثير من تعاليمها أو حرفوها . فقد ظهرت بين اليهود طائفة تنكر البعث ، وتستبعد الحشر . وكذبوا الحساب والعقاب . وتعددت طوائفهم التى زاغت عن العقيدة السليمة . وكان نشاطه هذا مقوضاً لسلطة رجال الدين ، ومزعزعاً للثقة فيهم ، فخافوا من ضياع الأموال التى كانت تنهال عليهم ، وتتدفق فى خزائنهم ، وأحسوا بالخطر المحدق بهم من رسالة عيسى عليه السلام ، فناصبوه العداء ، ووشوا به لدى الحاكم ، ورموه بأنه داعية فرقة وفتنة ، وأن دعوته خطر على أمن الدولة وسلامتها .

● وفى سن الثلاثين (١) هبط عليه الروح الأمين وهو جبريل ، فكان ذلك فاتحة النبوة وبدء الرسالة ، ثم تلقى من ربه الكتاب ، الذى جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، فأخذ يدعو الناس إلى الإيمان بالله ووحدانيته . ويسعى فى أن يرد اليهود عن زيغهم وانحرافهم ، ويصدهم عن ضلالهم .

وكانت دعوته كما بينها الله فى كتابه العزيز صريحة فى قوله تعالى :

« ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وإن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » .

ويقول الله تعالى أيضاً :

---

(١) يقول علماء التوحيد إن النبوة إنما تكون بعد الأربعين فكيف نبىء عيسى فى الثلاثين، والجواب أن هذا أمر غالبى ، فقد ينبأ النبى قبل الأربعين ، وهذا يحيى بن زكريا يقول الله فيه : « وآتيناه الحكم صبيا » .

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم » .

● كان عيسى آخر نبى من بنى إسرائيل ، قامت دعوته على عبادة الله وحده وعلى تصحيح العقائد التى حرفها اليهود فى شريعة موسى ، ولكن ذلك لم يرض الكهنة ، وتوجسوا خوفاً من زوال سلطتهم وسيادتهم على يديه ، لأنهم رأوا فى حياة المسيح من التقشف وشظف العيش ما أذهلهم ، إذ كان يأوى إلى رءوس الجبال منقطعاً للعبادة ، ثم الاندماج مع كافة طبقات الشعب من صيادين ورعاة وزراع وسوقة يعلمهم ويهذبهم ، وهى حياة تخالف تماماً حياة البذخ والترف والنفاق التى كانوا عليها ، فكان لا بد لهم لحفظ كيانهم من الإيقاع والوشاية به لدى الحكام بمختلف التهم الباطلة ، وعيسى عليه السلام ماض فى أداء رسالته لا يحيد عنها ، لا تفتر له همة ، ولا تخور منه عزيمة ، وقد أيده الله بالمعجزات الباهرة ، مثل إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، كما كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وغير ذلك من الخوارق التى جمعت الناس حوله ، وجعلت المسيحية تتغلغل وتتأصل فى قلوب المؤمنين ، الذين رأوها على أحسن وأكمل صورة من عقائدها ومبادئها ، توحيداً لله وبعداً عن الشرك والإشراك .

ومضى عيسى عليه السلام ينشر دعوته ، وظل أعداؤه اليهود يدسون له المكائد حتى استطاعوا أن يشتروا ذمة أحد الحواريين وهو يهوذا الأسخريوطى بدراهم معدودات ليدلهم على مكان اجتماع عيسى عليه السلام بأتباعه ، وما كاد يصل يهوذا بالشرطة إلى هذا المكان حتى ألقى الله عليه شبه الرسول عيسى ، فقبض عليه وصلب وهم يظنونه أنه هو عيسى الذى

رفعه الله إليه ، وبعد ثلاثة أيام أنزله الله ليبين للحواريين أنه رفع إلى السماء ولم يقتل ولم يصلب . وليأمرهم بتبليغ رسالته فى النواحى والأقطار ، واجتمع بأمه وبين لها حقيقة الأمر ليخفف أحزانها .

• ومن يقرأ القرآن يجد فيه قصصاً كثيرة متنوعة عن أنبياء الله ورسله، وكلها تصور لنا مشاهد الصراع الهائل بين أتباع عقيدة التوحيد وأهل الشرك والكفر ، ويقرأ القارىء أخبارها فيزداد عجبه ودهشته من قوة إيمان هؤلاء الأنبياء والرسل ، وطول صبرهم ، وكثرة احتمالهم ، وصدق بلائهم ، وقد بينت لنا الآيات تلك البراهين الساطعة التى لا يتطرق الشك إليها ، والأدلة التى لا يمكن أن تنقض ، والتى أقامها أنبياء الله ورسله لإقناع قومهم . ورغم ذلك عاند المشركون ولم يذعنوا للحق ، ويضرب لنا القرآن الأمثال بالمكذبين الذين صب عليهم العذاب صبا . من فوق رءوسهم ومن تحت أرجلهم حرقاً وإغراقاً وإهلاكا بمختلف المهلكات جزاء إجرامهم وطغيانهم وشركهم ، وقد بقيت للشرك بعد هذه الرسالات العظيمة معاقل تدافع عنه، ولكن إلى حين ، وعندما أرسل خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجد الجزيرة العربية غارقة إلى أذقانها فى بحر الوثنية ؛ وكان فى كل قبيلة ، وفى كل موطن ، بل وفى كل دار صنم يعبد من دون الله ،وكانت الكعبة وهى بيت الله الحرام ، مقراً لمئات الأصنام من مختلف الأشكال والأحجام والمواد ، يقصدها أهل الجزيرة حاجين إليها ، وقد أشرب حبها فى قلوبهم ، وهاموا بعبادتها إلى حد الهوس والجنون،مما جعل رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم عسيرة أشد العسر ، ولقد تحمل الرسول من التعب والنصب والإيذاء ما لم يحتمله بشر، وصبر وصابر، حتى أصبحت كلمة التوحيد هى العليا . وفى الكلام عن رسالة الرسول فى الباب الثالث سنبين ذلك بالتفصيل .

قصص بعض الموحدين فى القرآن

لم ينزل الله سبحانه وتعالى على أحد من رسله كتاباً جامعاً لأخبار الأولين والآخرين ، ومفصلا لسير الأنبياء والمرسلين ، مثل القرآن الكريم فى دقة وصفه وبلاغة تعبيره ، فقد جاء بياناً وافياً لكل ما كان من نضال بين كل رسول وقومه ، وفيه نصوص شاملة لما دار أو احتدم من نقاش وجدل حول عقيدة التوحيد ، وقد وردت قصص مكررة فى ثنايا القرآن بصيغ متنوعة ، وأساليب مختلفة ، لكى تكون لمن يقرؤها تذكرة وتبصرة وحجة بينة على حقيقة التوحيد . ولم يقتصر القرآن الكريم على قصص الأنبياء والمرسلين ، بل جاء فيه ذكر بعض المؤمنين الذين أخلصوا لله دينهم ، وكانت لهم مواقف من التضحية والاستشهاد تقشعر من هولها الأبدان ، مثل قصة أصحاب الأخدود . ومواقف أخرى من صدق اليقين ، والفرار من وجه الكفر والظلم مثل قصة أهل الكهف ، وإليك الحديث عنهما :

أصحاب الأخدود

• فى سورة البروج بالجزء الثلاثين يقول الله تعالى فى شأن أصحاب الأخدود :

« قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شىء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ، فلهم عذاب جهنم ، ولهم عذاب الحريق » .

• وخلاصة هذه القصة أنه كان فى نجران إحدى مدن اليمن رجل صالح يدعى فيميون ، وكان زاهداً عابداً يعتنق المسيحية ، وكان أهل نجران وثنيين

يعبدون الأصنام ، وقد استطاع فيميون هذا أن يستميل إليه قلوب الناس حتى أحبوه ، واتبعوه ، وعبدوا الله وحده على ملته ، ونبذوا أوثانهم ، وقامت بذلك جماعة تدين بالنصرانية فى قلب نجران ، وحولهم العرب فى كل مكان أهل أوثان .

● وكان ذونواس ملك اليمن وسيد قبائل حمير وقتئذ يدين باليهودية ، فدعا أهل نجران النصارى إلى دينه . وخيرهم بين القتل أو إطاعة أمره ، لأنه رأى أن بلاده لا تتسع لدينهم ودينه ، ففضلوا الموت على اتباع دينه ، فلما أبوا لم يكتف بأن يقتل ويشنق ، ويعذب ويمثل ، بل شق لهم شقاً (أخدوداً) فى الأرض ، أضرمت فيه النيران ذات الوقود الشديد ، واللهب المتأجج ، وجاءوا بهؤلاء المؤمنين واحداً واحداً ، وألقوهم فى هذا الأخدود المضطرم المستعر ، وقعد الملك ومن معه على جوانب الأخدود يشاهدون احتراق الأجساد الحية ، وما تفعله بها النيران ، وما كان هذا الانتقام الفظيع منهم إلا لأنهم آمنوا بالله وحده ، وكان فى إمكانهم أن يخلصوا أنفسهم ، ويتظاهروا بالطاعة لهذا الملك القاسى الغليظ القلب ولكنهم كانوا على ثقة من أن عذاب الدنيا مهما كان ، فهو هين يسير بالنسبة لعذاب الآخرة .

أهل الكهف

● أما قصة أهل الكهف (١) فهى عن سبعة من أبناء الروم الأشراف الذين عاشوا فى جزيرة إفسوس القريبة من ساحل آسيا الصغرى ، جمعتهم فكرة واحدة هدتهم إليها فطرهم السليمة ، ثم أعلنوا شكهم وارتيابهم فى الآلهة التى يعبدها قومهم ، وجالوا متفكرين فى رحاب هذا الكون

(١) لقى النبى محمد عليه السلام عنتا شديدا فى محاولته إقناع قومه قريش أن يسلموا ، وكان من تعنتهم أنهم بعثوا إليه أحبار اليهود يسألونه فى مسائل معضلة لامتحانه فسألوه عن فتية ذهبوا فى الدهر ، وعن رجل طواف ، وعن الروح ، فنزلت عليه سورة الكهف ، وفيها رد على أسئلتهم .

العظيم ببصائرهم النافذة ، حتى أضاءت نفوسهم بنور التوحيد ، وألهموا أن الله هو الخلاق ذو القوة المتين . وأنه وحده مالك الملك ، فاطمأنوا إلى هذا الإيمان بالله ، واتفقوا على أن يكتموه بين جوانحهم ، ويستروه عن الناس ، حتى لا يعلم بذلك أحد ، فيشى بهم عند الملك ، فقد كان وثنيا ممعنا فى الوثنية ، مشركا وظهيراً للمشركين ، هذا الملك هو دقلديانوس قيصر الروم ، وكان قد تنكر للنصرانية ، واستباح أهلها ، وأسرف فى ذبح النصارى وتعذيبهم ، فتوارى الناس هربا منه ، وفراراً بدينهم من ظلمه وجبروته ، حتى لقب عصره بعصر الشهداء .

● وقد وصل إلى علم الملك خبر هؤلاء الفتية ، فأمر بإحضارهم ، وقال لهم : لقد حاولتم ستر دينكم الذين تؤمنون به ، وصبأتم عن دين الملك والرعية ، وإنكم من أشراف قومكم ، ولو تركتم وشأنكم لاتبعكم العامة ، ودخلوا فى دينكم ، وفى ذلك ما فيه من إفساد ملة الدولة ، وانقسام الرعية واختلال الأمن ، فإما رجوع إلى ملتنا ، وإما قتل وتعذيب . ولكن الله ربط على قلوبهم ، ولم يرهبهم الوعيد ، وقالوا : أيها الملك إن هذا الدين الذى نعتنقه لم ندخل فيه مقلدين أو مكرهين ، وإننا نؤمن بربنا الواحد الأحد عن علم ويقين ، وأنك مهما فعلت بنا لن ندعو من دونه إلها ، وإن هذه الأصنام والتماثيل التى يعبدها قومنا إنما عبدوها مقلدين جاهلين ، ولا يمكنهم أن يأتوا بأى برهان يدل على ألوهيتها ، أو أن لها من الأمر شيئاً ، وهذا ما انتهى إليه علمنا « فاقض ما أنت قاض » .

● وقال لهم الملك ، اذهبوا اليوم على أن تأتونى فى الغد ، أنظر فى أمركم ، فلما خلصوا إلى أنفسهم يتشاورون ، رأوا أنهم لا مقام لهم بين أيدى ملك وثنى متوعد قاسى القلب ، فتسللوا من بيوتهم خفية يترقبون ، ولحق بهم فى الطريق كلب ، حتى بلغوا جبلا فيه كهوف وأغوار ، فدخلوا كهفاً منها وتواروا فى فجوته حتى يهيىء لهم ربهم من أمرهم مخرجا ، فألقى الله عليهم

السبات فناموا . وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف، وأخفى الله مكانهم عن جميع خلقه . وصرف عنهم الأبصار والعقول فلم يذكرهم أحد « ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا » حتى انقرض جيلهم الذى عاشوا فيه ، ومات الملك الذى كانوا يخشون بأسه ، وخلفه ملوك يدينون بالنصرانية .

● وبعد أن لبثوا هذه الفترة الطويلة ، بعثهم الله تعالى ، ورد إليهم أرواحهم وتحركوا من مرقدهم ، وأخذوا يتحدثون همسا ، فقال قائل منهم: كم لبثتم فى هذا الكهف ؟ فأجابه بعضهم : لبثنا يوما أو بعض يوم . وقال آخر ربكم أعلم بما لبثتم ، وأحسوا بالجوع ، فبعثوا واحداً منهم ليشترى طعاما ، وحذروه من جواسيس الملك السفاح ، فلما خرج أكبرهم وأكيسهم تمليخا ، جعل ينتقل متخوفا حذرا ، ورأى الناس على حال لم يكونوا عليه بالأمس . ورأى معالم الديار والمبانى والطرقات قد تغيرت ، ووجد الناس فى أزياء وأحوال لم يرها من قبل ، فلما قدم نقوده إلى البائع ليشترى منه طعاما أنكرها لقدم عهدها ، وأمسك به البائع وظن أنه وقع على كنز ، وسأله من أين لك هذه الدراهم ؟ فقال له: إنها ملكى ، ولم أعثر عليها ، فقال له: ألا تدرى أنها سكت فى عهد الطاغية اللعين دقلديانوس الذى مات منذ ثلاثمائة عام وتسع سنين ؟ فسأله تمليخا عن حال المدينة وعن دينها ومن يحكمها ، فقال له : إننا جميعا نعبد الله تعالى وحده ، ونقرأ الإنجيل وملكنا على ديننا ، فاجتمع أهل السوق على تمليخا ، يسألونه عن أمره ، فأخبرهم بقصته وقصة زملائه ، فقالوا له إنك تحدثنا عن عهد انقضى عليه ثلاثمائة عام ، وأحس الناس وهم يتصفحون وجهه وسائر بدنه أنه رجل من المؤمنين الطاهرين ، أحياه الله ليريهم آياته فأدخلوه كنيستهم وعظموه وتبركوا به ، وعاد تمليخا مع جمع من أهل المدينة إلى الكهف لرؤية أصحابه ، ولما أخبرهم تمليخا بما رأى وسمع أخذوا يتحدثون عن المعجزة البالغة ، وبعد ذلك ضرب الله على آذانهم فعادوا إلى مضاجعهم ، وردوا إلى عالم الغيب ، وطال وقوف الجموع

الحاشدة بباب الكهف ، فلما علموا أنهم ماتوا جميعا ، وأصبحوا فى رحمة الله ، قال بعضهم : « ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم » .
وقال آخرون : « لنتخذن عليهم مسجدا » .
وقد أرادوا بهذا المسجد أن يصلوا فيه ، على مقربة من مثوى هؤلاء المؤمنين ، طلبا للموعظة ، وتأكداً من حتمية البعث .

القرآن الكريم ودعوة التوحيد

● وجهت الآيات (١) القرآنية نظر الإنسان وفكره إلى ما فى الكون من الدلائل الحسية والمعنوية التى تشهد بوجود صانع مدبر حكيم ، أوجد الأشياء المحيطة بالإنسان لينتفع ويتمتع بها ، وقد أراد رب العزة لعباده بهذا النظر والتفكير أن يتحققوا بأنفسهم أن هذه النعم التى أمدهم بها فى مشاعرهم الروحية بالإيمان بوجود الله تعالى ، والتى أمدهم بها لحفظ كيانهم الجسمانى بألوان الغذاء والكساء والماء والهواء ، كل ذلك لكى يتحقق الإنسان بأن الإسلام يجمع فى شرعته بين الروح والجسد لتكوين الشخصية الإسلامية المؤمنة بربها والمعترفة بفضله وإحسانه عليها ، واستحقاقه لعبادته وحده .

● وفى سورة الأنعام آيات تؤكد عقيدة التوحيد بالتفكر فى مصنوعات الله ونعمه التى لا حصر لها ، والتى يتقلب العباد فى منافعها ومتاعها ولذائذها ، ومن ذلك الزروع والأنعام ، كما أن الآيات تلفتهم إلى ما فى الزروع والأشجار من ثروة نباتية ينتفعون بأخشابها وأليافها فى شتى مرافقهم ، وبثمارها فى طعامهم وشرابهم وكسوتهم ، كما أنها تلفتهم إلى ما فى الأنعام من ثروة حيوانية لهم فيها دفء ومنافع ومنها يأكلون ، وهذه كلها من مقومات الحياة البشرية .

---

(١) الآية من ١٤١ إلى نهاية ١٥٠ .

● وقد شملت سورة الأنعام كثيراً من أدلة التوحيد والرسالة والبعث، وأبطلت الشبهة التي كان يثيرها خصوم الإسلام . ووضحت للرسول صلوات الله وسلامه عليه وصحبه الكرام جملة من سنن الله تعالى في الهداية والإضلال، وفي معارضة الباطل للحق ، ثم إن هـذه السورة ركزت على دعوة الإسلام وأنها تدعو إلى أمهات الفضائل الإنسانية ، وإلى أسس الخير للفرد والجماعة من كافة النواحي اللازمة للأمن والسلام :

فمن ناحية عقيدة التوحيد قال تعالى : «ولا تشركوا به شيئاً» لأنه سبحانه هو وحده المستحق للعبادة والتقديس .

ومن طلب الأعمال الصالحة وإنجازها قوله تعالى في الآيات التالية :

« وبالوالدين إحساناً » لأن الفرد منهما نشأ ، وبينهما تربى .

« ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » لأن الأولاد ثمرة الحياة وسر استمرارها ، وامتدادها ، ولأن الله هو الرزاق لخلقه .

« ولا تقربوا الفواحش » لأن كبائر الآثام فيها عواقب وخيمة .

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » لأن في ذلك اعتداء على النظام العام وإخلالا بالأمن والسلام .

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » لأن أموالهم فيها حياتهم.

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » لكي يأخذ كل إنسان حقه كاملا .

ومن ناحية الكلام وصدور الأحكام قوله تعالى :

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » لأنه لا يمكن أن ينظم حال الناس إذا نشأ الظلم في أحكامهم والمحسوبية في تصرفاتهم .

● وتأتي خاتمة هذه السورة بإرشاد الانسان إلى مكانته التي أعدها الله في هذه الحياة ، تلك المكانة التي تمثلها خلافته في الأرض وأنه ،وكل بعمارة الأرض ، ويقوم السابق في ذلك مكان اللاحق ، تصديقا لقوله تعالى :

« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

● وفى سورة آل عمران آية ١٨ ، ١٩ قوله تعالى :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » .

● ومعنى الآية الأولى أن الله سبحانه وتعالى بين للناس بما بث فى الكون من دلائل وآيات لا ينكرها ذو عقل ، أنه واحد لا شريك له ، وأنه قائم على شئون خلقه بالعدل ، وأقرت بذلك الملائكة الأطهار وعلمه أهل العلم موقنين به ، وأنه جل شأنه المنفرد بالألوهية الذى لا يغلبه أحد على أمره وشملت حكمته كل شىء .

ومعنى الآية الثانية : أن الدين المرضى عند الله هو الانقياد والاستسلام لطاعة الله وتوحيده فى إخلاص ، وقد اختلف كل من اليهود والنصارى فى هذا الدين فحرفوا وبدلوا ، ولم يكن اختلافهم عن شبهة أو جهل إذ جاءهم العلم ، بل كان ذلك للتحاسد والتطاول ، ومن يجحد بآيات الله فلينتظر حساب الله السريع .

آيات قرآنية

تنطلق بوجود الله تعالى ووحدانيته

• وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تنطق بوحدانية الله تعالى ، وتحض على الاعتقاد بها ، ومن ذلك قوله تعالى ، وليس أصدق من الله قيلا :

« وليعلموا أنما هو إله واحد » (إبراهيم ٥٢)

« قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد، فهل أنتم مسلمون » (الأنبياء ١٠٨)

« لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » (غافر ١٦)

« قل إنما أنا منذر ، وما من إله إلا الله الواحد القهار » (ص ٦٥)

« قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار » (يوسف ٢٩)

• كما وردت آيات تشير إلى هؤلاء الذين لم يؤمنوا بوحدانية الله ، ومن ذلك قوله تعالى فى شأنهم :

« قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا »
(الأعراف ٧٠)

« وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ، ولوا على أدبارهم نفورا »
(الزمر ٤٥)

« ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم » (غافر ١٢)

« ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خير لكم ، إنما الله إله واحد » (النساء ١٧١)

• ومن الآيات ذات الدلالة الكبرى على حقيقة وحدانية الله ، وفيها أكبر شهادة بذلك ، قوله تعالى فى سورة آل عمران (آية ١٨ — ١٩)

« وشهد الله أنه لا إله إلا الله هو والملائكة وأولوا العلم ، قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله ، فإن الله سريع الحساب » .

• وفى الآية الأولى من هاتين الآيتين يقول المفسرون : إن الله أخبر ملائكته وأشهدهم على أنه هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، أعلمهم بتلك الحقيقة علما يقينيا ، ليبلغوها إلى رسل الله وأنبيائه ، لكى يقوم هؤلاء الرسل والأنبياء بدورهم فى إعلانها وتعريف الخلائق بها ، ثم ليفهمها العلماء حق الفهم ، فيتولوا بيانها وشرحها وإيضاحها للناس ، فى كل زمان ومكان ، وفى هذه الآية إشارة ذات دلالة هامة ، وهى أن الله سبحانه وتعالى قائم بالقسط ، أى بالعدل فى أمور الدين فلا يحاسب الناس على كفرهم وشركهم إلا بعد أن يرسل إليهم رسله لهدايتهم وإظهار بطلان معتقداتهم ، كما أنه سبحانه وتعالى ، قائم بالقسط أيضا فى تنظيم أمور هـــذه الأكوان التى أوجدها من العدم ، وأوجد فيها هذا التوازن والتناسق البديع فى تنظيمها ، وسن لها القوانين المحكمة الدقيقة ، فى كل أمورها المادية والروحية ليضمن لها حسن الاستقرار وسلامة البقاء وتكون شاهدة على موجدها ومدبر أمورها .

• وفى الآية الثانية يخبر المولى سبحانه وتعالى عباده أن الدين الذى ارتضاه وأحبه لهم هو دين الإسلام ، لأنه دين الاستسلام لما جاء به رسول الله من الهدى والحق ، وقد جعله الله سبحانه آخر الأديان ، وأوفى الأديان بكل ما تتطلبه حياة البشر على وجه الأرض حتى آخر الأزمان ، وقد جاء هذا الدين موافقا لما ورد فى صحاب الشرائع السابقة فى جوهره وغايته ، لأنه دعوة إلى التوحيد والعدل والإحسان والسلام ، وقد أكد الله إرادته هذه بقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » وتتضمن هذه الآية أيضاً رداً على اختلاف أهل الكتاب ، وانسياقهم إلى الكفر والشرك بنسبة الألوهية لغير الله ، مع أن الله والملائكة والعلماء شهود على وحدانيته تعالى ، فلا محل للجدل والمناقشة فى هذا الحق المبين .

شواهد تاريخية من سيرة الرسول

• ولقد ورد فى أخبار السيرة النبوية أن اثنين من أحبار الشام ذهبا إلى رسول الله فى المدينة ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج فى آخر الزمان ! فلما دخلا على النبي ﷺ ، عرفاه بصفاته المذكورة فى التوراة ، ثم قالا له : أنت محمد ؟ قال: نعم، قالا : وأنت أحمد ؟ قال : نعم ، قالا : نسألك عن شهادة ، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك ، فقال لهما رسول الله ﷺ : سلانى ، فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله ، فأنزل الله عليه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » فأسلم الحبران .

• بهذه القصص التى أوردناها عن رسل الله وأنبيائه ، ثم بهذه الآيات الشريفة وقصة الرسول مع الحبرين نستهل بحثنا فى موضوع الشهادة بالوحدانية ، هذا الموضوع الذى لا يجد الباحث فيه خيراً من كتاب الله وأحاديث الرسول ، يتعمقها ويستوحيها ، ليجد فيها الدليل والبرهان بعد البرهان ، على حقيقة التوحيد ، الماثلة فى قول « لا إله إلا الله » وليس ثم أصدق من الله حديثا فى خطابه مع المشركين المعاندين ، الذين يتضح لهم نور الحق فينكرونه ، ويظهر لهم إشراق الصدق فيجحدونه ، ذلك لأن طبيعة الكفر ، وظلام الشرك تطمسان البصيرة ، وتحرمان صاحبهما من الهداية ، ولو كان أعقل العقلاء وأذكى الأذكياء ، لأن الشرك كما قيل ظلمات ، وإنه لظلم عظيم ، وفى سورة آل عمران آيات كثيرة تدور معانيها على إثبات رسالة محمد ﷺ ، وأنه الذى يجب أن يؤمن به الناس جميعا ، وأن دينه وهو الإسلام من عند الله حقا . وإليك الآية التالية لتعرف منه لونا من الإقناع بهذه الرسالة ، وحقيقة جوهرها وهو التوحيد وعبادة الله وحده .

* * *

• وحينما اجتمع عند رسول الله وفد نجران من اليهود والنصارى ، ودعاهم إلى الإسلام ، قال له رافع القرظي : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ وقال آخر : أو ذاك تريد منا يا محمد ، وإليه تدعونا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره ، فما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني . ونزل بعد هذا قوله تعالى: « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون (آل عمران ٧٩ — ٨٠) .

• وتلا ذلك قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ، أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً ، وإليه يرجعون ؟ قل : آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين (آل عمران ٨١ — ٨٥) .

• وتدل الآيات على أن الله أخذ عهداً على الأنبياء السابقين فيما آتاهم من كتاب وحكمة ، أن يصدق بعضهم بعضا ، وأن يؤمنوا بمحمد ، وأن يؤمن أتباعهم به وينصروه ، فقد جاء نعته فى كتبهم ، وهو قد جاء برسالة جامعة مؤكدة ومؤيدة لرسالات الرسل السابقين .

وفى معرض الكلام عن وحدانية الله تعالى وألوهيته لابد من الإشارة

إلى آية كريمة جاءت لتناقش المشركين فى عقيدتهم ، وتبين لهم فساد عبادتهم ، من ذلك قوله تعالى ، فى سورة التوبة (٣٠ — ٣١) .

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » .

• ونجد فى نص الآية أن اليهود والنصارى خالفوا أصول دينهم التى وردت فى التوراة والإنجيل ، فاليهود ادعوا أن عزيراً ابن الله ، والنصارى ادعت أن المسيح ابن الله ، وهم فى هذا قد أشركوا بالله ، إذ لا فرق بين من يعبد عزيراً أو المسيح . ومن يعبد صنما ، فهى عبادة لغير الله الحق المستحق للعبادة وحده .

والآية تبين أن اليهود والنصارى اتخذوا علماءهم من الأحبار والرهبان آلهة أو اعتبروهم كالآلهة حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرمه الله عليهم . وتحريم ما أحله الله لهم وهذا مظهر آخر من مظاهر الشرك فى أن يجعلوا للأحبار والرهبان من الاعتبار فى التحليل والتحريم ما يخالفون به أوامر الله تعالى .

• وقد وردت فى ذلك قصة عن رسول الله ﷺ ترويها كتب السيرة . وذلك أن عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ : وفى عنقى صليب من ذهب ، وهو عليه السلام يقرأ سورة براءة فقال : ياعدى أخرج هذا الوثن . فطرحته ، فلما انتهى فى قراءته إلى قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قلت يارسول الله لم يكونوا يعبدونهم . فقال عليه الصلاة والسلام : أليسوا يحرمون ما أحل الله ، ويحلون ما حرم الله ؟ قلت : بلى ، قال : ذلك عبادتهم وهى طاعتهم فى المعصية ، والحقيقة التى لا مراء فيها هى أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط عملها . وصار صاحبه من الخالدين

فى النار . وكما أن الحدث يفسد الصلاة ، فكذلك الشرك يفسد العبادة ، ويذهب بجوهرها الأصيل .

دعوة الإسلام

● بعث الله رسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق ، وأمره أن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، وترك الأوثان والأصنام وتجنب عبادتها ، وقد قام الرسول يجاهد ويناضل فى نشر هذه الدعوة بكل ما آتاه الله من علم وحلم وصبر ، وعاش فى مكة يدعو إلى التوحيد ، وفى المدينة يعلم الناس حقائق الدين وأصوله ، وكان يفد عليه الوافدون يسألون ويستفسرون ويناقشون ، وهو صلى الله عليه وسلم يشرح ويوضح . ويبين ويعلم ، والناس تسمع له وهم بين مصدق ومكذب ، وبين مؤمن يزداد إيماناً ، أو معاند يزداد كفرا ، والنبى صامد لا يكل ولا يمل ودائب على الدعوة سرا وجهارا ، ليلا ونهارا ، حتى أذن الله أن تعلو كلمة الحق . ويدخل الناس فى دين الله أفواجا .

● ومن أوليات المسائل التى كان النبى يعلمها للمسلمين : أن الإسلام بنى على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، وكان النبى يشرح كل ركن من هذه الأركان ويبين أحكامه ونظامه ، وأول شىء كان يدور عليه الكلام ، لإدخاله فى الأفهام ، هو كلمة التوحيد ، أى الشهادة بأن « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » لأنها هى الدعامة الأولى فى بناء صرح الإسلام قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، صدقاً من قلبه ، إلا حرمه الله على النار » .

● وإذا كان الإسلام كما ورد فى الحديث يبنى على خمسة أركان ، فإن القاعدة الأولى التى يرتكز عليها هذا البنيان الدائم هى كلمة التوحيد ،

وفوق هذه القاعدة الثابتة المتينة الأساس ، يمكننا أن نرفع الصرح عالياً بالصلاة والزكاة والصوم والحج ، والأعمال الصالحة ، لأن المسلم الذى ينطق بهذه الشهادة المزدوجة إيماناً واعتقاداً بوحدانية الله وألوهيته وبصدق رسالة رسوله محمد ، يدخل بهذه الشهادة فى زمرة المسلمين الذين ينعمون بهذا الدين القيم ، الذى جاءهم من عند الله ، فى أعظم رسالة سماوية ، يتحدث عنها القرآن الكريم بقوله : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » (الأعراف ١٥٧) .

● والمسلمون يعلمون علم اليقين ، ويؤمنون حق الإيمان ، أن الإسلام هو آخر رسالة سماوية نزلت على محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جاءنا بها خاتم الأنبياء والمرسلين مؤيدة بالمعجزة الخالدة وهى القرآن الحكيم ، وقد مضت على بعثته عليه السلام قرابة أربعة عشر قرناً ، والناس تقلب فى صحائف هذه الرسالة ما شاءت أن تقلب ، وتنقب فى باطنها ما قدرت أن تنقب ، بحثاً وراء حقائقها للتمسك بها ، أو رغبة من أعدائها فى العثور على أى مطعن من تناقض أو شك أو خطأ ، ولكنهم لا يجدون فى هذه الرسالة المحمدية كلما زادوها بحثاً وتنقيباً ، إلا أن كل ما جاءت به من تشريع هو المثل الأعلى لما يصلح لحياة طيبة مباركة فى ظل الهدى والسلام ، وأن كل ما أخبرت عنه من الأنباء هو الصدق المحض الذى لا يأتيه الباطل ، وأن ما أمرت به هو الخير المطلق ، وأن كل ما نهت عنه هو الشر الصراح . قال تعالى :

« ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم ٣٠) .

محاولات فاشلة من صنع البشر

• لقد ظهر فى خلال القرون التى مضت بعد ظهور الرسالة المحمدية كثير من المحاولات . لوضع نظم وقوانين ومبـــادىء تشريعية كما أنه فى عصورنا الحديثة كثر البحث عن أفضل وسائل الحكم وأقوم مناهج السياسة للأمم ، وقد جربت نظم عديدة استهوى الناس بريقها الخاطف عند قيامها ولكنها سرعان ما انطفأت وتلاشت ، لأنها من تدبير عقول بشرية محدودة الإدراك لا تقدر على فهم أمور العالم ، ولأنها تعجز عن إدراك سنن هذا الكون التى لا يعلمها إلا خالقها ومدبر الأمر فيها ، فهو العليم الذى لا يطلع ويهيمن على أسرارها وخفاياها سواه جل جلاله. وحسبك هؤلاء الأدعياء للنبوة فى العصور الأولى كيف ظهر كذبهم وزيفهم ، وراحوا هم وغيرهم ضحية غرورهم، ثم حسبك ماجرى على مسرح الحياة أخيراً من نظام فاشى ونازى واستعمارى خلب الألباب بهوسه وجبروته، ولكن سرعان ماتهاوى وتداعى. وها هى ذى محاولات أخرى من النظم الشيوعية تسيطر بنظرياتها المادية المحددة ، ولا شك أن فشل مصيرها المحتوم سيحل قريباً ، وهى لا محالة ستتلاشى مادامت مبادئها مخالفة لمبادىء الإسلام ، تلك المبادىء العادلة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان .

• ما أكثر تقلب الإنسان كل حين بين آراء جديدة ، يريد بها أن يضع شرعا غير شرع الله ، وما أكثر انسياقه وراء الأحلام فى تصور المدينة الفاضلة ، والبلاد المتقدمة والدول الرشيدة ، والعالم الحر ، وكل ذلك لم يتحقق منه شيء إلى الآن ، وهانحن نرى أكبر المنظمات الدولية وهى هيئة الأمم المتحدة تقف مكتوفة الأيدى أمام حل المشكلات التى لا خفاء لوجه الحق فيها ، لأن الأيدى المغرضة تلعب بها رغم ما فى طيات هذه الكلمات الطنانة والرنانة من العدالة وحقوق الإنسان ، وحرية الرأى والعقيدة ،

وتحرر الناس من الخوف والجوع والظلم ، فأين هذا الكلام من واقع الحال الذى نراه على عكس ذلك ؟ فهل لنا أن نذكر قوله تعالى فى كتابه العزيز : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . (المائدة ٤٥) ، فهل للعالم أن يتنبه إلى ما فى القرآن ، ويعمل بشرع الله الحكيم ، ويوفر على نفسه مشقة البحث عن نظم مبتدعة لا تحمل معها إلا الفشل المحتوم .

البشارة بالنبى صلوات الله وسلامه عليه

● لقد بشرت الكتب السماوية وهى التوراة والإنجيل برسول يأتى بعد رسول الله عيسى ابن مريم ، واسمه محمد واسمه أحمد ، ودلت على صفاته ذاتاً وخلقاً بما لا يدع مجالا للشك فى حقيقة أمره متى جاء ، وكانت هناك قبل بعثة الرسول جماعة مؤمنة ، تشعر فى أعماق قلوبها بأن الأوان قد آن لظهور الرسول ، وقد تحدث بذلك معاصرون من الرهبان وغيرهم ، وقصة بحيرى الراهب الذى شاهد النبى غلاماً يافعاً مع عمه أبى طالب فى بصرى ، وتوسم فيه أنه هو النبى المرتقب معروفة فى كتب السيرة ، وقد تحدث بحيرى مع أبى طالب ، وأوصاه أن يرعى ابن أخيه هذا ، ويحفظه من كيد الكائدين لأن له شأناً عظيما فى العالم ، ليس بعده ولا قبله شأن .

● ولما بعث الله محمداً رسولا على رأس الأربعين من عمره صلوات الله وسلامه عليه ، عز على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ألا يكون النبى المنتظر منهم ، وأن يكون من العرب ، وكبر على المشركين والمنافقين من أهل مكة أن يكون هذا النبى يتيماً وفقيراً . حتى أنهم قالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف ٣١) وقد ظل اليهود والنصارى يكذبون الرسول ، وينتظرون النبى الذى بشرتهم به كتبهم . ولكن الأيام تمضى وهى تكذبهم بأنه لا أمل فى انتظارهم لغيره . وأن أوان البعثة قد فات . وقد جاءهم الرسول المبشر به مؤيدا لما معهم من شرع

وعلم . أما أهل مكة ومن حولها فقد آمنوا بعد حرب وقتال . وأيقنوا فى نهاية الأمر ، أن محمدا هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنه مرسل من عنده تعالى بأكمل دعوة إلى الحق والهدى وإلى طريق مستقيم .

● إن أساس الدعوة الإسلامية وشعارها هو كلمة التوحيد ، فمن قالها بإخلاص عصم نفسه من الشرك ، لأنه بدون النطق بالشهادة لا يكون المسلم مسلماً ، وقد يقول قائل : هل يكفى أن يقول الإنسان لا إله إلا الله باللسان دون إقرار القلب ؟ والذى عليه الرأى فى هذا الأمر هو أن الإسلام لا يطالب بأكثر من النطق بالشهادة ، فإذا قالها من غير خوف ولا إكراه علانية وطواعية فليس لنا أن ندخل فى قلبه لنشقه ونفتشه . فذلك مالاسبيل لنا إليه ، وإنما مرد هذا إلى علام الغيوب الذى يطلع على السر وأخفى . ومن لطف الله وكرمه أنه يمهل الناس ، ويعطيهم الفرص المتكررة لإصلاح ذات بينهم وذات أنفسهم ، لأن الله مقلب القلوب ، ورب ناطق بالشهادة بلسانه فقط ، يصبح مؤمنا أشد الإيمان بقلبه فيما بعد .

الشرك والمشركون

● عاش سكان الكوكب الأرضى دهورا طويلة قبل بعثة الرسل ، وهم فى جهل وحيرة ، لا يعرفون لهم رباً واحدا يعبدونه ، وكانوا فى فجر حياتهم يهيمون على وجوههم فى مناكب الأرض لا يهدءون ولا يستقرون ، ولا يعلمون من أمر أنفسهم شيئاً إلا السعى وراء القوت بالتقاط الثمار أو الصيد ، وكانت مظاهر الطبيعة حولهم فى السماء والأرض تبهرهم وتدهشهم وتملؤهم رهبة ، فتارة يجدونها عاتية جبارة تخيفهم بجبروتها ، وتارة يجدونها كريمة رحيمة تغدق عليهم من برها وخيرها ، وأينما نظروا وجدوا فوق رءوسهم الشمس والقمر والكواكب والنجوم تظهر وتختفى ، وتمدهم بالحرارة والضوء ، وتحت أرجلهم الأرض ببراكينها الثائرة ورياحها العاصفة

ومياهها الجارية الجارفة ، ووحوشها الضارية الكاسرة، وحيواناتها الأليفة النافعة ، وطيورها الجارحة وغير الجارحة .

● وظل الإنسان الأول من سكان الكهوف وغيرهم ممن عاشوا مثل عيشتهم ، لا يدرون شيئاً عن حقائق هذه الظاهرات الكونية المحيطة بهم ، وكل علمهم أن الأرض وما عليها وما فوقها هي كل شيء ، وقد تملكتهم الرهبة من ظاهراتها وسلطانها القاهر ،فرأوا أن يخضعوا لها، ويسترضوها لتكف عنهم شرها ، وتمنحهم خيرها ، ومن هنا بدأ تقديسهم لها ثم عبادتهم إياها ، وقد أدرك القدماء بداهة أن الشمس أم الأجرام السماوية وأشدها تأثيراً فيهم ، فقدسوها وعبدوها أكثر من غيرها ولذلك كانت عبادة الشمس قديما أكثر العبادات انتشاراً ، ثم جاءت بعد ذلك عبادة الحيوانات والحشرات ، وصار لكل شعب من الشعوب معبودات مختلفة بحسب ما يجدون من أثر مباشر للأجرام السماوية أو الحيوانات أو النار أو الأنهار أو الأشجار في حياتهم ، وهكذا نجد كل جماعة تعبد إلها تؤمن به ، وتتقرب إليه وتتبرك به وتطلب منه العون .

● ومع مرور الزمن وتطاول العهد على الإنسان بالحياة على الأرض ، توالت عليه التجارب ، وتكررت الأحداث فاكتسب دراية وخبرة ، وتطور فى تفكيره وتصوره بما أدى إلى اتساع أفق معرفته ، ولم يعد شعوره بالخوف من مظاهر الطبيعة هو رائده فى تكييف مشاعره ، بل إنه ارتقى إلى درجة أخرى من مدارج التطور ، واعتقد أن القوة الهائلة المحركة لهذه الظاهرات الكونية هى روح علوية ، وأن هذه الروح تحل فى الكائنات فتعطيها هذه القوة الهائلة المنبعثة فيها ، وأخذت أفكار الناس فى كل بيئة وكل جماعة تتصور الإله على أنه تلك الروح ، ولكن بصورة نابعة من محيطها ، فزنوج إفريقية تتصور إلهها أفطس الأنف ، غليظ الشفتين ، ويتصور قدماء الإغريق أنه أشقر الوجه ، أزرق العينين ، يتكلم اللغة اليونانية ، وهكذا

تعددت الآلهة صوراً وأشكالا وألواناً وأجناساً حتى صار لكل شيء في حياة الناس إله ، فالجمال له إله والحكمة لها إله والخير له إله والخمر واللهو لهما إله وهذا كله هو الشرك بالله ، والضلال المبين .

● ثم بعث الله رسله ، وحاول كل رسول بوسائله الخاصة التي أمده الله بها أن يهدم صرح الشرك ، ويقتلع جذوره من الأرض بالحسنى والتفاهم والإقناع بادىء ذي بدء ، ولكن ذلك كله لم يكن يجدي نفعاً مع قلوب تحجرت على ما وجدوا عليه آباءهم ، ونفوس لا تزداد مع النصح إلا عناداً وضلالا ، ولذلك أمرهم الله أن يعاملوا أقوامهم بما يستحقون ، ويقاتلوهم كما قاتلوهم ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك ، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله ، وكانت النتيجة المحتومة هو انكسار المشركين واندحارهم ، وانتصار كلمة الله العليا ، ثم دخول هؤلاء المشركين في دين الله ، بعد ما تبين لهم الهدى ، وعلموا أن ما جاء من عند الله هو الحق لا ريب فيه ، وأن ما كانوا عليه هو الضلال والخسران المبين .

نبذة عن تاريخ الأصنام والأوثان

● للشرك قصة طويلة نورد طرفا منها ، لبيان بعض جوانبه ، وكيفية ظهوره ووجوده في هذه الدنيا ، وتشمل قصة الشرك تاريخ بعض الأصنام التي جاء في القرآن الكريم ذكر بعض أسمائها ، ففي سورة نوح يقول الله تعالى :

« قال نوح رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكراً كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » .

وفى سورة النجم قال الله تعالى :

« أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ثم قال : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

● وقد روى المحدثون وعلماء الأثر أن هـذه الأسماء : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر كانت أسماء لرجال صالحين من قوم نوح ، شهد لهم معاصروهم بالتفوق فى طاعة الله وعبادته ، فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن ينصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون إليها أنصـابا وصورا ، وسموها بأسمائهم ، لكى تذكرهم كلما رأوها بأعمالهم الصالحة وسيرتهم الطيبة ، فيكون لهم بها قدوة حسنة ، ولـكن لما انقرض هذا الجيل الذى أقام هذه الأنصاب ، وجاءت أجيـال أخرى ، غابت عنهم فكرة هذه الأنصاب ، فوسوس لهم الشيطان بعبادتها فعبـدوها ، وتأصلت عقيدتها فى نفوسهم ، حتى أنهم كانوا يتواصون بعبادتهـا ، مهما نهاهم نوح عليه السلام بتركها ، والانصراف عنها ، وكانت هذه أول أصنام تعبد على وجه الأرض .

● وفى سورة النجم جاء ذكر اللات والعـزى ومناة ، وقصتها تشبه القصة السابقـة ، فاللات وهو اسم صنم لثقيف بالطائف كان على ما يقال اسم رجل صالح اعتاد أن يلت السويق على حجر ، ليطعم الجائع من الحاج ، فلما مات قدس أهل الطائف ذلك الحجر فيما بعـد ، وعبدوه إجلالا له وسموه باسمه .

وفى رواية أخرى أنه لما مات اللات غلوا فيه لصلاحه ، فرفعوا قبره وعظموه ، ثم عكفوا عليه حتى عبدوه ، وصار قبره وثنا يعبد من دون الله ، ولذا قال رسول الله ﷺ : « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، لقد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

• أما العزى فهي شجرة ببطن نخلة كانت غطفان تعبدها ، ومناة كانت صخرة لهذيل وخزاعة ، فقدسها الناس وعبدوها أيضاً ، وقد ندد القرآن الكريم في كثير من آياته بعقول المشركين ، وفي قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه ما يدل على ما كان يفحمهم به من البراهين على أن الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، وأنه لا شيء من أمرها إلا الظن بأنها تنفع ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، ولذلك كان العلاج الوحيد لمرض الشرك هو إدخال عقيدة التوحيد في القلوب ، وتأكيدها قولا حقا واعتقادا راسخا، ومطالبة الناس بها لتكون هي شعارهم الحق فلا يلبسوا أبدا.

• وعن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهـد بكفر ، وللمشركين سدرة (شجرة) يعكفون عندها وينوطون (يعلقون) بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم ، والذي نفسي بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم » .

ويذكرنا هذا الحديث بما عمله عمر بن الخطاب من قطع الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان ، لما وجد الناس يتهافتون إلى ظلالها ويتبركون بها ، فقطعها لئلا يفتتن بها الناس ، وتكون بابا للشرك .

• والحق أنه لم تصب الأمم السابقة بداء وبيل أشد ضرراً وخطرا من داء الشرك الذي هو أكبر الكبائر ، ورأس الخطايا ، لأنه كان سبب غضب الله عليهم واستحقاقهم لأشد أنواع العذاب ، لما كذبوا رسلهم وأنبياءهم . وكفروا بما بلغوهم به من رسالة التوحيد ، وخالفوا ما حذروهم من مصائب الشرك ثم عصوا وعاندوا وظلوا على ما هم عليه من عبادة غير الله من إنسان أو حيوان أو جماد أو أجرام سماوية ، وغير

ذلك من المعبودات التي لا تنفع ولا تضر . ولا تغني عنهم من الله الحق شيئا ، ومن العجيب أن الأدلة التي سيقت لهؤلاء كانت مقنعة كل الإقناع ، وفيها كل الدلائل على فساد اعتقادهم وقصر عقولهم ، ولكنهم كانوا يكذبون ، ويعاندون . وكانوا يلوذون بصرح الشرك وهو منهار الأركان ، واهي البنيان ، لا شيء سوى أنه دين الآباء والأجداد ، ولو كان أسلافهم لا يعقلون شيئاً .

لا يغفر الله الشرك

● وقد نص القرآن الكريم في كثير من الآيات على أن الشرك ذنب لا يغفر وإثم لا تسامح فيه ولا هوادة في عقوبته ، وذلك على خلاف غيره من الآثام التي يصفح الله عنها ، وإليك بعض النصوص القرآنية الواردة في شأن الشرك والمشركين :

قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . (النساء ٤٨)

وقال تعالى : « وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك » . (الإسراء ١١١)

وقال تعالى : « هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده » (يونس ٣٤)

وقال تعالى : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به » (الرعد ٣٦)

وقال تعالى : « لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً » (الكهف ٣٨)

وقال تعالى : « ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » (النساء ٤٨)

وقال تعالى : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الريح في مكان سحيق » . (الحج ٣١)

— وقد قال الأستاذ الشيخ محمد عبده في كتابه رسالة التوحيد عن الشرك ما يأتي :

الإشراك بالله هو اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله ، مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه ، كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيش ، وفى الاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية ، بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا .

— هذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية :

— الأول : أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ، ما هو وسيلة لسعادته .

— الثانى : أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات ، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده ، وأن لا شىء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه . جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه ، وتكليفه أن يرفع همته إلى استمرار العون منه وحده ، بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر وإجادة العمل ، ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك .

والشرك ثلاثة أنواع وقد نهى الشرع عنها نهياً باتاً ، وحذر منها تحذيراً حاسماً :

النوع الأول : الشرك الأكبر هو الاعتقاد بوجود شريك مع الله تعالى فى سلطانه وملكوته ، ويقول الله فى حق هؤلاء المشركين من هذا النوع : (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) كما يقول فى عاقبة أمرهم

(ومن يشرك بالله فقد حبط عمله) وقوله تعالى : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) .

النوع الثانى : الشرك الأصغر وهو مراعاة غير الله فى بعض الأمور والاعتقادات بأن لكائن من كان سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين ، وفى هذا النوع يقول الله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وقد كان هذا الحب لهؤلاء الأنداد من المزالق التى انحدرت بهم إلى الشرك كما سيأتى بيانه بعد .

النوع الثالث : الشرك الخفى وهو نوع من الشرك الأصغر ، ويتأتى من الرياء وضعف الإيمان ، ومن ذلك قول الرسول ﷺ : (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . فسئل عنه ؟ فقال : الرياء) . وقوله ﷺ (من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار) وقوله ﷺ (الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء على صفاة سوداء فى ظلمة الليل) .

هذه هى أنواع الشرك الظاهر والخفى ، ندعو الله تعالى السلامة منها ، ونحن بحمد الله نعيش فى عهود التوحيد ، وقد تقلصت عبادة الأوثان ولم يبق لها أثر إلا فى القليل من الجهات المنعزلة عن العالم ، وليس ثم مكان على ظهر الأرض فيما نعتقد لم يسمع الناس فيه بما جاء به الرسل الكرام ، لأن العالم أصبح كالشبكة فى اتصاله وترابطه ، بمختلف وسائل النقل والمواصلات والاتصالات برا وبحرا وجوا .

وقد كان مشركو العرب يقرون بأن الله وحده هو خالق كل شىء ، وكانوا مع هذا مشركين .

قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وتسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون الله ، ومع ذلك يعبدون غيره .

فليس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شيء وخالقه يكون عابداً له دون سواه راجيا له ، خائفا منه دون ما سواه ، يوالى فيه ، ويعادى فيه ، ويطيع رسوله ، ويأمر بما أمر به ، وينهى عما نهى عنه ، فعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء ، ولكنهم أثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به ، وجعلوا لله أندادا ، قال تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) .

عقيدة الإسلام وأساسها

● إن الكلمة الجامعة للعقيدة الإسلامية هى :

« شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » .

وهى التى نرددها فى كل صلاة ، وهى التى كان يدعو بها النبى ﷺ بدعايته ، وهى التى كان يدعو إليها كل داع إلى الإسلام ، وهى فيصل التفرقة بين الكفر والإيمان ، وهى الأساس الراسخ الذى بنى عليه الإسلام .

● وتتضمن كلمة الشهادة أو الشهادتين بالإيمان بأن المعبود بحق فى دين الإسلام هو إله واحد ، لا يشاركه فى ذلك أحد .

والإيمان بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا ، وأن الإيمان بالرسالة المحمدية يقتضى الإذعان للمعجزة الخالدة التى أثبت بها رسالته ، وهى القرآن الكريم الذى هو من عند الله .

● والشهادة بالرسالة المحمدية تستوجب الإيمان بكل ما جاء على لسان الرسول ﷺ ، فيجب الإيمان بفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج وعدد الصلوات ، ومعانى الحج ومناسكه ، وكذلك تحريم الخمر والميسر والزنا ، والإقرار بأن تحذف عقوبتها هى ما جاءت فى القرآن الكريم .

• ويعد كافرا كل من أنكر الأحكام الثابتة فى القرآن ، وكذلك يعد كافرا كل من ينكر أى أمر علم من الحقائق الدينية بالضرورة وتواتر العلم به جيلا بعد جيل من عصر النبى صلوات الله وسلامه عليه ، واتفق عليه إجماع المسلمين إلى ما شاء الله .

وإن من أهم واجبات كل مسلم لكى يكون صحيح العقيدة أن يؤمن بالله(١) وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وهذه هى أركان الإيمان الستة .

• والإيمان بالله تعالى يقتضى الإقرار بوجوده وتفرده بالوحدانية وقيامه على جميع مخلوقاته بالهيمنة والتدبير والإبداع والتنظيم والرعاية والأحكام ، وهذه حقيقة أزلية تؤمن بها الفطر السليمة ، وتجد فى أطواء هذا الكتاب ما يؤكد وجود الله سبحانه وتعالى .

والإيمان بالملائكة من أركان العقيدة الإسلامية ، ونحن لا نستطيع التعرف على حقيقة الملائكة أو الاتصال بهم عن طريق الحواس ، ويكفى فى وصفهم ما جاء فى النصوص مثل قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إنهم مخلوقون من نور » فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور . وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » وأن الملائكة يكونون معنا ولا نراهم ، فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالوحى على رسول الله ولا يراه أحد من جلسائه .

وأنهم قادرون على التشكل فى صورة إنسان معلوم أو مجهول، وهناك أحاديث نبوية تثبت ذلك .

• ومن صفات الملائكة الواردة فى القرآن :

أنهم يطيعون الله ولا يعصونه ، وهم بذلك معصومون من المعاصى والذنوب .

---

(١) فى كتابى « الله والأشراق الروحية » ، بحث عن الذات العلية فليقرأه من يشاء .

وأنهم يسبحون ربهم دائماً من غير انقطاع ولا يسأمون .

وأنهم مقربون إلى الله تعالى ومكرمون ، ولهم درجات عنده وأنهم على جانب كبير من القدرات الخارقة التى لا يتملكها سواهم من الخلق إلى غير ذلك مما جاء به القرآن الكريم .

● ومن أركان الإيمان الاعتقاد برسالة جميع الرسل ، وسوف يرد فى هذا الكتاب بحث مفصل عن الرسل الكرام .

● ومن أركان الإيمان الاعتقاد بأن الله سبحانه أنزل كتبا سماوية على رسله ، وهذه الكتب يقصد بها ما تشتمل عليه من أنواع الوحى اللفظى والكتابى التى ينزلها الله على رسول من رسله ليبلغها إلى الناس ولتكون المرجع للتعرف على أحكام الشريعة واستبانة الواجبات والمحرمات والفضائل والكمالات وكتاب الله فى أى دين من الأديان هو الحاكم بين الناس فيما يختلفون فيه .

● والكتب السماوية هى :

القرآن : الذى أنزل منجما على سيدنا محمد ﷺ ، وهو آخر الكتب السماوية ، وقد تكفل الله سبحانه بحفظه من التحريف والتبديل .

صحف إبراهيم عليه السلام : وهى أول ما أنزل الله من كتب مقدسة كما تواترت بذلك الأخبار الصحيحة .

التوراة : وهو الكتاب الذى أنزله الله تبارك وتعالى على موسى عليه السلام ، ويشمل الصحف التى أنزلت عليه ، وهو ثانى ما أنزل الله من كتب مقدسة .

الزبور : وهو الكتاب الذى أنزل على داود عليه السلام ، وهو ثالث ما أنزل الله من كتب مقدسة .

الإنجيل : وهو الكتاب الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام وهو رابع ما أنزل من كتب مقدسة .

• وقد جاء فى بعض الآثار عن عدد الصحف السماوية ما روى عن أبى ذر الغفارى ، قال : قلت: يارسول الله كم كتابا أنزل الله تعالى ؟ قال : مائة صحيفة وأربعة كتب ، أنزل الله تعالى على آدم عشر صحائف ، وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف. وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

• والتوراة التى ذكرها القرآن هى الأصول التى نزلت على موسى ، أما التوراة الحالية الموجودة عند أهل الكتاب فليس لها سند متصل يصحح نسبتها إلى موسى لكثرة ما دخل فيها من التحريف والتبديل ، ولا يصح الوثوق بها لأن الأهواء البشرية لعبت وعبثت بنصوصها لمصالح رجال الدين اليهود طلبا للجاه والمال .

• والإنجيل وهو الكتاب الربانى الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام بأصوله الصحيحة ، وخير ما يقال فيها أنها مذكرات تاريخية حول سيرة المسيح منذ ولادته حتى موته وبعض وصاياه ومواعظه كتبها من بعده بعض الحواريين ممن عاصروا المسيح وعاشروه ، وأشهر من كتبوا الأناجيل المعتمدة أربعة وهم : متى ومرقص ولوقا ويوحنا .

• وهنالك إنجيل خامس لا تعترف به الكنيسة وهو إنجيل برنابا ، وهو أحد الرسل السبعين الذين قاموا بالدعاية المسيحية .

• القرآن الكريم : وهو آخر الكتب السماوية أنزله الله تعالى على خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ . وقد ثبت ذلك بكل من الدليلين العقلى والنقلى ، أما الدليل العقلى فهو ما تضمنه هذا الكتاب من وجوه الإعجاز فقد تحدى قدرات البشر جميعاً أن يأتوا بمثله فعجزوا عن محاكاته لفظا أو أسلوبا أو معنى ، وما يزال التحدى قائما للمكابرين والمعاندين الذين فحصوا القرآن وغربلوه ونخلوه ليجدوا فيه مغمزاً أو مطعنا فلم يظفروا بشىء .

وأما عن الدليل النقلي فقد ثبت بالتواتر الذي لا يرقى إليه أي شك أنه كلام الله الذي نزل على رسوله وسجله كتاب الوحي وقت نزوله وحفظه الصحابة عن ظهر قلب كما أنزل ، ثم جمع ونسخ في المصاحف التي أصبحت تطبع برسمه من غير تعديل أو تبديل أو تحريف ، وهكذا تأكد قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

● وقد اختلف الباحثون في حقيقة الإعجاز في القرآن على ثلاثة [1] اتجاهات رئيسية :

فهناك من يرى بأن المعجز في القرآن هو في صياغة ألفاظه الخارقة للعادة وبلاغته الواضحة التي أعجزت العرب عن أن يأتوا بمثلها .

وهناك من يراه فيما ورد في القرآن من الأخبار عن الغيوب وعن حوادث الأمم السابقة وتاريخها وعقائدها ، فقد أشار القرآن إلى حوادث ستقع في المستقبل ، ثم وقعت كما أخبر ، ولما كان النبي صلوات الله وسلامه عليه أمياً لم يطلع على كتب الأقدمين التي تشير بدورها بدقة إلى تلك الأمور ، فلابد أنه تعالى هو الذي أوحى إلى نبيه بهذه الأخبار .

● وأخيراً فإن كثيراً من الباحثين يرون بأن الإعجاز هو فيما ورد في القرآن من أنظمة إنسانية بالغة الرقي لم تر البشرية مثلها قديماً وحديثاً في ضمان مصلحة بني الإنسان العامة وتأمين حياته الخيرة ، والحق أن القرآن يشمل هذه الاتجاهات جميعاً .

● ومن أركان العقيدة الإسلامية الإيمان باليوم الآخر كما أخبرنا عنه رب العزة والجلال في كتابه المبين ، فقد ذكر لنا ما أعده في هذا اليوم من نعيم للمؤمنين المتقين ، وما أعده فيه من عذاب أليم للكافرين والمجرمين .

● وقد قرر الله حقيقة الحياة الثانية بعد الموت وأنها حياة الحساب

---

(١) من كتاب معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبد الكريم عثمان .

والجزاء ، وإقامة العدل الربانى فى الخلائق « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وأن هـــذه الحياة الثانية خالدة أبداً بعد حياتنا الدنيا الفانيـة القصيرة المدى ، والتى هى فى واقعها حياة الامتحان والابتلاء المحاطة بكل ظروف الامتحان اللازمة على أتم وجه وأكمله ، وقد ذكر اليوم الآخر فى القرآن بعدة مسميات منها : يوم الفصل ، ويوم الحشر ، ويوم الحساب ، ويوم الوعيد ، ويوم الحسرة ، ويوم الخلود .

• ومن أركان الإيمان المهمة الإيمان بالقدر خيره وشره ، ولكى يكمل إيمان المسلم بالقدر ينبغى التأكد من الحقائق الآتية :

١ — أنه ثبت فى نصوص القرآن والسنة إحاطة علم الله بجميع الموجودات السابقة والحاضرة والمستقبلة ، وعلمه الواسع بالكائنات دقيقها وجليلها ، وأنه سبحانه أثبت علمه هذا فى اللوح المحفوظ .

٢ — كما أنه ورد فى النصوص القرآنية أن مشيئة الله عامة وإرادته القدرية شاملة لايخرج عنها حادث صغير ولا كبير ، وأنه ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، والنصوص على شمول قدرة الله تعالى ومشيئته لكل حادث لا تحصى .

• وتثبت النصوص أيضا أن العباد مختارون غير مجبورين على أفعالهم ، وأن أعمالهم خيرها وشرها صادرة وواقعة بمشيئتهم وقدراتهم التى خلقها الله لهم ، وخالق السبب خالق للمسبب .

والمؤمن حقا بالقدر هو الذى يعلم أن الله بكل شىء عليم ، وعلمه بالحوادث قبل وقوعها أودعها فى اللوح المحفوظ ، والحوادث كلها تجرى على ما علمه الله تعالى وكتبه ، وتقع بأسباب ربطها العزيز الحكيم بمسبباتها من قضاء الله وقدره ، ولهذا قال النبى ﷺ لأصحابه :

« ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة أو النار ، فقالوا

يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة » .

● ومن فوائد الإيمان بالقضاء والقدر أنه يوجب للعبد سكون القلب وطمأنينته وشجاعته وقوته لعلمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما أنه يسلي العبد عن المصائب ، ويوجب له الصبر والتسليم والقناعة بما رزقه الله ، ويهديه إلى كثير من فضائل التواضع والشكر وعدم الغرور بأى عمل صالح يقوم به ، لأن الله سبحانه هو الذى تفضل عليه بالتوفيق والإعانة وصرف الموانع والعوائق عنه .

● وإنه من الخطأ الفادح أن يعتبر الإنسان أن عقيدة القضاء والقدر تشل أعمال المسلمين ، أو تحد من نشاطهم بل إنها فى الحقيقة متفقة مع روح الجهاد والاجتهاد فى سبيل التقدم ، وأكبر شاهد على ذلك أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان أنشط الناس ، وأكثرهم مثابرة فى العمل والجهاد ، مع صدق التوكل والاعتماد على الله سبحانه وتعالى ، وليس من معانى عقيدة المسلم بالقضاء والقدر الخضوع للأمور التى يبدو أن العمل والإقدام يغيران مجراها ، فهى إذن عقيدة بعيدة كل البعد عن الضعف والخور أو ترك العمل أو التهاون فيه ، بل إنها مصدر قوة نفسية تعين المسلم على احتمال المحن والشدائد بروح الصبر والمصابرة والصمود وتجديد العزم على المحاولات مهما تعددت ، والله سبحانه يقول فى محكم كتابه : « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم » .

زائرو الأضرحة

● بعد هذا الذى ذكرناه من أمر الشرك، وكيفية نشأته وانتشاره بين الناس، نعود فنقول تذكيرا وتنبيها للغافلين من عباد الله البسطاء، أن كثيراً من السذج يمجدون أولياء الله ويعظمونهم بدرجة تكاد تتجاوز حد المعقول، ويضفون عليهم من مظاهر القداسة، ما يوشك أن يخرجهم عن دائرة البشر، ونلحظ من تعلقهم بهم ومحبتهم المفرطة لهم ما يخاف منه الانزلاق إلى مهاوى الشرك الأصغر الذى سبقت الإشارة إليه، ونحن لا ننكر المحبة كل المحبة فى الله ولله تعالى، بل ندعو إلى التحاب بين الناس فى الله، وإلى التعاون على البر والتقوى، ولكن الذى نخافه ونحذره أن يكون فى فكرة الناس أوهام وظنون أن من يزورونهم من أولياء الله لهم أى شأن فى ملك الله بالتصريف والتدبير والتدخل فيما قدره الله وقضاه لهم إذ أن بين العوام الزائرين للأضرحة من يتضرعون إلى الأولياء ويستنجدون بهم بصورة توحى أن لهم من الأمر شيئاً، وقد يكون ذلك كما يقال عن حسن قصد وسلامه نية، ونحن نسألهم قائلين: ولم هذا الاتجاه إلى الأولياء؟ والله سبحانه وتعالى يقول قولا صريحاً: «ادعونى أستجب لكم»، بل لعلك لو سألت بعض إخواننا أهـــل الريف الذين يتزاحمون على أبواب الأضرحة عن حقيقة مفاهيمهم لما يقولون وما يعملون، لهالك أمرهم ولأيقنت أن إشفاقنا على عقيدتهم وحبنا لإرشادهم إلى الحق، له أصل من الواقع الملموس من كلامهم الجوهرى ودعائهم.

● معذرة إذا أنا أطلت الحديث فى الأمر الدقيق الذى لا أقصد من إيراده إلا الخير والسلامة والنجاة من أى سوء، لأنه موضوع قد يتجادل فيه بعض النـاس أشـد الجدل، إذا مالفتنا أنظارهم إلى مسألة الأضرحة، وما يجرى فيها من ضراعة وخشوع، وأحب أن أسأل إخواننا المسلمين

الذين يتمسحون بحديدها وخشبها وحلقاتها فى أمل ورجاء ، ماذا يريدون بهذا العمل ؟ إن ظاهره كما يبدو واضحا أنهم فى حاجة ماسة إلى تفريج هم ، أو إزاحة كرب ، أو تخفيف شدة من الشدائد ، أوشفاء من مرض ، وهم إذ يفعلون ذلك يعتقدون أنهم يتشفعون إلى الله سبحانه وتعالى بهؤلاء الأولياء الأحباب لاعتقاد خفى يؤمنون به فى نفوسهم ، وهو وساطتهم المقبولة وأسرارهم الباتعة عند الله ، أو مددهم العريض ، أو غير ذلك مما لم يحدثنا عنه تاريخ الإسلام فى عهوده الزاهرة إلا فى أمر التوسل إلى الله للاستسقاء وأن ذلك فى حياته ﷺ ولم يرد عن السلف الصالح أنهم بنوا أضرحة وزخرفوها ، وعكفوا على زيارتها والجلوس عندها ، اللهم إلا فى العصور المتأخرة حيث دخل فى الإسلام ما ليس منه .

• والذى أفهمه من زيارة أضرحة أهل البيت أو أولياء الله بما يتفق وروح الدين الحنيف أنها تكون حبا فى ذاتهم التى عاشت مخلصة ومحبة لله تعالى ، وذكرى لحياتهم الحافلة بالأعمال المجيدة فى خدمة الدين وخدمة الوطن ومنفعة العباد ، بعلم نافع أو سعى مشكور فى إصلاح المجتمع ، وإننا إذ نزورهم ونقرأ الفاتحة لهم إنما نستحضر أرواحهم فى خيالنا ، ونكون وقت استحضارنا لها فى معية روحية نستمع فيها بطيب ذكراهم ، ويكون ذلك حافزاً لنا على أن نتشبه بهم ، ونسير على هديهم ، ونعمل كما عملوا ، فالله تعالى يقول فى كتابه العزيز « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وأن أولياء الله لا شك مكرمون .

والذى يعلمه الناس أن بناء الأضرحة ورفع القباب على مدافن الصالحين تقليد قديم كان شائعاً فى الأمم السابقة ، وفى القرآن الكريم إشارة إلى ذلك التقليد فى سورة الكهف فى قوله تعالى : « فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً » . ولكن بعض الناس بعد أن أقاموا هذه الأبنية فى تمجيد الصلاح وذكرى الصالحين انقلب بهم

الحال فعبدوها ، وجعلوها كالأصنام تعبد ، لذلك أمر النبي ﷺ على بن أبي طالب أن يسوى بالأرض كل قبر ، وأن يهدم كل صنم ، لأنهما في الضلالة سواء .

• ونرجع مرة أخرى إلى موضوع الأضرحة والتوسل بأصحابها إلى الله فنقول مخلصين النصح أنه أولى بنا وأجدى ، أن نجعل التجاءنا إلى الله دون سواه ، فهو وحده المستعان ، ثم التوسل بالعمل الصالح فقد جاء في السنة هذا التوسل : اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا هو الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . فهذا توسل بالإيمان بذات الله تعالى ، وكذلك التوسل بالعمل الصالح الذي عمله الشخص ، كما جاء في حديث الثلاثة الذي أطبق عليهم مدخل الغار ولم يجدوا مخرجا ، فتوسل كل منهم إلى الله تعالى بما قدمه من عمل خالص لوجهه ، فانفرج الباب ، وخرجوا سالمين ، ومن التوسل ما جاء من أن الإنسان قد يدعو الله لأخيه بظهر الغيب متوسلا إليه تعالى أن يبلغه مأموله .

• وبودي أن أسأل بعض هؤلاء المترددين على الأضرحة والمتعلقين بزيارة الأولياء الصالحين بعض الأسئلة من غير إحراج ولا تجريح لمعتقداتهم :

هل الذي يسوقهم إلى الأضرحة الرغبة والأمل في تفريج الهموم والكروب ؟

هل هو طلب المدد من أصحابها ، والاستفادة من سرهم ؟

أم هو الحب الخالص لهؤلاء الأولياء ، والتبرك بذكراهم العطرة ؟

فإن كانت الزيارة بقصد تفريج الهموم وقضاء الحوائج وشفاء المرض اعتقادا بأن صاحب الضريح له دخل أو إرادة أو تصريف في ذلك ، فهنا يكمن الخطر الأكبر ، وهو من الشرك الأكبر ، الذي نحذر أيها الأخ المسلم من شره المستطير .

وإن كانت الزيارة خالصة لمحبة فى الله ، على أنها تقدير لولى صالح عاش بشرا مهدياً ، وقضى حياته عابدا طائعاً ، متقرباً إلى الله بصالح الأعمال ، وأنه نال رضاء ربه عنه بتقواه ومجاهدة نفسه وهواه ، ثم أنك وأنت فى ضريحه تذكره بمآثره وحسناته وبخيراته ومبراته فى حياته ، ليكون لك من هذه الذكرى حافز ينشطك فى عبادة الله ومرضاة رب العالمين ، فأنعم بها من زيارة مباركة ، تتجدد بها العزائم فى طاعة الله تعالى ، والصدق فى معاملته .

• وأما إن كانت للمدد والاستمداد فهذا ما نخافه ونحذره قطعاً ، لأن فى لفظ المدد معانى غامضة تشعر بأن للولى شيئاً من الحول والطول الروحى ، وأنه يستطيع أن يمد الناس به ، وهذا ما ينكره الدين الحنيف والشرع الشريف .

ويدخل فى ذلك القول السائر على ألسنة العوام : أن هذا الولى له سر باتع ، أو قولهم : من زار الأعتاب ما خاب ، فهذا وأمثاله من العبارات التى يتوارثها جيل بعد جيل ، لها دلالات ملتوية منحرفة يأباها الدين ، وكأنها تؤكد أن أولياء الله لهم أسرار خفية ، ينفحون بها زائريهم من حيث لا يشعرون ، وأنهم يقدرون وهم فى برازخهم على أعمال تنفع عباد الله ، وكم بين عباد الله من بسطاء سليمى النية يفهمون هذه العبارات فهما سلبيا ، وتذهب بهم الظنون فى شأنها مذاهب خطرة ، وإلى مزالق وعرة ، فقد يعتقد الواحد منهم أن الولى الذى تحيطه المبالغات أو الأساطير بهالات من التقديس والإجلال يستطيع أن يجلب الخير ، أو أن يدفع الشر ، والحقيقة أن هذه أوهام ملفقة من وضع بعض المرتزقة الذين يعيشون فى رحاب الأضرحة يرددونها ليوهموا الزائرين وهم فى ساعات عسرهم وضيقهم بأن زيارتهم للأضرحة فيها خير لهم ، بينما هى فى الواقع سبب مغانم ومكاسب مادية لمن يروجون لمنافعهم بكلمات المدد والسر وغير ذلك من عبارات .

التقديس للأولياء ، ولو كان لك أن تسأل الأولياء أنفسهم عن هذه المظاهر التى يحاطون بها ، والكلمات التى توجه إليهم ، لعلمت من لسان حالهم ما يؤكد لك أنهم ينفرون من ذلك نفورا ، ولو أنهم رجعوا إلى الحياة الدنيا ، لأمروا بهدم تلك القباب وإزالة هذه البدع والمظاهر ، بل واسمعت منهم تقريعا ولوما واستنكارا لكل تهريج يعمله الناس الآن من أجلهم فى مزارتهم وموالدهم .

الصلاة فى ضريح الولى[1]

• أنقل هنا بعض فقرات من كتاب « أولياء الله الصالحون » تأليف فضيلة الشيخ إبراهيم على أبو الخشب الأستاذ بكلية الشريعة عن الصلاة فى ضريح الولى :

الصلاة فى ضريح الولى نوع من التمسح به ، والترامى على أعتابه ، والمبالغة العظمى فى الزلفى منه ، والتقرب إليه ، هى وإن كانت مظهرا من مظاهر الحب والولاء ، والإخلاص والوفاء ، إلا أنها أشبه بمودة الجاهل التى تجنى على صاحبها أشد الجناية ، وتجرى عليه الوبال الكثير ، والعبادة حين تكون لغير الله سبحانه وتعالى تكون من الطيش والجهل ، والبلاهة والحمق ، والسفه والرعونة ، بحيث تجعل العابد لا يمتاز عن الحيوان الأعجم الذى يمشى وراء حيوانيته المظلمة ، التى ترى الناس من تصرفه وسلوكه ، وسياسته وأدبه ، ورأيه وعقله ، ما يحكم عليه بأنه جدير بقيام الحجر عليه ، والوقوف فى وجهه فى كل ما يصدر عنه من أعمال ، والحب حين يطغى على العقل ، ويطمس على البصيرة ، لا يكون من المودة والإخلاص ، ولا من العشق

---

(١) يدعونى إلى عرض هذا الموضوع كثرة ما يوجد من الأضرحة والمزارات بالمساجد المنسوبة إلى آل البيت والأولياء الصالحين بالمدن الإسلامية وتهافت الناس على الصلاة فيها ، والتبرك بها .

والغرام، ولا من الصبابة والهوى، ولكنه يكون من سوء التدبير. وكثير من الذين يترددون على مزارات الأولياء، لا يكتفون بالجلوس هنالك، والإقامة الطويلة فى رحابهم، والتزام الأدب عندهم، فى هذا الخشوع الذليل، والصمت الطويل، كأنما هم قد وقفوا فى المحراب، أو تصفحوا سورة من الكتاب ولكنهم يطيلون السجود والركوع، والقراءة والاستغفار والتهليل والتسبيح، وهو لون من ألوان البدع التى انتقلت إلينا من ضلالات الأحبار والرهبان من النصارى واليهود، لأن عبادة «الأشخاص» لم تعرف إلا منهم، ولم توجد إلا فيهم، وكان مجرد إشادة القبر أو الهيكل على شكل من الروعة والإتقان، والفن والجمال، كافيا لاتجاه الناس إلى صاحبه بالتقدير والتقديس، والخضوع والاحترام، وقد جاء على لسان النبى ﷺ ما يدل على أن بنى إسرائيل بلغوا فى ذلك كله القدح المعلى «لعن الله بنى إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» والأصل فى عبادة الأصنام والأوثان أنها كانت هكذا.. ابتدأت صورة مجسمة يرمزون بها إلى معنى من معانى القبح أو الحسن يذكر الناس حادثة قد حدثت، أو شأنا من الشئون أصابهم أو نزل بهم، ثم ينتقلون إلى ازدراء ما يرمز إليه الوثن أو احترامه. ولا تزال السنون تتوالى، فإذا الوثن معبود يقدمون إليه القرابين، ويرفعون عنده الأكف بالضراعة والاستغفار، ويصلون له الصلوات. وكان من المعروف عند أهل مكة فى الجاهلية عن بعض الأصنام فى الكعبة أنها فسقت فى الحرم فمسخها الله إلى أحجار وظلت لعناته تنصب عليها، إلى أن دار الزمان دورته، وصار التقديس مكان السخط والاحتقار، وهناك كان أبناء آدم وبنات حواء من الوافدين يجعلونها منسكا من المناسك، وعبادة لا بد منها. وهذا هو السر فى أن الإسلام ينهى عن المبالغة فى تشييد القبر، وإقامة القبة فوقه، واتخاذ المسجد فى داخله، ولذلك فإنه يعتبر تلك الصلاة محظورة، لا يصلح أن يتقرب إلى الله بها، ولا يجوز للرجل العاقل

أن يجعل منها ذريعة إلى الله ، لأنه لا يتوسل إليه تعالى بالمنهى عنه ، ولا يتقرب إليه بما لا يرضاه .

• والقاعدة التى يقول بها علماء الفقه أن الأصل فى الأشياء الإباحة ما لم يرد نص يتنافى مع هذا الأصل ، وحكمة التشريع لا يلاحظ فيها أن المتعبد فى الضريح يميز أولا يميز ، ويستحضر فى ذهنه أن للولى شيئاً من هذه الصلاة أو لا ، إنما لوحظ فيها العموم ، وروعى فيها الأحوط : « حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » ومما لا شك فيه أن الذين يصلون فى ضريح الولى على أقل التقديرات يزعمون بينهم وبين أنفسهم — أن للصلاة فى هذا المكان من المزايا والاعتبارات معانى لا تتوافر فى غيره من الأمكنة، بدليل التزاحم عليه بالمناكب والمواظبة الشديدة التى تجعلنا نشك فى خلوص نيتهم لله تعالى .

لماذا ناضل المشركون للإبقاء على شركهم

• لنا فى حديث الأوثان والشرك بقية نستوفى بها الكلام عنها ، كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، لأننا نريد أن نوضح السبب الذى من أجله تعصب المشركون للأوثان هذا التعصب الأعمى ، فإن الإنسان ليدهش ، بل ليذهل إذا أراد أن يستطلع حقيقة ذلك ، ونريد هنا أن نتساءل :

لماذا تعلق المشركون بعبادة الأوثان إلى حد الهوس والجنون ؟

ولماذا ضحوا بأرواحهم فى سبيل الدفاع عنها ؟

ولماذا بقى الشرك قائماً وسائداً فى العالم حتى الرسالة المحمدية ؟

أما كانت رسالات أنبياء الله ورسله السابقين بكافية للقضاء عليه ؟

• ونعجب أيضاً من أمر هذه الغشاوة التى حجبت أبصار المشركين عن حقيقتها الملموسة ، وكيف وهى أحجار هامدة وخشب مسندة ومواد

جامدة لا تنفع ولا تضر ، أوقعت الناس فى شراكها ، ولم يستطيعوا عنها فكاكا ولا خلاصاً .

إننا مهما فكرنا فى أمر هؤلاء الوثنيين الذين وهبهم الله العقل والإدراك ليميزوا به بين النافع والضار ، والحق والباطل ، لتستولى علينا الدهشة من مبلغ عمايتهم وضلالهم ، وربما نستطيع التعليل بأن ذلك جاء نتيجة سببين رئيسيين :

أولهما : أن الناس فى عصور الوثنية ماكانوا يؤمنون إلا بالواقع الملموس الذى تدركه حواسهم ، فهذه الأوثان التى قدسوها وعبدوها كانت آلهة مجسدة منظورة يرونها رأى العين ، ويقفون أمامها ضارعين خاشعين وكان يريح نفوسهم أنهم يخاطبونها ، ويتوهمون أنها تسمع ، ويتضرعون لها ، ويظنون أنها تجيب ، لأن الأوهام المسيطرة عليهم بقدرتها وسلطانها كانت هى تقيدتهم الراسخة وإيمانهم العميق بها ، ويكفى الوثنى منهم اعتقاده أنه متى مثل أمام صنمه فقد لقى ربه وجها لوجه ، ويصور له الوهم أنه رضى عن حضوره ، ومثوله بين يديه ، أما ما كان يدعو إليه أنبياء الله ورسله من وجود إله قادر بيده مقاليد الحياة والموت ، وبيده الأمر كله ، وأنه لا تراه العيون ، وليس كمثله شيء ، فهذا مالم تستطع عقولهم المغلقة وقلوبهم المقفلة أن تدركه ، وهذا ما حدثنا عنه القرآن الكريم ، إذ كانوا يريدون أن يروا الله جهرة ، أو أن يرسل إليهم خلقا على غير هيئتهم من الملائكة ينزلون من السماء إليهم ويكلمونهم .

وثانيهما : أن عبادة الأوثان أصبح لها معابد ورجال دين من الكهنة والخدم والأتباع ، وصارت هذه العبادة ذات دولة وصولة ، ممثلة فى رئاسات ووكلاء رئاسات وطقوس خاصة ، ولها إيرادات وميزانيات من أموال تؤخذ من الناس ، وهذه الأموال الطائلة التى تجمع وتدخل فى الجيوب والخزائن بصفة إتاوات أو هبات يحتكرها رجال الدين ، ولو أنهم آمنوا

بما جاء به رسل الله واتبعوهم ، لكان معنى ذلك ضياع هذا السلطان العريض والجاه العظيم ، والمال الوافر الذى يعيشون به عيشة الترف والنعيم ، فكيف يفقدون ذلك كله ؟ فكان لا بد من النضال والكفاح فى سبيل الإبقاء على كيانهم الوثنى .

● وتكملة لهذا الإيضاح نعود فنذكر قصة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وقصة يعوق ويغوث ونسرا ، تذكيرا بحقيقتها ، فقد كان بعض هذه الأسماء لرجال صالحين يتبرك الناس بسيرتهم ، ويشيدون بأعمالهم الطيبة ، ولكن بعد فترة من الزمن انقلب الحال ، وأصبحت هذه الأسماء أعلاما على أوثان يتجسم الشرك فى صورها ومعابدها ، ويكمن الشيطان فى مشاهدها ، وقد سبق القول أن المغالاة فى محبة الصالحين أدت فى نهاية الأمر إلى فساد الاعتقاد ثم إلى شرك مدمر ، وكفر مهلك ، فالواجب المحتم علينا جميعاً أن نتناصح وألا نتغالى فى تقديس أولياء الله ، بحيث لا نعرف عنهم إلا خوارق العادات ، التى تجرى على أيديهم ، وألا تكون علاقتنا بهم إلا عن هذا الفهم الذى ننتظر من ورائه أن تحصل لنا معهم خوارق وكرامات ، ويجب كذلك إعادة النظر فى أمور الأضرحة التى ترفع عليها القباب ، ثم توضع فيها التوابيت المزركشة ، ويعمل لها العمائم الكبيرة الخضراء أو الحمراء التى تلف حولها المسابح الطويلة ، ثم تزود بالأنوار والأضواء وبالأزهار والتحف مما يدخل فى روع قصادها أنها شىء من المقدسات ، فيوحى ذلك فى نفوسهم المتأثرة بالماديات ما يوحى من خطرات الشرك .

* * *

● لقد سبق لنا فى كتاب الصلاة وهى الركن الثانى من أركان الإسلام أن ذكرنا فى باب الطهارة صفحة ٤١ أن الطهارة كما يجب أن تكون لها أربع مراتب وهى :

الأولى : نظافة الظاهر من الأحداث ومن الأخبات .

الثانية : تطهير الجوارح من الجرائم والآثام .

الثالثة : تصفية القلب من الأخلاق المذمومة .

الرابعة : تخليص السر عما سوى الله سبحانه وتعالى .

والمرتبة الرابعة هي بيت القصيد ، لأنها هي طهارة الأنبياء والمرسلين وعباد الله المخلصين ، الذين لا يجدون سوى الله جل جلاله معبوداً بحق ، ومعناها الطهارة من الشرك بأنواعه ظاهراً وخافياً ، وهو ما يطالبنا به الشرع ، ويحثنا عليه حثا .

● فيأيها الراغبون في زيارة أولياء الله تعالى أحياء أو منتقلين ، إننا معكم نزور ونتودد ، ونحب ونتحبب ، لأنه واجب علينا أن نحب أولياء الله ما استطعنا ، وأن نذكرهم بكل خير ما أمكننا ، وأن نستروح ونستأنس بسيرتهم الجميلة العطرة ما قدرنا ، وذلك لأمر واضح لا يخفى على أحد ، وهو أنهم أحبوا الله تعالى حباً خالصاً لوجهه ، وأن الله قد أحبهم وجعلهم من أحبابه ، فإذا نحن أحببناهم فإنا نحبهم لله تعالى ، ولأننا نريد أن نتشبه بهم في محبة الله وطاعته ، فالرباط الذى يربطنا جميعاً هو الحب في الله تعالى ، وفي جنة هذه المحبة الإلهية تتلاقى الأرواح متعارفة متجاذبة متعانقة ، وأكرم بهذه المعية الروحية مع الله وأحبابه ، لأنها سعادة الإنسان الحقة ، وبهذه الخواطر العلوية والسوانح الصوفية يكون السمو في محبة أولياء الله .

أهمية الشهادة وحكمتها

● جاءت آيات بينات عن كلمة التوحيد في ثنايا القرآن الكريم ، نسوق بعضها مع بيان مواضعها من السور والآيات لمن يريد الرجوع إليها ، قال تعالى :

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم » (البقرة ٢٥٥)

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه » (النساء ٨٧)

« ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه » (الأنعام ١٠٢)
« لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » (التوبة ٣١)
« هذا بلاغ للناس ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد » (إبراهيم ٥٢)
« إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً » (طه ٩٨)
« فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك » (الأنبياء ٧٨)
« وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة » (القصص ٧٠)
« فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك » (محمد ١٩)
« هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام » (الحشر ٢٣)

● وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تشير إلى قيمة الشهادة وإلى مبلغ أهميتها كركن أساسى من أركان الإسلام ، حيث جاءت فى المحل الأول من الأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام .

قال معاذ رضى الله عنه : كنت ردف النبى ﷺ ، فقال : يا معاذ ، هل تدرى ما حق الله على عباده ، وما حق العباد على الله ؟

قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب إلا من يشرك به ، فقلت : يا رسول الله ! أفلا أبشر به الناس ؟ قال لا تبشرهم فيتكلوا .

● من النصوص السابقة قرآناً وحديثاً يتضح لنا أهمية الشهادة وضرورتها ، ذلك لأنها هى أول ما يطالب به كل من يدخل فى الإسلام ، وأول عمل يعمله ، إذ أن الإقرار بها يكون بمثابة العهد أو الميثاق الذى يؤخذ على من يعتنق الإسلام ، ثم هى أول عقيدة من تعاليمه التى يجب أن يؤمن بها ، وعليه أن يقر بالشهادة وينطقها نطقاً صحيحاً باللسان ، واعتقاداً سليماً بالقلب والوجدان ، فإذا ما قالها فقد دخل دائرة الاسلام ، وخرج من دائرة الكفر والشرك ، وتخلص من كل دين يخالف الاسلام ، وأنه قد برىء مما كان فيه أى عبادة لغير الله سبحانه ، وهذا هو ما يقصده الشارع بالنطق بالشهادة لمن يريد أن يسلم لرب العالمين .

● إن حقيقة التوحيد الممثلة فى الشهادة هى ولا ريب شعار المسلمين ، وعنوانهم البارز الدال على صفتهم وحقيقتهم فى معرض الأديان والمتدينين ، لأنها أصل من أصول العقيدة الاسلامية التى تدعو إلى التوحيد فى كل شىء من أمور الدين والدنيا ، وهذا الشعار هو العلم الخفاق الذى تتجمع تحته وحوله كل القوى الفردية للأمة الاسلامية ، لأنه دون غيره من الشعارات خليق أن يميز المسلمين بميزتهم الصحيحة ، وأنه بمقتضى هذه الوحدة المنبثقة عن عقيدة التوحيد التى وحدت العالم الاسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها فكراً وشعوراً وعزماً وإرادة ، أصبح فى مقدور هذه الجماعات الاسلامية الموحدة أن تحافظ على كيانها اجتماعيا وسياسيا وحربيا ، لأنها تستطيع بحكم إيمانها ودينها وبحكم إجماعها على كلمة الحق والهدى أن تحاكم الفرد ، إذا كفر بعقيدة التوحيد ، بعد أن آمن بها ، وتستطيع أن تقاتل وتحارب أى طائفة تبغى على جماعة المسلمين الموحدين ، ولها القدرة أيضا على أن تخلع كل حاكم فاسد مستبد ، يشاقق الله ورسوله ، ويخرج على الجماعة .

● وكل من نطق بالشهادة طوعا فقد دخل فى زمرة المسلمين ، وسرى عليه ما يسرى عليهم من أحكام قررها الإسلام ، وأصبح له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، فى كل الحقوق والواجبات ، فى نظامهم الاجتماعى والاقتصادى والعمرانى والدينى من زواج وميراث ومعاملات ومأمورات ومنهيات ، فكأن كلمة التوحيد هى بمثابة الجنسية الإسلامية التى تسمح للمسلم بأن يتمتع بكل ما فى الإسلام من سلم وسلام وحماية وصيانة ، فى نفسه وعرضه وماله ، لذلك كان حقا على من ينطق بالشهادة أن يوطن نفسه على الإخلاص لله فى قوله وعمله ، ويعتبر نفسه مجاهداً فى سبيل هذه العقيدة بماله وروحه ، تحقيقا لوحدة المسلمين واتحادهم وتوحيدهم .

● فلا عجب أن تكون كلمة التوحيد إحدى قوى الإسلام التى تكمن فيها سر عظمته البالغة ، وسر انتشاره السريع ، وسر دخول الناس فيه

أفواجا مؤمنين بأنه موئلهم من الظلم ، ومنجاتهم من الضلال ، وطريقهم إلى الأمن والعدل والسلام ، وحسبك شاهداً على ذلك أن الرعيل الأول من المسلمين المؤمنين كانوا على قلة عددهم وعددهم سادة وقادة ، ودانت الدنيا لهم لأنهم آمنوا بعقيدة التوحيد التى امتلأت بها قلوبهم ، ووثقوا أن الله حق ، ووعده صدق ، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، لذلك أثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها .

● وليس بخاف على أحد أن كل من نطق بالشهادة ، وأشهد الناس على أنه من حزب لا إله إلا الله ، فقد أصبح مسلما له ما للمسلمين من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ، فكل ما جاء به الشرع من قوانين فى الزواج والميراث والمبايعة والمشاركة وكافة المعاملات التى أمرنا بها الشارع تكون مطلوبة منه وملزمة له ، وهذه هى حكمة النطق بالشهادة والإقرار بها ، فهى بمثابة جواز المرور للدخول فى حظيرة الإسلام وساحته الرحبة الفسيحة المليئة بالخيرات والبركات والرحمات ، والإسلام هو الدين الحق الذى لا يقبل الله غيره ، لهذا كان للشهادة وزنها واعتبارها فى تقرير من يدخلون الاسلام ، ويقبلون الانضواء تحت لوائه ، والانتفاع بعدالته وسماحته ، لأنه دين الفطرة الذى يهدى إليه العقل السليم ، وهو دين الخير والسلام .

● مما سبق تتبين ضرورة النطق بالشهادة ، لأن فى هذا الاقرار والنطق رباطا ماديا يربط المسلم بإخوانه المسلمين ، ويدخله فى زمرتهم ، وهناك لكلمة التوحيد الممثلة فى قوله « لا إله إلا الله » ناحية روحية لها شأنها وخطرها ، فهى فى مجال العبادة أعظم مايردده اللسان فى موطن الذكر لله تعالى ، وأعظم ما يستحضره الفكر فى موطن الفكر فى عظمة الله ، فقد ورد فى الحديث عن رسول الله ﷺ ما معناه ، أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى « لا إله إلا الله » ، وقوله « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله ، وأفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله » .

• فمن أراد أن يذكر الله تعالى فعليه أن يردد بلسانه ووجدانه قول : « لا إله إلا الله » مراراً وتكراراً ، ليلا ونهارا ، فى خلوة أوفى جماعة ، مستحضرا معناها فى كل مرة يقولها ، وهو أنه لا معبود بحق إلا الله ، وأنه لا أحد غيره يستحق العبادة ، فإن ترديد كلمة التوحيد يدخل على القلوب نورا وراحة وطمأنينة وسعادة ، وقد قال تعالى فى محكم كتابه : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فكن يا أخى من الذاكرين الحامدين ، وأدم ذكرك الله ليلا طويلا ، لتحس بهذه الطمأنينة الروحية ، وتتذوق لذة الأنس بذكر الله ، وفقنى الله وإياك إلى ذكره تعالى وشكره وحسن عبادته .

• وعقيدة التوحيد التى أشرنا إلى بعض حكمتها وضرورتها ، يقصد بها معنى أشمل وأكمل فى وحدة المسلمين واتحادهم ، فهناك وحدة الاتجاه إلى الله تعالى ممثلة فى استقبال القبلة متجهين كلنا نحوها ، فلا يتحول منا نظر ولا خاطر عن وجهتها حيثما كنا ، وفى ذلك معنى وحدة الاتجاه إلى الله ، والصمود إليه وحده فى كل ما نريد ، فلا نقصد سواه ، ولا نلجأ إلى غيره أبداً فى كل ما أهمنا ويهمنا ، لأنه هو وحده القادر على أن يسمع عباده ويجيب المضطر إذا دعاه ، ثم هى أيضاً داعية وحدة فى جميع أعمالنا التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج ، تتوحد بمقتضاها أعمالنا فى الأوقات المحددة والحركات المتشابهة والأماكن المعينة ، وفضلا عن ذلك فإن كلمة لا إله إلا الله تجمعنا تحت راية الإسلام فى لغته العربية الموحدة ، ودستوره الموحد ، وأحكامه الموحدة ، فلا عجب إذا ما كانت كلمة لا إله إلا الله من جوامع الكلم الدالة على روح الإسلام وجوهره الأصيل فى جمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم وتوحيد صفوفهم ، ووقوفهم فى معترك هذه الحياة أمة وسطا متماسكة الأطراف ، لأنها خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتخشى الله .

• ومن ألزم مستلزمات الشهادة بالوحدانية ، ألا نشرك بالله شيئاً ، مع

الاعتقاد الثابت الراسخ بأنه ليس سوى الله يقدر على كل شيء ، فلا ندعو غيره ، أو نعتمد على غيره بحال من الأحوال ، ويتحتم علينا أن نحترس من خواطر الشرك الخفية التي تتسلل إلى نفوسنا من حيث لا نشعر ، فنتوهم أوهاما ، ونظن ظنونا ، فلا تتوهمن يا أخي أن لأحد كائنا من كان أي دخل أو تأثير فيما قضاه الله ، أو أن أي ولي من الأولياء له أدنى شأن من تصريفه أو تدبير في أمور العباد ، فهذا من اختصاص الله تعالى وحده الذي إليه يرجع الأمر كله ، ومن واجبات كل مسلم موحد بالله ألا ينسب إلى نفسه القدرة على أي عمل من الأعمال ، أو يدعي أن بيده تنفيذ أي رأي يشاء ، لأن الذي أعطاه القدرة على العمل ووهبه المواهب للتفكير ، وهيأ له الأسباب والوسائل من عقل وقوة وعمر إنما هو الله وحده : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ، واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا » .

● ففي عقيدة التوحيد سلامتك ، لأنها تدخلك في زمرة المسلمين ، وتجمع شملك مع الموحدين ، وتهديك إلى الطريق المستقيم ، وتحفظ قلبك وسرك من الأوهام والضلال ، وتفتح لك أبواب العبادة الصحيحة التي تصحح إسلامك وتقوي إيمانك ، فإنك بهذه الشهادة تؤمن بأنه لا خالق ولا رازق سوى الله ، وأنه لا محيي ولا مميت سواه ، وأنه لا معطي ولا مانع سواه . وأنه لا معز ولا مذل سواه ، ولا هادي ولا مضل سواه ، وأنه لا نافع ولا ضار سواه ، وأنه لا مبدىء ولا معيد سواه ، وبهذه المعاني وأمثالها تتطهر بواطنك من كل الظنون والأوهام ، وتتطهر سرائرك من الوساوس والأرجاس ، وتكون كلما رددت هذه المعاني في نفسك أهلا لأن تنزل عليك هداية الله ورحمته ، وتكون من أهل التوحيد الذين يوقنون تماما بمعنى الوحدانية ، وانفراد الله في كل شيء في ذاته وصفاته وفي أفعاله وإرادته ، فلا ذات تشبه ذاته ؛ ولا صفة لأحد تشبه صفته ، ولا لأي كائن فعل كفعله : « سبحانه وتعالى عما يصفون » .

• وعلى المؤمن أن يقرأ قوله تعالى في هذه الآيات التالية ويتدبر معانيها، فهي بلا مراء تؤكد له حقيقة التوحيد ، ومن ذلك قوله تعالى :

« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

« قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين » .

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله ، من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون » .

ثم عليه أيضاً أن يتدبر قول الرسول الأعظم في وصية له :

« احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله وإذ استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » .

والإسلام في دعوته إلى الوحدة والتوحيد لا يعتد كثيرا بما بين الأديان من فوارق الفروع ، وجزئيات الطقوس ، اكتفاء بما يحدثه الدخول في عبادة إله واحد من وحدة في الهدف ، وألفة بين الأفراد ، قال تعالى : « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وحين تسطع بالقلوب شمس التوحيد . يتدفق نور الإخلاص لله وحده في العبادة .

معنى كلمة التوحيد

• إذا أردنا أن نفسر كلمة الشهادة بشطريها بكلام مبسط يوضح مضمونها، فيكون معنى الشطر الأول منها كما يأتى :

أشهد شهادة إقرار ويقين بما ينطق به لسانى ، ويؤيده وجدانى أنه لا رب لى بحق إلا الله سبحانه وتعالى ، وأنى إذ أشهد هذه الشهادة أعترف اعترافا قلبيا لا يشوبه شك ولا ريب ، أن هذا الرب هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وأنه هو وحده المستحق لعبادتى ، وأنى أشهد كل من يسمعنى أنطق بهذه الشهادة ، أنى قد برئت من كل دين يخالف دين الإسلام ، وتخلصت من كل فكرة أو عقيدة تناقض ما جاء به الإسلام ، وأنى قد أصبحت بهذه الشهادة من عباد الله الموحدين ، الذين شعارهم ودثارهم قول لا إله إلا الله، المنزه عن الشريك والمثيل والولد والوالد ، وأنى قد أصبحت بحمد الله ممن قالوا ربنا الله ثم استقاموا . ويجب على كل من ينطق بهذا الشطر من الشهادة أن يقولها بهذا النص دون غيره ، فلا تقبل شهادة من قال : لا إله إلا الرحمن أو الرحيم . أو غير ذلك .

• ومما ورد فى تفسير الشطر الأول من الشهادة نفهم أنها نطق باللسان وإقرار بالقلب معا ، والمراد بالنطق باللسان ، هو إظهار الإسلام وإعلانه على الملأ ، وأن المراد بإقرار القلب بما يقوله اللسان هو استقرار الإيمان فى السريرة أمام الله علام الغيوب ، فهو الذى يعلم السر وأخفى ، وللناس من الشهادة ظاهرها . فيحكمون على قائلها بالإسلام . ويعاملونه على أساسها فى كل مايصلهم به من علاقات ومعاملات . ولله سبحانه باطن الشهادة فهو الذى يعامل الناس حسب سرائرهم ، ويقول الله تعالى فى كتابه العزيز فى شأن المنافقين الذين يبطنون غير مايعلنون : « إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا ، وإذا كان الإنسان بشهادته أثبت إسلامه وإيمانه . فالإسلام يقول

له إن مجرد إيمانك وحده لا يكفى بدون عمل ، فلا بد لشجرة الإيمان من ثمر ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « الإيمان عريان ولباسه التقوى » ويقول أيضاً : « الإيمان بضع وسبعون بابا . أدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

● وأما الشطر الثانى من الشهادة ، وهو : أشهد أن محمداً رسول الله ، فهى إقرار من قائلها بأنه يؤمن كل الإيمان بأن دين الإسلام جاء به محمد ﷺ وهو خاتم الرسل . من عند الله . وليس أحد غيره من البشر حمل هذه الرسالة العظمى التى هى آخر الرسالات المنزلة من عند الله للخلق ، وأن محمدا ﷺ هو هـذا النبى الأمى العربى الذى عاش فى جزيرة العرب بين قومه وعاشره قومه ورأوه ، وخالطهم وخالطوه ، وكان معروفا كل المعرفة لديهم . وإنى إذ أقر برسالة هذا الرسول أومن إيمانا لا يتطرق إليه الشك أبداً أن محمدا هو دون غيره من العالمين رسولى ونبى وإمامى وقائدى وقدوتى ، وأنه كان سبب هدايتى إلى دين الله الحق ، واتباعى للإسلام ، وإنى أحمد الله تعالى الذى جعلنى من أمة هذا الرسول العظيم الذى أرسله ربه خاتما للأنبياء والمرسلين ، ورحمة للعالمين .

● هذه هى بعض المعانى التى ترد على القلب حين النطق بالشهادة ، فهى فى حقيقة أمرها مدار التوحيد والإقرار بربوبية الله تعالى ، حيث يؤمن قائلها فى نفسه وهو يرددها ، أنه ليس فى هذه الأكوان العظيمة الأرجاء ، البديعة الصنع . العجيبة التكوين ، إله يستطيع أن يوجدها من العدم ، وينظمها بهذه الدقة سوى الله وحده خالق كل شىء فى الأرض وفى السماء ، ومدبر كل ما نعلم وما لا نعلم من العوالم الأخرى الفسيحة التى لا يحيط الفكر ولا العلم خبرا بمقدارها ومداها ، وأن هذا الرب القادر المقتدر هو الذى يستحق أن أعبده حق العبادة ، وأطيعه كل الطاعة ، وأعظمه أشد التعظيم . وهذه الناحية بالذات من المعانى القلبية التى تتوارد على القلوب . ويفيض

بها الإلهام فى سرائر الموحدين هى من خصائص كلمة التوحيد وأسرارها الروحية التى تجعل الناس مهما كانوا وكيفما كانوا فى هذه الدنيا فى حالة نعيم أو شقاء، أو فى بؤس أو هناء يشعرون بالنشوة تتملك مشاعرهم بذكر الله، ويحسون بالأنس العظيم يملأ جوانحهم بتوحيد الله، ولا نغالى إذا قلنا إن أنوار كلمة التوحيد هى التى أضاءت سراج التصوف والتنسك، وخلقت هذا الجيل المتألق من الموحدين الذين استنادوا بقول لا إله إلا الله، واجتمعت أرواحهم فى ساعة الحب الإلهى يذكرون الله، وتفيض بهم مشاعر الإيمان وتتملكهم مواجيد الحب والشوق إلى الله تعالى.

● وبعقيدة التوحيد عرف الناس حقيقة ربهم، أنه واحد أحد، فرد صمد، وأنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وهذه العقيدة البسيطة فى مظهرها وكلماتها هى المدخل الحقيقى إلى الإسلام، هذا الدين الرحب الفسيح الذى خصه الله بأكمل الفضائل والكمالات، وبخير النظم والأحكام، وبأفضل مشاعر التقى والهدى، وقد بعث به سيد الخلق وأشرف المرسلين سيدنا محمد خاتما للأنبياء والمرسلين. إذ لا رسالة بعد رسالته، ولا نبى بعده؛ وأن من يتبع ما جاء فى دعوة الرسل السابقين من مناسك وعبادة وتشريع يجدها قطرة فى بحر هذه الرسالة المحمدية الخصبة المترعة بكل ألوان العمل الصالح والجهاد المجيد فى بلوغ السمو الأخلاقى والكمال الروحى، والوصول إلى فضائل الاسلام والايمان، قال تعالى:

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الاسلام دينا ».

والحقيقة التى لا مراء فيها أن الايمان قد نبع من كلمة التوحيد، وأنه بعد أن تدفق وفاض ملأ القلوب بوحيه وإلهامه، وهداها إلى العمل فى حقلى الدين والدنيا، وصار من أبرز صفات المؤمن أنه رجل عامل لا خامل، مجد لا متقاعد، متوكل لا متواكل، لأن الايمان لا يتحقق أصلا إلا بالعمل،

ولا تبدو صورته الحقيقية إلا فى الأعمال قلبية كانت أو فعلية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الايمان عريان ولباسه التقوى » والمراد بالتقوى أن تتق كل ما يعود عليك بالضرر ، من مخالفة لأمر الله . أو قعود عن السعى فى الرزق . أو جهاد فى سبيل الله ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدد الايمان : « الايمان بضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق » . فانظر كيف جعل الاسلام عمل الذى يبعد الأذى عن الطريق حتى لا يضار به أحد ، من أعمال الايمان التى يثاب عليها ويكمل بها إيمانه .

• والحق الذى يجب علينا أن نؤمن به إيمانا يملأ كل مشاعرنا ، هو أن كلمة التوحيد هى النواة التى يجب أن تغرس فى كل قلب حتى تنمو وتصير شجرة مباركة الثمرات تؤتى أكلها كل حين بإذن الله ، ولن تكون هذه الشجرة باسقة الأغصان والفروع ، طيبة الثمار إلا إذا رويناها بماء الايمان وتعهدناها بشمس المعرفة . وحرصنا عليها من آفات الشرك والضلال والزور والبهتان . فاحرص أيها المؤمن على كلمة التوحيد فى سرك وعلانيتك . وتذكرها واذكرها . وذكر بها من تشاء من أهل وإخوان ، يرعاك الله ويحفظك فهو نعم المولى ونعم النصير .

• لقد فهمنا إجمالا ماذا يقصد الاسلام من النطق بالشهادة باللسان والاقرار بها بالقلب . والحقيقة أن الشهادة لها غاية أبعد مرمى . وأن لها هدفا أجل وأعظم خطرا مما ذكرنا ، لأن فيها السر الأكبر الذى يجب علينا أن ننشده ونتوخاه ، فالانسان الذى يقر بوحدانية الله . ويقر بأنه لا رب غير الله يعبد . ولا أحد سواه يقصد ، يكون قد حرر نفسه من أى عبودية أخرى لغير الله تعالى .

فلا عجب أن نجد الناس بعد ما تحرروا من قيود التقليد للآباء وأطلق سراحهم مما كانوا فيه من أسر الشرك وأغلاله ، وسلطة المشركين وسيادتهم ، نجدهم وقد انطلقوا أحراراً ، لا يخافون شيئاً من سلطة حكامهم المشركين .

ولا غضب رؤساء الدين الكاذبين . ولا سطوة الرؤساء المستبدين ، أو صولة السادة الجبارين ، صاروا بعد أن قالوا لا إله إلا الله . يحنون رءوسهم لرب العالمين وحده ، ولا يخشون إلا الله أحكم الحاكمين ، وبهذه الحرية والعزة والكرامة ، عاش المسلمون كما أراد لهم الاسلام لا ذل ولا استعباد ، ولا ضغط ولا إكراه ، ولا سيد ومسود، بل سواء جميعا بين يدى رب العالمين ، وإنما أكرمنا عند الله أتقانا وأقربنا إليه أورعنا وأحسننا عملا .

● وكل مسلم حين يقول لا إله إلا الله فإنما يثق أن الله الذى يؤمن به ويعبده هو وحده مالك أمره ، وبيده حياته وموته ، وأجله ورزقه ، وصحته وعافيته . وإليه مصير أمره . وبهذا الايمان لايتكل إنسان على مخلوق . وهو بذلك يتخلص من مذلة الخضوع لمخلوق مثله . ويستطيع أن يرفع رأسه أمام أعظم عظيم لاعتقاده أنه عبد الله مثله . لا يمتاز عنه بشيء إلا بالعمل ، وبهذه الروح العالية يقف الكثير من الفقراء فى وجه الأغنياء ، ويقف الضعفاء فى وجه الأقوياء ، لايهابونهم ولا يرهبونهم . ويخاطبونهم مخاطبة الند للند . لأن شعلة الايمان التى فى قلوبهم أضاءت لهم وجه الحقيقة : وأيقنوا أن الله وحده هو مالك الملك ، وأن جميع عباده سواء ، ولا يتمايزون إلا بالتقوى والاستقامة .

● وكم من المسلمين من يردد قول لا إله إلا الله . وهو لا يدرى كم تحمل هذه الكلمات فى طياتها من روح عالية توحى بالإيمان وقوة محركة للعمل والإتقان . وكم منهم من يظنها ألفاظا يلوكها اللسان للتعبد والذكر فقط . كلا وألف كلا ، إنها أيها الأخ المؤمن العقيدة التى يجب أن تتملك مشاعرك فى كل عمل تعمله ، وكل فكر تفكره فى حياتك الدنيا . إنها العقيدة التى تدفعك للعمل فى قوة وإخلاص واتجاه إلى الله فيما تقول وما تنوى وما تفعل ، وقد كان سلفنا الصالح الذين دفعوا بالاسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها ، كانت عدتهم وقوتهم وحماستهم فى سر كلمة التوحيد ، يعملون من أجلها ،

ويضحون من أجلها ، وتأتى أعمالهم طبقاً لما يوحى به إلهامها . من إخلاص وحسن تدبير وحكمة ، فسادوا وشادوا من أجل فهمهم الصحيح وعملهم المتقن بحقيقة كلمة لا إله إلا الله .

• واليوم وقد اتخــــذ المسلمون آيات القرآن وكلمة التوحيد للتلاوة والذكر ، واقصروا على ترديدها للتبرك والعبادة دون تدبر وتفـكر فيما تدعو إليه معانيها من الحركة والعمل والنشاط ، وشحذ الهمم وخلق الجهود ، وحين فهم المسلمون من أمور الدين أنها مجرد آيات تتـلى ، ودعوات تردد خسروا أنفسهم ، ووقفوا برسالة الإسلام عنـد حدود ضيقة لم يتخطوها ، لأنهم عجزوا عن فهم حقيقة الإسلام الـكبرى ، وفهم حقيقـة كلمة لا إله إلا الله العليا ، تلك الحقائق التى خلقت الرعيل الأول من المسلمين ، وأوجدت القادة والسادة ، وأيقظت الشعور الحى ، ورفعت راية الإسلام عاليـة خفاقة فى أرجاء الأرض ، وجعلت للعرب منزلتهم الرفيعـة فى العلوم والفنون والآداب التى اغترف منها الغرب ما اغترف وسار على هداها ، ووقفنا نحن دونها ، ثم نمنا .

• وخلاصة القول أن كلمة التوحيـد بمعناها الحى هى الإيمان العميق بوحدانية الله ، والثقة المطلقة بقدرته ورحمته ، والاعتماد الـكامل على فضله وعونه دون غيره ، وبهذا يتحرر كل مسلم من أى سلطة تتحكم فيه ، أو شهوة تأسره ، ثم إنها ترد كل مغرور بنفسه إلى حقيقة أمره ، لأن أى إنسان مهما أوتى من مال ومتاع فهو إلى الله فقير ، ومهما أوتى من جاه وسلطان فهو أمام الله عبد حقير ، ومهما أوتى من القوة والصحة فهو إلى عناية الله محتاج ذليل ، ومهما قلبنا فى معانى لا إله إلا الله وجـدناها مليئة بكل ما هو حق وخير ، ويكفى أن نقول إن كلمة التوحيـد تورث الايمان الصحيح بالله ، وأن الإيمان الصحيح يهدى إلى البر والخير ، وأن البر والخير يهـديان الانسان إلى عمل المعروف ودفع الشر ، وهكذا نجد أن كلمة الشهادة بالوحدانية مع فهم معناها

هى النواة الطيبة التى تخرج فى قلب كل مؤمن شجرة طيبـة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

• وكلمة التوحيد هى إحدى قوى الاسلام التى يكمن فى أطوائهـا سر عظمة الاسلام وسرعة انتشاره ، وسعة فتوحاته ، لأنه أوجد العدل والسلام بين الناس ، ولأنه لما أن دخـل الايمان فى قلوب المسلمين الأوائل على قلة عددهم وعددهم ، وتملكهم حقيقة العقيدة بوحدانية الله ، وعلموا أنه ربهم الحق الذى يدعوهم للجهاد ، ويبشرهم بأن لهم الجنة ، اندفعوا مخلصين لدين الله ، فـكانت عقيدة التوحيد خير حافز لهم على الجهـــاد ، وأمضى سلاح يتسلحون به فى كفاحهم ضد أعدائهم ، فـكانوا يؤمنون بأن الله حق ، وأن وعده صدق ، وأنه لا يضـيع أجر المحسنين . فـكان كل واحد منهم يرغب فى أن يستشهد ويدخل جنات عدن التى وعد الله بها عباده المتقين .

• وها هو ذا التاريخ يعيـد نفسه فعزة العرب وقوميتهم وكرامتهم أخذت تعيد أمجادها ، وتحيي سيرتها الأولى ، بفضل هؤلاء الفتية المؤمنة من القادة الذين آمنوا بربهم ودينهم ووطنهم . وأن الأحـداث تجرى كل يوم بما يؤكد معانى كلمة التوحيـد فى ثورة مصر الحاضرة وثورة البلاد العربية الأخرى ومعجزاتها ، التى بهرت العالم بما حققت من عزة وكرامة ودعوة إلى السلم والسلام .

الباب الثانى

أشهد أن لا إله إلا الله

قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

(سورة آل عمران ١٨)

التوحيد

• كان المسلمون فى أول عهدهم بالإسلام يؤمنون بكل ما جاءهم به النبى ﷺ ، ويسلمون بكل ما يقوله من غير فحص ولا تمحيص ، وذلك لأن المبادىء الواضحة والعقائد السليمة التى جاء بها الاسلام ليس فيها ما يخالف الفطرة ، وليس فيها أى تعقيد أو غموض ، وكان من عادة النبى ﷺ أنه كان يجلس فى المسجد إلى المهاجرين والأنصار ، يعلمهم ويشرح لهم كل ما يصعب على بعضهم فهمه من كتاب الله الكريم .

ولما لحق الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالرفيق الأعلى ، اقتدى كبار الصحابة والتابعين بسنته ﷺ واستمروا يعقدون المجالس ، ويحلقون الحلقات بالمساجد والأندية يتدارسون فيها القرآن والحديث ، ولم يهتم السلف بتدوين علومهم ومعارفهم اكتفاء بأنها محفوظة فى قلوبهم ومصونة فى صدورهم ، وكانوا يحرصون كل الحرص على نصوصها وأصولها لما للدين وقتئذ فى نفوسهم من قداسة وإجلال ، ولأن نفسية المسلمين الأول كانت مستعدة وراغبة فى تقبل واستيعاب كل ما جاء به الدين والشرع ، ولم تكن هناك شواغل تشغلهم أو تبلبل عقولهم وقلوبهم ، فتصرفهم عن شؤون الدين .

• ومع مرور الزمن تقلبت أحوال المسلمين ، وتغيرت سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، كما تعرضت جماعاتهم لشتى المشاكل والأحداث التى فرقت بينهم ، فقد أصابتهم فتن مظلمة ، كان لها أسوأ الأثر فى وحدتهم فمزقتهم شيعاً وأحزاباً ومن أكبر الحوادث ، وأفدح النكبات ، التى حلت بهم ، وأثرت فى تفكيرهم وعقيدتهم أمور خطيرة يتصل بعضها بالحكم والسياسة ، وبعضها بالعقيدة الدينية ، ومن بين المشاكل السياسية الكبرى ما يأتى :

أولا : موضوع الخلافة على المسلمين ، وما ثار حولها من نزاع وخلاف .

ثانيا : مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بغير حكم شرعى يجيز ذلك ، وما جره من فتنة وانقسام بين صفوف المسلمين .

ثالثا : التنازع والقتال بين الخليفة الرابع على بن أبى طالب وبين عامله على الشام معاوية .

رابعا : تجدد العصبيات القديمة التى كان الاسلام قد قضى عليها .

• أما الأمور التى تتصل بالعقيدة فهى ما جد من خلافات بين المسلمين فى تفسير بعض نصوص القرآن الكريم وتضارب الآراء بشأنها ، ومن ذلك مسألة الجبر والاختيار ، فهناك آيات تدل فى صراحة على أن الانسان مخير فى أعماله ، وله حرية الارادة ، مثل قوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى » وقوله تعالى : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » وهناك آيات أخرى تدل على أنه مجبر وليس له حرية الارادة ، مثل قوله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ، وقوله تعالى : « من يهدى الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » فكان من الصعب على الناس التوفيق بين الأمرين ، وكذلك نشأت تفسيرات وآراء مختلفة فى الآيات المتشابهة وتوضيحها ، وأيضا وقع الخلاف فى الحكم دينيا على قتلة عثمان ، هل هم مؤمنون أم كفار ؟ وكان لكل هــذه الأحداث والآراء دخل كبير فى فرقة المسلمين وتقاطعهم .

• ونتيجة للخلافات السياسية ظهرت فرق من جماعات قوية تتعصب لآراء ذاتية وتتحمس لها أشد التحمس ، مثل الشيعة والخوارج والأمويين ، وقد مزجت كل فرقة من هذه الفرق فكرتها السياسية بفكرة دينية تأييدا لموقفها ، مما أدى إلى تمسك كل فرقة برأيها فى عنف وشدة ، وعداوة لكل

من يخالفها فى الرأى ، وكان من نتائج الخلافات فى الفهم والتفسير والتأويل أنه كثر الكلام فى العقائد بصورة جدية ، وازداد الجذب والشد بين أصحاب الآراء المتضاربة حتى أنه من جراء ذلك ظهر فى صفوف المسلمين معسكران يتجادلان ويتناظران ويتراشقان التهم ، وهما معسكر المؤمنين السلفيين ، ومعسكر الباحثين والمتشككين مما أدى أخيراً إلى ظهور معسكر ثالث تخصص فى دراسة أصول الدين ، والنظر فيها نظرات فاحصة مدققة محكمين فى ذلك العقل والمنطق ، وروح النصوص الاسلامية ، وكان هؤلاء هم طليعة من وضعوا علم التوحيد كما سيأتى بعد .

● ثم إنه لما اتسعت الفتوحات الإسلامية ، ودخلت فى الاسلام أمم كثيرة مختلفة عن الأمة العربية فى كل مقوماتها جنساً ولغة وثقافة وديناً وحضارة ، نشأت بسبب ذلك أوضاع جديدة غير مألوفة ، استلزمتها ظروف الانتقال من الحياة العربية البدوية البسيطة إلى حياة أخرى حضرية مركبة ، وكان لزاما على الفكر العربى الذى أخذ يحتك بعقليات ومعتقدات جماعات عاشت فى ظل حكومات لها أنظمة اجتماعية ومذاهب دينية فلسفية ، لم يكن للعرب بها عهد ، كان من المحتم على هذا الفكر أن يتطور حتى يتلاءم مع هذه البيئات والعقليات والثقافات ، وكان حتما أيضاً أن يجتهد المشرع الاسلامى لاستنباط الأحكام الشرعية للفصل فى القضايا والمشاكل ، وكل ما طرأ فى هذه الحياة الجديدة المعقدة ، من مسائل لم ترد بشأنها نصوص واضحة فى الكتاب والسنة ، ولكنها لا تخرج مطلقاً عن القواعد العامة والتعاليم الكبرى التى وضعها الإسلام لتنظيم حياة البشر فى كل زمان ومكان ، إذ أنه لا شىء من أعمال الناس وعلاقتهم ومعاملاتهم وعباداتهم إلا وجاءت عنه أحكام واضحة كل الوضوح ، حتى أصبح الحلال بيناً ، والحرام بيناً ، فى ضوء الإسلام ومبادئه وتعاليمه التى تنطوى تحتها حقائق كثيرة .

• وقد نشط العرب رغم حداثة عهدهم بالمدنية واستطاعوا أن يسايروا ركب العلم والحضارة ، ويجاروا أرقى الأمم فى العلوم والمعارف ، لأن الإسلام بطبيعته دين عامر بالمثل العليا ، وحافز إلى طلب العلم طول العمر ، كما قال الرسول ﷺ : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » وحافز إلى السفر والانتقال فى طلبه ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « اطلب العلم ولو بالصين ». وإن القرآن الكريم حافل بكثير من الآيات التى تدعو الناس إلى النظر فى حقائق هذا الكون ، ودقة صنعه وإبداع تكوينه ، ويوجههم إلى التأمل فى سنن الطبيعة وأسرارها ، ولم يترك المولى عباده هملا ، بل إنه علم الانسان ما لم يعلم ، وأمره أن يتعلم . ووهبه العقل والفكر والادراك ، وجميع الأدوات التى بها يتعلم . ثم تدبر قوله تعالى وهو يحث الناس على التأمل والمعرفة .

« انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟

« أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت ، وإلى السما كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » (١) .

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

• فلا عجب أن يكون الاسلام دين الحياة العلمية ، لأنه دين قوامه العلم ، وسداه ولحمته المعرفة واليقين ، وهو يفرق بين الجهال والعلماء بقوله تعالى :

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وقد ازدهرت فى العصرين العباسى والأندلسى نهضة علمية واستطاع

---

(١) إن أمر الله سبحانه وتعالى لعباده بالنظر فى الكيفية التى خلقت بها الإبل والجبال والأرض والسماء فيه الدليل القاطع على أنه يطلب منا البحث الدقيق والعلم الوثيق بحقائق الكيفية: وهى لب الدعوة إلى الاشتغال بالعلوم الحديثة والتعمق فى أسرارها ثم تطبيقاتها .

علماء العرب أن يضعوا مباحث قيمة فى الفلك والرياضة والطب والكيمياء والفلسفة وغيرها من العلوم التى تمثل أرقى الثقافات فى عصرهم . وكان من بين العلوم التى تفرغ لها المسلمون وأولوها أكبر عنايتهم وفائق اهتمامهم علم التوحيد ، المعروف بعلم الكلام ، وذلك لأن الحاجة أصبحت جد ماسة إليه ، بعد أن تغيرت أحوال المسلمين ، ولم يعد المجتمع الاسلامى مقصورا على هذا النوع الأول من المسلمين الذين آمنوا بكل ما جاءهم به الاسلام من غير جدل ولا شكوك كأهل السنة والسلف . بل جد من اتباعه أنواع مختلفة من الدخلاء غير العرب الذين يريدون الإيمان بعقولهم قبل قلوبهم ، لأنهم كانوا قبل إسلامهم على ملل ومعتقدات ومذاهب فلسفية متنوعة ، فكان من بينهم اليهود والنصارى والمانوية والصابئة والبراهمة فلما أسلموا ظلوا متأثرين بعقائدهم القديمة ، وأرادوا تحكيم عقولهم فى كل ما جاء به الإسلام ، ومنهم من حاولوا التوفيق بين الإسلام وآرائهم ؛ ولم يكن هذا ممكنا لأن الاسلام دين الفطرة ، ولا يقبل الآراء المبتدعة والأفكار التى كانت موجودة ، ويؤمن بها بعض الناس مثل فكرة التناسخ والحلول والاتحاد والتأويل وغيرها ، لذلك كله بدأت الشبهات والشكوك تتملك بعض الناس وأخذت المناقشة والمجادلة تزداد وتنتشر بين المسلمين فى المسائل الدينية .

• وكان من أوجب الواجبات فى هذه الظروف أن يحمى العلماء المسلمون الدين من هذه التيارات المضللة ، ويبعدوا عنه نزعات الالحاد والزندقة ، فقام علماء التوحيد بتوضيح أصول الدين وما اشتمل عليه كل أصل من كليات وجزئيات ، ونظموا ذلك فى أسلوب علمى مدعم بالأدلة والبراهين العقلية والنقلية ، وبكل ما فى جعبة العلوم الفلسفية والمنطقية من أسلحة التدليل والاقناع ، حتى يكون لدى المسلمين وسائل الدفاع عن عقيدتهم أمام المهاجمين لها من المتشككين والملحدين والهدامين لدين الله

بإثارة الشبهات ، ويقول الامام الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال فى هذا الشأن : لقد ألقى الله سبحانه وتعالى إلى عباده على لسان رسوله ﷺ عقيدة هى الحق على مافيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها ، فأنشأ الله سبحانه وتعالى طائفة من المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة المأثورة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة ، فمنه نشأ علم الكلام وأهله .

نشأة علم التوحيد وواضعوه

• علمنا كيف أن الاحتكاك بين عقيدة الاسلام وبين المعتقدات الأخرى أوجد مجالا للخلافات بين أصحاب العقليات المتغايرة والمذاهب المتضاربة ، لأن كثيراً ممن اعتنقوا الاسلام ظلوا متأثرين بما كانوا عليه ، وصاروا يستعرضون دينهم الجديد على ضوء العقل والمنطق ، وخلقوا شبهات غامضة أثارت ظلالا من الشكوك والظنون ، وبدأت بوادر زعزعة لبعض المسلمين فى عقائدهم ، وقد حفزت هذه الحالة الخطيرة علماء الدين أن يتنبهوا لهذه المفتريات ، وأن ينبروا لهؤلاء المتشككين بالتحدى ، ولمثيرى الشبهات والريب بالتصدى ، دفاعاً عن حوزة العقيدة الاسلامية ، التى جاءت واضحة وضوح الشمس ، ولا خفاء فيها ولا التواء .

• وكان فى طليعة من اشتغلوا بعلم التوحيد ، ومباحثه جماعة المعتزلة التى يرجع إليها الأصل فى وضع أسس هذا العلم ، والمعتزلة هم أتباع واصل ابن عطاء الذى كان تلميذاً لأستاذه الحسن البصرى[1] إمام عصره فى العلوم

---

(١) أسس الحسن البصرى رضى الله عنه مدرسته الكبرى فى البصرة لنشر العلوم الدينية ، ولمقاومة الدعاة أصحاب الألسن والجاه الذين اندسوا بين صفوف المسلمين يدعون إلى شتيت من النحل والمذاهب ، واتخذ هؤلاء الدعاة من المساجد منابر لينفثوا فيها سمومهم ، وقد جزع =

الدينية ، وكانت له حلقة علم فى أحد مساجد البصرة يجتمع إليه فيها طلاب العلم ، وكان ذلك فى بداية القرن الثانى للهجرة ، وقد دب الخلاف فى الرأى بين واصل وأستاذه فى مسألة الحكم على قتلة عثمان، هل هم مؤمنون أم كفار؟ وقد كان رأى واصل أنهم ليسوا كفارا وليسوا مؤمنين : « وأنهم بمنزلة بين المنزلتين ، ويظهر أن هذا الرأى لم يقره عليه أستاذه البصرى ، فانفصل واصل وانعزل عن حلقته ، واتخذ لنفسه حلقة أخرى فى ناحيـة بالمسجد ، واجتمع عليه فيها مؤيدوه فى رأيه وتفـكيره ، فقال أستاذه الحسن البصرى لقد اعتزل عنا واصل ، ومن أجل ذلك سمى واصل ومن معه بالمعتزلة .

● وقد اتسعت حلقة واصل وعظم شأنها ، واتخذت لنفسها طابعاً جديداً من التخصص فى الفهم والدرس وتحـكيم العقل ،حتى صار لجماعة المعتزلة شخصية علمية ممتازة ، ووصلوا إلى وضع نظريات دقيقة وأفـكار عميقة فى علم التوحيد جعلت له مقدمات ونتائج لأهداف محددة ، وكان لمدرسة واصل الفـكرية شعار تمثله الـكلمات الخمس الآتية :

« التوحيد — العدل — الوعد والوعيد — المنزلة بين المنزلتين — الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر » .

فـكل من انضم إلى حلقة واصل كان عليه أن يؤمن بهذا الشعار ، ويسير على منهجه فى الدرس والبحث والاستقصاء .

● وكان من بين المعتزلة البارزين الشيخ أبو الحسن الأشعرى الذى رأى أخيراً أن يعتزل زملاءه المعتزلة ، ويسلك مسلكا وسطاً بين مذهبهم

= على كرم الله وجهه لهذا الأمر فطاف بالمساجد ، وأخذ يخرجهم ويقض حلقاتهم ، ويقول هذا بدعة ، هـذا منـكر ، حتى انتهى إلى حلقة الحسن البصرى ، فرأى شابا حسن القول جميل اللحن فاستمع إليه ، فأعجبه قوله ، فسأله عن شيئين ، فقال أخبرنى : ما صلاح هذا الدين وما فسـاده ؟ فقال : صلاحه ، الورع وفساده الطمع ، وقال : صدقت فمثلك يصلح أن يتـكلم مع الناس .

ومذهب أهـــل السنة ، وذلك لأنه حدث ذات مرة أن سأل أبو الحسن الأشعرى أستاذه الجبائى :

« ماذا تقول فى ثلاثة إخوة ، مات أحدهم مطيعاً ، والآخر عاصياً ، والثالث صغيراً ؟ فقال : الأول يثاب ، والثانى يعاقب والثالث لا يثاب ولا يعاقب ، فقال الأشعرى : فإن قال الثالث : يارب ! أمتنى صغيراً ، وما أبقيتنى إلى أن أكبر ، فأومن بك وأطيعك فأدخل الجنة ؟ فقال الجبائى : يقول الرب إنى كنت أعلم أنك لو كبرت لعصيت فدخلت النار ، فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً ، قال الأشعرى : فإن قال الثانى لم لم تمتنى صغيراً لئلا أعصى فلا أدخل النار ؟ فماذا يقول الرب ؟ فبهت الجبائى ، وترك الأشعرى مذهبه ، واشتغل هو ومن تبعه بإبطال بعض آراء المعتزلة وإثبات ما وردت به السنة ، ومضى عليه الجمـــاعة ، وعرف هو وأتباعه باسم الأشاعرة ، ومذهبهم وسط بين السنة والمعتزلة » .

● وقد ظهرت فى تلك الفترة حركة فكرية واسعة النطاق يتزعمها علماء وأتباع ، تفرغوا للبحث والدرس ووضع الأسس لنظريات أومذاهب جديدة ، وكان من نتيجة ذلك كله أن ظهرت فى العالم الإسلامى ثلاثة مذاهب مختلفة فى تفكيرها واتجاهها وهى مذهب أهل السنة ، ومذهب المعتزلة ، ومذهب الأشاعرة ، أما أهل السنة والسلف الصالح فإنهم يؤمنون بكل ما جاء به الإسلام فى الكتاب والسنة إيماناً لا يشوبه أدنى نقاش أو بحث فيما جاء به ، ولذلك فهم لا يتعرضون لعلم الكلام ولا يخوضون فيه ، لأنهم وقفوا عند النصوص ، وحجتهم فى ذلك قوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا » .

● وأما المعتزلة فكان رائدهم تحكيم العقل فى كل بحث يتناولونه ، والاستدلال بالنصوص من الكتاب والسنة ، وإقامة الدليل العقلى على

صحة ما يذهبون إليه ، ولا مانع من تأويل الآيات التى تعارض فكرتهم ، وكانت نظريتهم فى توحيد الله فى غاية السمو والرفعة ، لأنهم استطاعوا أن يظهروا تعاليم الإسلام بحقائقها الواضحة وأصولها الثابتة التى تقوى على رد حملات الخصوم ، وتدرأ عنها الشبهات ، وقد نظروا إلى طبيعة الإنسان نظرة سليمة ، فلم ينزلوه منزلة الآلة الصماء العمياء بل جعلوه مسئولا عن أعماله وتفكيره ، فلم يعطلوا شيئاً من المواهب التى وهبه الله إياها ، تحت فكرة الجبر التى كثيراً ما حدّت من نشاط الناس ، وأوقفتهم مواقف الجمود والخنوع والتواكل .

• وأما الأشاعرة فكانوا أصلا على طريقة المعتزلة فى البحث والتفكير والجدل والمناقشة ؛ ولكنهم تمسكوا بالاستشهاد بالآيات والسنة وأقوال الصحابة من غير تأويل ، واستعملوا القياس وسيلة لتأييد آرائهم مع محاولة التوفيق بين آراء المعتزلة ومذهب أهل السنة وهم السلف الصالح ؛ وهم بذلك أصحاب الحلول الوسطى ؛ وكان مذهبهم قائماً على العقل والنقل معاً ، وهو اتجاه يلائم الخاصة والعامة على السواء ؛ وقد قدر لتعاليمهم أن تبقى حية إلى يومنا هذا لاعتدالها واتزانها .

• ولكى نوضح مذهب كل فريق من هؤلاء ، لإظهار الفروق بينهم فى الرأى ، نستعرض بإيجاز ثلاثة من موضوعات البحث التى تناولوها ، وبيان موقف كل فريق منها ، وهذه الموضوعات هى : (١) صفات الله (٢) مشكلة خلق القرآن (٣) المنزلة بين المنزلتين . وذلك لكى نلم بعض الإلمام بشىء من طرق التفكير فى المسائل التى بحثوها بتوسع واستفاضة .

صفات الله ورأى السلف فيها :

• عُرِف السلف الصالح ، وهم أهل السنة أنهم صفاتية ، أى أنهم أثبتوا لله تعالى صفات أزلية ، وكانوا لا يفرقون بين صفات الذات وصفات

الفعل. وكذلك أثبتوا صفات جبرية ، كما أثبتها سبحانه لنفسه ، مثل الوجه واليدين والرجلين والجنب ، ومنهم من أولها بمعان أخرى غير المفهوم لنا من مدلول الألفاظ ، ومنهم من لم يؤولها ، وقد قال أنس بن مالك وهو من السلف فى تفسير قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ، وكان رأيهم ترك الخوض فى ذات الله وحقيقتها ، والعمل بقول القائلين: « فكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » لأن العقل البشرى مهما كبر واكتمل واتسع تفكيره وخياله فهو أضعف وأضأل من أن يدرك ذات الله سبحانه وتعالى ، أو أن يحيط علما بصفاته .

● أما المعتزلة فيقولون إن ذات الله وصفاته وحدة لا تقبل التجزئة. ولا يلحقها تغير ، وليست صفات الله كالعلم والقدرة والحياة والإرادة إلا ذات الله نفسها ، لأنها لا تثبت شيئاً زائداً على الذات أو منفصلا عنها ، فصفات الله عندهم قائمة بذاته ، ويقول الأشاعرة فى ذلك : أنه لا معنى لصفة عالم إلا أنه حقيقة ذو علم ، ولا لصفة قادر إلا أنه ذو قدرة ، ولا لصفة مريد إلا أنه ذو إرادة ، فهذه صفات أزلية بذات الله ، وليست هى عين الذات ولا غيرها .

مشكلة خلق القرآن :

● يقول السلف الصالح : إن الكلام فى أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق بدعة . فلا يصح أن يقال إنه مخلوق ، ولا أنه غير مخلوق ، لأن الكلام فيها يؤدى إلى الخوض فى أمور لم يتعرض لها الرسول ولا صحابته ، فالإيمان بالقرآن واجب والسؤال عن خلقه بدعة .

● ويقول المعتزلة أن القرآن مركب من آيات ؛ وكل مركب محدث ، وفى القرآن آيات منسوخة أى ملغى حكمها ، ولا يكون النسخ إلا فى المحدث ، وإذن فالقرآن مخلوق ، وليس قديما .

• ويقول الأشاعرة إن كلام الله لفظ يطلق على معنيين : الكلام المنطوق، والكلام النفسى، وكلام الله إذا قصد به المعنى القائم بنفس الذات فهو أزلى قديم لا يتغير ، وهذا الكلام النفسى ليس بحروف ولا صوت ، أما كلام الله أى القرآن المقروء المكتوب الذى يقرأ بصوت وحرف فمخلوق محدث ، وهكذا استطاع الأشاعرة التوفيق بين المعتزلة وأهل السنة .

المنزلة بين المنزلتين :

• وهى من المسائل الأولى التى كانت سبباً فى انعزال طائفة المعتزلين عن أهل السنة والسلف ، فالمعتزلة يقولون إن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً، وليس كافراً بل هو فى منزلة بين المنزلتين أى فاسق ، لأنه لم يستجمع صفات الإيمان فيكون مؤمناً كامل الإيمان ، ولم ينكر الشهادة بالله ورسوله فهو ليس بكافر ، وقد يرجع إلى الله تائبا ، ويقبل الله توبته .

• وأما أهل السنة فيقولون إن الله يفعل ما يشاء ، ولا يستطيع العبد أن يعرف حقيقة إيمانه ، ومرتكب الكبيرة أمره إلى الله إن شاء له الإيمان كان مؤمناً ، وإن شاء له الكفر كان كافراً ، وإن شاء له الفسق كان فاسقاً ، ومصيره فى النهاية إلى الله ، حيث يكون الأمر كله إليه تعالى .

• وأما الأشاعرة فيقولون إن مرتكب الكبيرة عندما يخرج من الدنيا يكون حكمه إلى الله تعالى ، إما أن يغفر له برحمته ، وإما أن يشفع له النبى لقوله صلى الله عليه وسلم : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» وإما أن يعذبه بمقدار جرمه ، ثم يدخل الجنة برحمته ، ولا يجوز أن يخلد فى النار مع الكفار كما يقول المعتزلة ، لأن هناك نصوصاً تقول بأنه لا يخلد فى النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان بالله سبحانه وتعالى .

علم التوحيد وتعريفه وأهدافه

• التوحيد لغة هو الإعلام بأن الشيء واحد ، وشرعا هو ما جاء به كل نبي من لدن آدم إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من عقائد دينية أساسها ومدارها إفراد الله وحده بالألوهية والعبادة والتصديق بوحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، وسمى أيضا علم الكلام ، لأن المتقدمين كانوا يقولون عند إيراد مباحثه عبارة « الكلام فى كذا » أو لأن النقاش والكلام كان يكثر فى أغلب مسائله ، أو لأن أشهر مسائله التى وقع فيها الخلاف هى عن كلام الله ، هل هو قديم أو مخلوق ، أو لأنه فن الكلام ، وهو ما يرادف فن المنطق ، وواضع هذا العلم أبو الحسن الأشعرى وأبو موسى الماتريدى ، فقد كانا أول من دونا كتبا للرد على الشبه التى أوردها المعتزلة .

• وقد عرّف ابن خلدون علم الكلام بقوله : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة والمنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ، وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد » .

وقال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى تعريف علم التوحيد : « أنه علم يبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب لهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم » .

• والغرض من هذا العلم البحث فى أمر العقيدة المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته ورسله وصفاتهم واليوم الآخر ، وتقرير ما يجب منها وما يستحيل وما يجوز وإثبات ذلك بالبراهين والأدلة التى تطمئن لها القلوب ، ونجد فيها الإقناع الذى تسلم به العقول ، وقد صار علم التوحيد علما شرعيا قال بعض

المتكلمين : الأصول معرفة البارى سبحانه وتعالى بوحدانيته وصفاته ، ومعرفة الرسل بآياتهم وبيناتهم ، وبالجملة كل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهى من الأصول ، ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسما إلى معرفة وطاعة وأن المعرفة أصل ، والطاعة فرع ، فالأصول هى موضوع علم الكلام ، والفروع هى موضوع علم الفقه .

● ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى كتابه رسالة التوحيد :
« إن الغاية من هذا العلم معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس ، اعتماداً على الدليل ، لا استرسالا مع التقليد ، حسبما أرشدنا إليه الكتاب ، فقد أمرنا بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه ، تحصيلا لليقين بما هدانا إليه ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم .

● وقد أشار القرآن الكريم فى عدة آيات إلى كلمة التوحيد أو كلمة الاخلاص فى قوله تعالى :

« وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا » (التوبة ٤٠) ، والمقصود بكلمة الكفار هى الشرك ، وكلمة الله هى التوحيد .

وقوله تعالى « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » (إبراهيم ٢٤) وهذه الكلمة الطيبة هى كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وقد تفسر على أنها كلمة الخير والسلام .

وقوله تعالى « وجعلها كلمة باقية فى عقبه » وهذه الكلمة الباقية هى كلمة التوحيد فى ذرية إبراهيم عليه السلام .

وقوله تعالى : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها » وكلمة التقوى المراد بها كلمة التوحيد والشهادة بالوحدانية .

● وقد جاءت سورة الإخلاص مفسرة لكلمة التوحيد وموضحة لمقاصدها ، وقد نزلت لما قالت قريش يا محمد صف لنا ربك الذى تدعونا إلى توحيده بكلمة الشهادة ، هل هو من ذهب أو من فضة ؟ كما نزلت رداً على مشركى العرب وعلى النصارى واليهود ، وأبطلت مذهب المانوية القائلين بالنور والظلمة ، وعلى النصارى القائلين بالتثليث ، وأبطلت مذهب الصائبة الذين يعبدون النجوم والكواكب ، وردت على مشركى العرب الذين زعموا أن غير الله يقصد عند الحوائج ، وأن له شريكا فى ملكه سبحانه ، بل هو إله واحد ، وجاء فى هذه السورة قوله تعالى : « قل هو الله أحد » أى واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله « الله الصمد » أى هو المقصود وحده فى قضاء الحوائج « لم يلد ولم يولد » وهذا تنزيه لله من أن يكون مولوداً ، ولا والداً بأن يكون له بنات أى أولاد كما زعم المشركون « ولم يكن له كفواً أحد » أى أنه لا نظير ولا مثيل ولا ند ولا شريك له على الإطلاق .

● والشهادة بمعنى الاقرار بوحدانية الله هى أول ركن من أركان الاسلام ، وهى عقيدته التى لا يصح إسلام بدونها ، وينطوى منطوق هذه الشهادة على ما تعبد الله به المسلمين فى قول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولن يكون لهذه الشهادة المزدوجة أثر فى كياننا الدينى ، ولا تأثير فى حياتنا الروحية والتعبدية إلا إذا تحققنا وصدقنا ما تدور عليه هذه الشهادة من المعانى والأصول وعرفنا أن كلمة الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات وجود الله ، وإثبات ذاته وصفاته وأفعاله ، وإثبات صدق الرسالة ، وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » أن بناء الايمان يقوم على أربعة أركان ، ولكل ركن منها عشرة أصول ، وهذه هى :

الركن الأول : فى معرفة ذات الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول وهى :

العلم بوجود الله تعالى ، وقدمه وبقائه ، وأنه ليس بجوهر ، ولا جسم

ولا عرض ، وأنه ليس مختصاً بجهة ، ولا مستقراً فى مكان، وأنه يرى ، وأنه واحد .

الركن الثانى : فى صفاته تعالى ، ويشتمل على عشرة أصول وهى :

العلم بكونه حياً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلما ، منزها عن حلول الحوادث ، وأنه قديم الكلام والعلم والارادة .

الركن الثالث : فى أفعاله تعالى ، ومداره على عشرة أصول هى :

أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأنها مكتسبة للعباد ، وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق والاختراع ، وأن له تعالى تكليف ما لا يطاق، وأن له إيلام البرىء ، ولا يجب عليه رعاية الأصلح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع ، وأن بعثة الأنبياء جائزة ، وأن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة ومؤيدة بالمعجزات .

الركن الرابع : فى السمعيات ، ومداره على عشرة أصول هى :

إثبات الحشر والنشر ، وسؤال منكر ونكير ، وعذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، وخلق الجنة والنار ، وأحكام الامامة ، وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم ، وشروط الامامة .

لكل من هذه الأركان والأصول شروح سنأتى عليها فى باب التوحيد من هذا الكتاب إن شاء الله .

مباحث علم التوحيد

● يبحث علم التوحيد[١] فى إثبات وجود الله ، وما يجب أن يتصف به سبحانه وتعالى ، وما يستحيل فى حقه تعالى ، وما يجوز ، وكذلك يبحث هذا العلم فى إثبات رسالة الرسل ، وما يجب أن يثبت فى حقهم ، وما يستحيل عليهم وما يجوز فى حقهم عليهم الصلاة والسلام .

● ومما لا شك فيه أن الناس بعد أن رأوا بالحواس ما حواهم من كائنات ومخلوقات وموجودات أصبحت كلها معلومة لهم عن طريق العقل الذى هو رائدهم ومرشدهم فى معرفتها ، وهذا العقل له أحكامه المستمدة من فطرته السليمة ، وهو الفيصل فى كل قضايا الفكر ، والعقول المتزنة تحكم بأن كل معلوم لا يخرج عن أحد من الأمور الثلاثة الآتية :

١ — واجب لذاته وهو ما لا يتصور العقل عدمه ، وهذا الواجب له فى نظر العقل نوعان :

(ا) ضرورى مثل شغل الجسم لحيز من الفراغ ، إذ لا يمكن أن يتصور وجود جسم بغير فراغ يملؤه ، أو زوجية الرقم أربعة ، فلا يمكن أن يتصور العقل أنه فردى . أو أن الجزء أصغر من الكل ، فهذا ما لا يمكن أن ينكره العقل .

(ب) نظرى مثل صفات الله الواجبة له تعالى فهى من الواجبات لذاته ولا يمكن أن يتصور العقل عدم اتصافه بها .

٢ — مستحيل لذاته : وهو ما لا يتصور العقل ثبوته ، وهو أيضاً نوعان :

(ا) ضرورى مثل عدم تحيز المادة ، وأخذها قدراً من الفراغ .

---

(١) سمى علم التوحيد بهذا الاسم نسبة لأهم أجزائه وهو إثبات الوحدة لله تعالى فى الذات والأسماء والصفات .

أو اجتماع النقيضين معا ، مثل اجتماع السالب والموجب ، والحياة والموت أو القدرة والعجز ، أو أن الثلاثة نصف العشرة .

(ب) نظرى مثل أضداد صفات الله ، فهى مستحيلة على الله تعالى .

٣ — الممكن أو الجائز : وهو ما يصح فى العقل وجوده أو عدمه ، مثل وجود أى كائن متى وجد سبب وجوده ، كما يمكن تصور عدم وجوده إذا زال السبب .

● والممكن يوجد بعد عدم ، ويعدم بعد وجود فهو متغير ، وكل ما كان كذلك فهو حادث ، والممكن لا يوجد نفسه ، بل إنه محتاج إلى موجد يكسبه الوجود ، ولا يمكن أن يكون المستحيل هو موجده ، لأن العدم من لوازمه ، والعدم لا يكسب غيره الوجود ، ولا يبقى لدينا من أقسام الحكم العقلى ما يعطى الممكن وجوه سوى واجب الوجود لذاته ، والموجود بالضرورة بغير سبب ولا مسبب ولا يتوقف استمرار وجوده على استمرار وجود سبب من الأسباب ، وواجب الوجود أو الوجوب هو الله سبحانه وتعالى جل جلاله ، تبارك الله أحسن الخالقين .

ذات الله وصفاته

● يقوم الدين الإسلامى على أساسين هما : العقيدة ، والعمل .

أما العقيدة ، فهى الإيمان بذات الله وصفاته ، والاعتقاد برسله وصفاتهم ، وتقرير ما يجب من هذه الصفات وما يستحيل وما يجوز ، وإثبات ذلك بالبراهين التى تقبلها الفطرة السليمة ، لكى يعبد الإنسان ربه عبادة صحيحة ، ويفهم قدر أنبيائه ورسله فيحترمهم ، ويهتدى بهديهم الموصل لسعادة الدارين ، ويبحث فى ذلك علم التوحيد .

وأما العمل فهو القيام بجميع العبادات التى كلفنا بها المشرع ، وما لها من أركان وأحكام وشروط ، فيبحث فى ذلك علم الفقه .

• ويجب فى حق الله تعالى من صفات الكمال : الوجود ، والقدم ، والبقاء والمخالفة للحوادث وقيامه تعالى بنفسه ، والوحدانية ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ولكل صفة من هذه الصفات دلائل قاطعة على ثبوتها ووجوبها .

• ويستحيل على الله سبحانه وتعالى أى نقص من النقائص ، وأى صفة من صفات الحوادث (المخلوقات) ، وأى أمر يقع فى دائرة الخواطر البشرية لأنها كلها محدودة قاصرة ، وهو تعالى يجب له الكمال المطلق الخارج عن حدود الإدراك البشرى ، كما يستحيل عليه سبحانه وتعالى أضداد الصفات الواجبة له .

• ويجوز فى حقه تعالى فعل الممكنات وتركها ، لأنه مختار بيده الملك ومقاليد السموات والأرض يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، فيجوز أن يعذب أو يرحم وأن يبسط الرزق أو يقدره .

صفات الكمال الله تعالى

• نبدأ بصفات الكمال ، وأولها الوجود(١) ، فنؤكد أن الله تعالى واجب الوجود ، والنصوص القرآنية على ذلك كثيرة منها قوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » وقوله تعالى : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » وقوله « أم خلقوا من غير شىء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون » فهذه الآيات تقرر أن الله

(١) لقد فقد الغرب إيمانه بالروحانيات ، وأنكر مثلها العليا نتيجة لإنهماكه فى الماديات والأمور الملموسة فى حياتنا الدنيا ، ونشأ عن ذلك نزعات إلحادية تمارى فى وجود الله ، وتدعو إلى الشك والتشكيك فى حقيقته ، حتى أن بعض الكتاب تجرءوا على القول بأن الأديان مخدرات ومسكنات جاء بها الحكماء لتخفيف ما يقاسيه الفقراء والبائسون والمحرومون من نعم الحياة .

سبحانه خلقنا من العدم ، ثم هو أيضاً يبعثنا بعد الموت ، ولا شك أن من يفعل ذلك لابد أن يكون موجوداً ، لأن المعدوم لا يقدر على إيجاد شيء . وقوله تعالى : « ادعونى أستجب لكم » فإنه لا ينادى ولا يجيب إلا الموجود حقا وصدقا .

● وهناك أدلة عقلية تثبت وجود الله : منها أن العالم حادث أى مخلوق ، وكل حادث يجب أن يكون له موجد إذ لا يعقل أن يخلق الشيء نفسه بنفسه ، فيكون خالقاً ومخلوقا فى وقت واحد ، كما لا يمكن تصور الشيء الواحد موجودا ومعدوماً فى وقت واحد ، وقد أرشدنا سبحانه وتعالى إلى طريق معرفة وجوده بأن نتأمل فى هذا الكون . وفيما اشتمل عليه من بدائع المصنوعات ، وروائع المخلوقات ، وأن نمعن النظر فيما أوجده فى الآفاق والأنفس من الآيات البينات ، إذ أن بداهة العقل تقضى بأن كل صنعة لابد لها من صانع ، وكل موجود لابد له من موجد . وقد سئل أعرابى كيف عرفت ربك ؟ فأجاب إجابة البداهة والفطرة السليمة ، العبرة تدل على التعبير ، والسير يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وسبل ذات فجاج ، ألا تدل على العليم الخبير ؟ نعم إنه منطق الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وجعلها من بديهيات والفهم الإدراك .

● سئل الامام الشافعى رضى الله عنه : ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال لسائله هذه الورقة التى فى يدك ، وكانت فى يده ورقة من أوراق التوت . فقال السائل : وكيف ؟ قال الشافعى : إن طعمها واحد ، ولونها واحد ، وريحها واحد ، أليس كذلك ؟ قال : نعم ، قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الحرير ، وتأكلها النحلة فيخرج منها العسل ، وتأكلها الشاة فيخرج منها البعر ، وتأكلها الظبية فينعقد فى نوافجها المسك ، فمن الذى جعلها كذلك مع أن الطبع واحد ؟

● وقد لا يقنع هذا الكلام بعض المنكرين ، فأسوق إليك مثلا آخر

للتدليل على أن فى ذات نفسك الدليل على ذلك ، وأنت لا تشعر بإقرارك به.
هب أنك ذهبت إلى معرض من معارض العلوم الحديثة التى تقدم للناس آخر المبتكرات التى وصل إليها العقل البشرى ، ورأيت هناك أنموذجاً لإنسان ميكانيكى يتحرك ويكتب ويقرأ ويحسب ويتكلم ويسمع ويطيع الأمر بعقل ألكترونى ، فقل لى بربك ما هو إحساسك وشعورك أمام مشهده ؟ وما هى الخواطر التى تتوارد عليك ؟ أما تقول فى نفسك وأنت فى غاية الدهشة والاعجاب :

وما أكبر هذا العقل الذى صممه ؟

وما أعجب هذا الفكر الذى دبره وقدّره ؟

وما أدهش هذه اليد التى صنعته وأتقنته ؟

أما تقول إنها إحدى العجائب التى لا تصدر إلا عن عقل مفكر وصانع ماهر ؟

إنك تقف مشدوهاً مبهوراً من أنموذج أخرجه العقل البشرى على نمط رآه ثم قلده ؟ وتقف مأخوذاً مسحوراً أمام صنعة متقنة من مادة صماء ، هى بالنسبة لحقيقة تكوين جسم الانسان لعبة لاعب ، وأن مثار دهشتك هو ذلك الصانع الماهر الذى أدهشك وجعلك تذعن له بالنبوغ والعبقرية ، ثم إنك لا تشك مطلقاً أن هذا الأنموذج العجيب لا يمكن أن يوجد نفسه بنفسه ، ثم هلا فكرت وأنت ترى هذا الاتقان فى الصنع والاجادة فى الاخراج ، إنه ينقص هذا الأنموذج شيء آخر فيه كل الاعجاز ، ذلك الشيء الذى لن يصل إليه الانسان مهما فكر وأبدع ألا وهو الروح ، ولو قيل لك إن هذا الأنموذج وجد بغير صانع صنعه ولا موجد أوجده ، فهل كنت تصدق ؟ أم كنت مكذباً لذلك أشد التكذيب ؟ ومنكراً أشد الانكار ؟ وتقول : كيف توجد هذه الأعجوبة من الأعاجيب اعتباطاً وخبط عشواء ؟

إن ذلك لا يعقل أبدا ، ويستحيل وجودها بغير مخترع اخترع ، وصانع صنع! فما بالك أيها المتعجب من أنموذج مادى محدود الصنع ، لا تفكر فيما حولك من هذا الكون العجيب الذى لا يمكن للعقل أن يعرف مداه وحدوده ولا يدرك حقائق مخلوقاته ، ولا يحيط علماً بكائناته ، أما فكرت فى عظمة خالقه وقدرة مبدعه ؟ أما قلت فى نفسك لولا وجوده لما وجد هذا الوجود؟ ولولا علمه الواسع وحكمته البالغة لما وجد هذا النظام البديع الذى تحار فيه العقول ، وتضل فيه الأفهام .

● وإن تعجب فعجب من عقلية هؤلاء المتعلمين أدعياء المعرفة الذين ينكرون وجود الله ، ويحسبون أنهم أصحاب حرية فى الفكر والرأى ، والحقيقة أنهم فى ذلك مقلدون لدعاة الإلحاد والزندقة ، والمأجورين على إفساد العقائد ، فهناك لسوء الحظ جماعة من ضعاف الايمان الذين لا أخلاق لهم يتملكهم الغرور ، ويظنون أن الخروج على الفطرة ، والتبجح فى مخالفة الرأى العام الصحيح ، من الأعمال التى تلفت إليهم الأنظار ، وقد أعمتهم الغواية عن السير فى الطريق المستقيم ، طلباً للشهرة الباطلة والسمعة الكاذبة ، ولو أنك ناقشت واحداً منهم مناقشة سطحية فى الأمور البديهية لأفحمته ، ولأقر بالخطأ والعجز .

● سل من شئت من الملحدين المنكرين لوجود الله تعالى :

من الذى أوجدك فى صورتك الانسانية فى أحسن تقويم ؟

من الذى وهبك العقل والادراك الذى تناقش به وتجادل ؟

من الذى يهيء لك أسباب الرزق .

من الذى تدعوه إذا مرضت ؟

من الذى يميتك بعد حياة ؟

هل تستطيع دفع الموت عنك إذا جاء أجلك ؟

• إن الأسئلة كثيرة ، فبماذا يجيب هؤلاء الملحدون عليها ،اسمع بعض ما يقال فعلا لا تصورا ولا فرضا :

إن الذى أوجدنا هو الطبيعة .

إن الذى يهلكنا هو الدهر .

وما الحياة والموت إلا أرحام تدفع وأرض تبلع .

وهذا هو مبلغهم من العلم ، ومبلغ ما وصل إليه اجتهادهم فى الفهم !

ولنا بعد ذلك أن نسألهم ، ما المقصود بكلمتى الطبيعة والدهر ؟

هل المقصود أنهما قوتان مدبرتان متلازمتان وموجودتان للخلق والإفناء ؟

هل هما كائنات لها إدراك وقدرة على صنع هذه الأكوان وإحكامها ؟

وما كنه هذه الطبيعة ، وما حقيقة هذا الدهر ؟ نريد إيضاحاً منكم إن كان عندكم منطق يقدر على الإفصاح والإيضاح .

وما أظن أنكم تفسرونها بأكثر مما يفسر عامة الناس الماء بعد الجهد بالماء .

• فإذا كنتم تؤمنون بأن هناك طبيعة تخلق وأن هناك دهراً يعمل هذه الأعمال . وأنه لا يمكن حدوثها إلا بهما ، فقد أقررتم بالحقيقة الكبرى. من حيث لا تشعرون وهى وجود قوة خالقة بيدها الحياة والموت ، ولم يبق بعد ذلك إلا الاختلاف على تسميتها ، فأنتم تقولون الطبيعة والدهر ، والدين يقول إنه الله جل جلاله ، صاحب هذه القوة والقدرة على الخلق والإبداع، فلم لا تقولونها واضحة صريحة لتؤمنوا بالله ربكم ؟

• وهناك من الأدلة النفسية والروحية على وجود الله ، ما لا ينكره إلا ظالم لنفسه ، ينكر نور الشمس من رمد ، وينكر طعم الماء من سقم .

ودعنى أسألك أسئلة أخرى أيها المنكر لوجود الله ، بل أيها المنكر لوجود عقلك ، قل لى بربك :

هل ضاق صدرك يوماً بأمور أهمتك وأقلقتك ؟

هل حزنت يوماً حزناً شديداً على فقيد لك ؟

هل أصابتك يوماً مصيبة عجز عن احتمالها جلدك ؟

هل حلت بك يوماً الأمراض والسقام ، واشتدت عليك الآلام ؟

هل أفلست يوماً ، وخوى جيبك ، وقعدت حيران لا تدرى ماذا تفعل ؟

هل لقيت يوماً طاغية مستبداً ظلمك وأهانك إهانة شديدة لم تستطع لها رداً ؟

• قل لى كيف كنت فى أى موقف من هذه المواقف الحزينة المؤلمة ؟ كيف كانت حالتك النفسية ؟ وفيمن كنت تفكر وقتئذ ؟ ما أشك أبداً أن أول ما ورد على قلبك هو الالتجاء إلى منجد يخلصك من هذه المصائب والعلل والآلام ، ومعين ينقذك من الشدائد والأهوال ، وما أشك أيضاً أن فكرك اتجه إلى قوة خفية تقدر على إنقاذك وتخليصك ، ولا يقدر على ذلك طبعاً إلا الله سبحانه وتعالى ، إنى واثق من أنك قلت من حيث لا تشعر: « يا رب ! ، إنك تعلم ما أنا فيه من ضر » ، وإنى واثق أنك ناديت بلسان الحال نداء خفياً لا شعورياً : « يا إلهى ! لقد مسنى الألم ، وأنت أرحم الراحمين » فهناك فى ساعات الحرج والضيق فقط تأتيك الحقيقة الكبرى مهما أنكرتها وأخفيتها تمردا وعنادا ، أو جهلا وتقليدا وهى إيمان الروح التى هى من أمر ربك ، لأنها الصلة الوثيقة التى تربطك بخالقك ، ومدبر أمرك العليم بأحوالك ، نعم إنها القوة الروحية الممتزجة بمادتك وفطرتك وتلك هى موطن الإيمان .

● هل تريد أيها المنكر لوجود الله دلائل تنزل عليك من السماء كما كان يقول الكافرون من قبل : إننا نريد أن نرى الله والملائكة قبيلا أو جهرة ، وهذا طبعاً ما لاسبيل إليه أبدا ، لأن إدراك الله عن طريق حواسنا أمر مستحيل ، لأنها أعجز وأضعف من أن تبلغ ذلك ، أو تقدر عليه ، وقد قال الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام لما طلب رؤيته : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال ربى أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » (الأعراف١٤٣) .

● وقد قيل إن إدراك الذات الإلهية هو العجز عن إدراكها ، هذا ورؤيته تعالى فى الفردوس هى النعيم الأكبر لأحبابه وأوليائه بدليل قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » وطبيعة الرؤية غير معلومة الكيفية ، وأما الكفار أعداء الله فقد قال الله فى وصفهم « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

● تنطق الشواهد الكونية والبراهين الواقعية والمنطقية بأنه ليس مع الله إله آخر ، وإذا كان هناك إله آخر كما يزعم الزاعمون فلم لم يحاول الاتصال بالناس لإثبات وجوده ؟ وإلا فما الذى يسكته عن إظهار حقيقته ؟ وجميع الرسل قاطبة أرسلهم إله واحد ولم يتصل بهم غيره ، وهو الذى يقول فى كتابه الكريم : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » وإذا فرضنا جدلا أن هناك إلها آخر ، فما هو موقفه وما هى منزلته من شريكه فى الألوهية ؟ فإن قلنا أنه أعلى منه فهو أحق بالألوهية. وإن قلنا إنه أدنى منزلة منه فلا يستحق أن يكون إلهاً ، وإن قلنا إنه مثله فما هى الفوارق بين عمليهما واختصاصهما ، وكيف ينتظم الأمر بوجود إرادتين مختلفتين ، وجميع القرائن تدل على أن سنن الكون موحدة

لا تبديل فيها ولا تناقض منذ خلقها الله . ويبين القرآن لنا حقيقة الأمر في قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » وقوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .

وحدة الوجود

● وجود الله سبحانه وتعالى ذاتي ، أي أن الغير ليس مؤثراً في وجوده ، ولم تؤثر الذات الإلهية في نفسها بالإيجاد ، ووجوده تعالى قائم لذاته لا لعلة ولا لسبب .

أما جميع الموجودات من الكائنات والمخلوقات في الأكوان فإن وجودها غير ذاتي ، لأن الله سبحانه وتعالى أوجدها بقدرته وإرادته فهي من صنعه وإبداعه .

● وبعض الناس لهم اعتقادات باطلة ، فمنهم من يرى أن كل شيء في هذا الوجود هو الله ، وأن عين هذا الوجود الحادث من الجماد والنبات والانسان والحيوان والهوام والحشرات كلها هو عين الله ، ويرون في زعمهم هذا أن الخالق هو عين المخلوق ، وهذه فكرة وثنية قامت على فلسفة خاطئة ؛ تقول بالاتحاد والحلول وفناء الجزء في الكل ، وما إلى ذلك من الضلال المبين .

● ومنهم من يظن أن الله روح ، وأن العالم جسم لذلك الروح ، وهو ظن كاذب مضلل ، ويروى أصحاب هذا الزعم أن الانسان إذا تخلص من شرور نفسه ، وتطهر سمت نفسه وارتفعت واتصلت بروح هذا العالم ، وصارت جزءاً في كيان جسم العالم الممثل لوحدة الوجود كما يتخيلون .

● ومنهم من يدعي أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها ، وأنه

لا وجود إلا لله وحده ، وكل شيء في رأيهم هو الله ، وأن الله هو كل شيء ، وهو يتجلى تجلياً حقيقياً في كل شيء بذاته ، وهذا كلام لا يقبله عقل سليم ، ولا يثبت أمام المنطق ، ولا يرضى عنه الشرع ، لأنه مبنى على فكرة تبطل الحدود بين الخالق والمخلوق ، وتبطل الجزاء والعقاب ، والمؤمن الصادق الايمان بالله ورسوله ، وبما جاء في الكتاب والسنة أبعد ما يكون عن هذه التصورات والأوهام .

• أما ما ينسب إلى الحلاج من قوله : « أنا الله » ؛ وما يروى عن بعض الصوفية من أنه قال : « ما في الجبة إلا الله » فإن هذه الأقوال وأمثالها لا تجوز شرعاً ، وإذا صح أنها صدرت عن رجال مشهود لهم بالصلاح فربما كانت من فلتات اللسان التي ينطق بها هؤلاء في حالات من أحوال النفس وانفعالاتها عندما تتملكها مواجيد شديدة من الشوق والهيام في محبة الله تعالى ، وانصراف الروح بكلياتها إلى الله ، والاستغراق في ذكره سبحانه وتعالى ، ولا يمكن أن تدل على اتحاد الإنسان بالله ، أو حلول ذات الله فيه ، فهذا محال قطعا ، وهو من الشطحات التي لا معنى لها .

• وإن إبليس نفسه ، وهو ملهم الشر والخبائث ، وداعية الشرك والإلحاد ، لا يجرؤ أن يقول مثل هذه الأقوال ، لما فيها من كذب محض وافتراء عظيم ، وإن من عباد الأوثان أنفسهم من لا يجرؤ أن يقول هذه الأقوال المنكرة ، وأن يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل إنهم قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ويقول محي الدين بن عربي . « أعلم أن الله سبحانه واحد بإجماع ، وقيام الواحد يتعالى عن أن يحل فيه شيء ، أو أن يتحد مع شيء » .

• ويقول أيضاً : يريد العارفون أن يفصلوه تعالى بالكلية عن العالم من شدة التنزيه فلا يقدرون ، ويريدون أن يجعلوه عين العالم من شدة القرب فلا يتحقق لهم ذلك ، فهم على الدوام متحيرون » وقال بعض العلماء

الذين شرحوا حالات القرب والبعد فى كلمات المتصوفين . « إنهم قوم أدناهم الحق بفضله إلى منطقة اللطف والفيض والالهام فتاهت أنفسهم فى هذا المقام لقربهم قربا أذهلهم ، وأعجز تعبيراتهم ، لأنها مواقف ، كما يقول الغزالى ، يضيق نطاق النطق بها ، وتلك الحيرة هى مقام العبودية ، حيال الألوهيـة المنفردة بالجـلال والعظمة التى تخشع حيالها القلوب ، وتحار العقول » .

● ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام فى كتابه (التصوف وفريد الدين العطار) : « ينبغى أن يفرق بين وحـدة الوجود التى رآها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود فى رأى الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمـادة وجود واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولـكن يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقاً ، وإنما الوجود الحق لله ، فليس هو العالم ، ولا العالم هو » .

والذى عليه الشرع وإجماع المسلمين هو أن يكون اعتقادنا أن هذه الأكوان من صنع الله ، أوجدها من العـــدم ، وجعلها خاضعة لسنته وأحكامه ، وأنه من الواجب المحتم علينا أن نخلص لله وحده فى كل فكرنا وعبادتنا ، وقد جاء فى كتاب « أولياء الله الصالحون » الذى سبقت الإشارة إليـه : « أن المسلمين فى طاعتهم لله وخضوعهم له ، ونزولهم على أمره واجتنابهم لنواهيه ، قلما يتجاوزون فى ذلك كله أداء الواجب ، والخروج من عهدة التـكليف ، أما كونهم يستشعرون فى نفوسهم المهابة والخشية والرهبة والخوف ، فإن هذا من الأمور التى لا تدور فى خيالهم ، ولا تخطر ببالهم ، والنبى ﷺ كان يقول : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وهو لا يقصد من القرب حقيقته المـكانية ، لأن الله لا يبعد عنا ، ولا يفارقنا ، ولا تفصل ما بيننا وبينه الأسوار والحدود ، والأبعاد والمسافات ، والأزمنة والأمكنة ، والأوهام والصور ، ولـكن المقصود من

هذا القرب معنى آخر ، وهو استجابة الدعاء وتحقيقه الرغبة ، وحد به على المسلم ورعايته له ، وعطفه عليه ، لأنه أسلم إليه وجهه ، وألقى إليه بقياده ، وصرف إليه جوارحه ، فإحساسه واشتغاله به وحده ، لم يكن لسواه ، وجدير بمن يقصد الكريم هذا القصد ، ويلتجىء إليه هذا الالتجاء ، ويتزلف منه هذه الزلفى ، ألا يخيب له قصد ، أو يتخلف له رجاء ، إلا أن تلك الحال إنما يتصورها على ما هى عليه من الاتصال اتصالا وثيق الارتباط ، متين الوشائج من يتصور الإخلاص لله إلى حـــد خلو الذهن إلا منه ، وانصراف القلب إلا عنه ، واحتباس النطق إلا بذكره ، وبذلك يكون قربه منه واستجابته له .

القـــدم

• وهى صفة واجبة لذاته بأنه موجود أزلا ، ولا أولية له لا بقدم وجودى زائد على ذاته ، بل هو أول كل شىء ، وإذا ما قلنا إن وجود الوجود يستلزم القـدم بل والبقاء فذكرهما محض تـكرار ، لأن علماء التوحيد لا يكتفون بدلالة الالتزام ، بل يصرحون بالعقائد بغير إيجاز ولا اختصار لشدة خطر الجهل بهـا ، فلا يستغنون بملزوم عن لازم ، ولا بعام عن خاص » .

• وقد قال تعالى : « هو الأول والآخر » وهذه دلالة صريحة على أنه تعالى قديم أزلى لا بداية ولا أول لوجوده ، وأنه باق سرمدى لا فناء له ، ولا آخر لوجوده ، وقال ﷺ : « كان الله ولم يكن شىء غيره » .

البقـــاء

• ومعناه عدم الآخرية للوجود ، لأنه سبحانه وتعالى باق ولا آخر لوجوده ، دائم لا يلحقه عدم ولا فناء ، ودليل البقاء أنه لو جاز عليه العدم، لاستحال عليه القدم ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : «كل شيء هالك إلا وجهه» أي إلا ذاته فإنها مستمرة البقاء دائمة الوجود ، وكذلك قوله تعالى : «كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» .

المخالفة للحوادث

• ومعناها أن ذاته مغايرة لكل حادث ، وهو كل ما سوى الله تعالى، إذ لا توجد ذات كذاته ، ولا صفة كصفته ، ولا فعـــل كفعله ، فصفة الإنسان بالرحمة غير صفته تعالى بها في حقيقتها ، فرحمة الإنسان محدودة وتنتهي مظاهرها وآثارها ، أما رحمة الله تعالى فعامة ودائمة ، ولا نهاية لها ، ولا حصر لآثارها ، ويقول الله تعالى تأييداً لهذه الصفة ، «ليس كمثله شيء» وقوله تعالى : «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» فقد نفى عن نفسه أن يكون والدا أو مولودا ، ولا كفء ، ولا شبيه ولا مثيل له ، ولا هو جوهر ولا جسم ولا عرض ، ولا يشغل حيزاً محدودا ، ولا جهة له ولا مكان ، وهو مع ذلك ملء السموات والأرض .

• وقد وردت في الكتاب الكريم كلمات عن الوجه واليدين والأعين والجنب والاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء ، والقرب من العباد، وكلها من وصف الله لذاته بأوصاف نعجز عن فهم كنهها ، فإنه سبحانه يسمع ولكن بغير آذان كآذاننا ، ويرى ولكن ليس ذلك بأعين كأعيننا ، وإذا قال إنه بنى السماء في ستة أيام فليس المقصود بناءها بالنظام المعروف لنا، ولا الأيام الستة هي من الأيام المألوفة لنا ، لأنه سبحانه مخالف للحوادث في كل ما يعرف عنه ، ولأنه من المستحيل إدراك حقيقة ذات الله ، وإذا كان

الانسان يعجز عن معرفة ما حوله من الماديات وأسرارها ، فكيف يمكنه أن يصل بذهنه المحدود إلى معرفة ما وراء الماديات من عالم الغيب ؟ وقد أول بعض المفسرين العبارات السابقة ، وقالوا إن الاستواء هو الاستيلاء ، والوجه هو الذات ، واليد القوة والقدرة إلخ . ويجب علينا أن نفكر فى خلق الله ، ولا نفكر فى ذاته ، فنى ذلك السلامة كل السلامة لإيماننا .

الوحدانية

● وهى وحدة الذات والصفات والأفعال لله تعالى وعدم وجود النظر فيها ، أما وحدة الذات فمعناها عدم التركيب من أجزاء ، وأنه ليس له شريك يعاونه أو يعاينه ، وأما وحدة الصفات فمعناها أنه ليس له صفتان من جنس واحد ، وليس لغيره صفة تشبهه ، وأما وحدة الأفعال فهو أنه سبحانه واحد فى أفعاله ، وليس لغيره أى فعل من الأفعال ، فهو وحده الفاعل لكل شىء ، والموجد لكل كائن والخالق لكل حادث .

● والدليل على وحدانيته أنه لو وجد إلهان فهما إما أن يتفقا ، وإما أن يختلفا فإن اتفقا فلا يجوز أن يوجد الكون معاً لئلا يلزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد ولا يجوز أن يوجده أحدهما أولا ، ثم يوجده الآخر بعد ذلك لئلا يلزم تحصيل الحاصل ، ولا يجوز أن يوجد أحدهما البعض ، ويوجد الآخر البعض الباقى ، فذلك دليل عجزهما لتعلق قدرة أحدهما على الآخر لإتمام العمل .

● وأما إذا اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم ، والآخر أراد إعدامه فلا يحتمل أن ينفذ مرادهما ، لئلا يجتمع الضدان . . . ولا يجوز أن ينفذ مراد أحدهما دون مراد الآخر ، للزوم عجز من لم ينفذ مراده ، ويقول الله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ومعنى الآية أنه لو تعددت الآلهة لم تتكون السموات والأرض ، لأن تكوينهما إما بمجموع القدرتين ،

أو بكل منهما أو بأحدهما ، وقد مر بنا ما يحدث بسبب ذلك من بطلان وفساد وعدم تكوين فى النهاية بسبب هذا التعدد ، والنتيجة الحتمية أنه لا إله إلا الله .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

القدرة

● إن الله سبحانه وتعالى قادر، وقدرته صفة أزلية واجبة وقائمة بذاته تعالى ، ويتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على مقتضى علمه وإرادته تعالى ، ومن ذلك إيجادنا بعد العدم ، وإعدامنا بعد الوجود ، وإيجادنا بعد الموت حين البعث ، ولا يكون هذا الإيجاد والإعدام إلا بسلطة وقدرة على الفعل؛ وقد وردت آيات تنطق بقدرته كقوله تعالى : « إن الله على كل شىء قدير » « إنه على ما يشاء قدير » « وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر » .

وقدرة الله لا نهاية لها ، وهى متعلقة بكل الممكنات ، أى أنه لا يوجد ممكن بغير قدرته .

● والذى عليه إيمان المؤمنين بالله تعالى هو أن كل ما فى هذا الكون من مظاهر القوة فى السموات وفى الأرض هى أثر من قدرة الله تعالى ، فالسحاب المسخر بين السماء والأرض والأمطار الهاطلة ، والرياح العاصفة، والرعد الذى يدوى، والبرق الذى يلمع ويخطف الأبصار ، كل ذلك لا يمكن أن يحدث أو يتحرك إلا بمحرك أوجد لها أسباب الحركة فعملت وتحركت، وهذه القوى الهائلة التى نشاهدها مثل البراكين التى تثقب الأرض وترمى بالحمم واللهب ، وهذه الزلازل التى ترج الأرض وتشققها ، وهذه المياه

الجارية الجارفة ، وهذه الأمواج المتلاطمة، وهذه الأجرام السماوية الدائرة في أفلاكها بنظام محكم دقيق فيه منتهى الدقة والضبط ، مع كثرتها وضخامتها وتجاوزها وتداخلها ، إنما هي من مظاهر قدرة الله القديرة ، وهذه البذور الدفينة في الثرى التي تخرج من تحت التربة ، وتنمو فروعا وغصونا وشجرا وثمرا ، لا تملك لنفسها القوة على هذا الظهور والنماء ، إنما هي قدرة الله التي أنبتتها وأحيتها .

• ولو فرضنا جدلا أن كل شيء في هذا الكون له قدرة ذاتية استقلالية يسير بها نفسه طبق إرادته وقدرته ، نصح أن يكون هذا الشيء إلاها ، لأنه غير مفتقر إلى عون خارجي ، ولكن المشاهد أن هذه الكائنات بما فيها من قوى ، إنما تتحرك وتسكن بعلل وأسباب ، لأن موجدها من العدم هو الله سبحانه وتعالى ، وهو الذي وضع لها السنن والقوانين الثابتة التي تخضع لها في حركتها وسكونها ، بحيث إذا اختل شيء من هذه القوانين بطلت حركتها وتلاشت قوتها ، وانعدمت حياتها .

• وأنت إذا نظرت في ذات نفسك وقدرتك على الحركة والسكون وجدت نفسك برهاناً قائماً على أن قدرتك ليست ذاتية ولا مستقلة ، وإنما هي مستمدة ممن وهبك الحياة والقدرة على العمل ، ثم أنت محكوم في نوع قدرتك على مدى بسطة جسمك ، ومبلغ نضج عقلك ، وسلامة جسمك ونفسيتك ، فأنت في قوالبك الجسمية والعقلية والنفسية محدود الطاقة والفكر ، وانظر إلى يدك وهي تكتب على القرطاس ، هل هي بذاتها وحدة مستقلة عنك ، تستطيع أن تكتب إذا انقطعت صلتها بجسمك ؟ كلا ، إنها لا تتحرك من تلقاء نفسها ولا بإرادتها ، وإنما هي في قدرتها على الكتابة وسرعتها وإجادتها إنما تخضع لأوامر صادرة إليها من مخك ، لأن جهازك العصبي يربط اليد بالمخ ، وتتحرك اليد طبقاً لما يوحى به مخك ، ثم أنت نفسك أيها الإنسان تحس أن قدرتك على العمل تقل وتزداد ، تبعاً لحالتك الصحية ، وأنت في شبابك أكثر قدرة ونشاطاً منك وأنت في مشيبك .

• لقد نظر بعض الباحثين والدارسين فى حقول العلوم الطبيعية والكونية نظرات متفاوتة ، فمنهم من ينظر إليها من ناحية مادية بحتة ، ويرجعون كل ما فيها من مقومات الصنع والتكوين ، وما فيها من أسباب الحركة والسكون ، إلى أن هناك قوانين طبيعية دقيقة تقوم عليها هذه الحقائق العلمية التى يرونها ، ويقف تفكيرهم عند حد العقل الإنسانى المحدود ، الذى لا يستشف ما وراء هذه المادة وقوانينها من عقل آخر مفكر مدبر أوجدها ونظمها وأخضعها لهذه القوانين وألزمها بها ، وهؤلاء الماديون الملحدون قوم طمس الله على بصيرتهم فلا يرون نور الحق ، ولذلك فهم يعيشون فى ظلمات بعضها فوق بعض لأنهم لا يبصرون بنور الله إلى آثار قدرته ورحمته .

• ومنهم من نظر إلى هذه الماديات نظرة المتأمل المتفكر الذى يرجع المسببات إلى أسبابها ، والحقائق إلى أصولها ، وقالوا لا يمكن أن توجد المادة الجامدة الهامدة نفسها بنفسها ، بل لا بد لها من موجد ، وهذا الموجد هو الذى سن لها قوانينها ورتب نظامها ، وهو الله القادر المقتدر جل جلاله .

وأمثال هؤلاء العلماء هم الذين يقول الله فى حقهم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » لأنهم هم الذين وجدوا فى ميادين العلم محاريب مقدسة . تجلت لهم فيها قدرة الله ظاهرة جلية . ووجدوا فى كل ما يظهر من كشوف علمية دلائل شاهدة على عظمة الله وعلمه وحكمه ، فآمنوا إيماناً وثيقاً بربهم وقالوا هو : « الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى » .

الإرادة

● الإرادة صفة قديمة قائمة بذاته تعالى وواجبة له ، فهو الفاعل المختار ، قال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وكل ما أراده الله من الممكنات فهو كائن ، وكل ما لم يرده لم يكن ، ولهذا قال السلف : « ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن » .

● ولا شيء من أفعال الله سبحانه وتعالى فى ملكه ، أو فى خلقه ، يصدر عنه لعلة من العلل ، أو إلزام عليه بدون شعور أو اختيار ، ولهذا وصفت أفعاله سبحانه وتعالى بأنها لا تعلل بالأغراض ، وتتنزه عن العبث وخبط العشواء ، ويستحيل أن يخلو شيء منها من حكمة عليا ، قد لا يفهم الناس خفاياها وأسرارها .

● ورب قائل يقول : لماذا وجدت العقارب والثعابين والحيوانات المفترسة والجراثيم الفتاكة ؟ وكلها ضارة ، فهى ولا شك وجدت لحكمة يعلمها الله ، وأن خلقها كان من مستلزمات كمال هذا الكون ، ويمكن أن نتعرض هنا إلى طرف بسيط جداً من حكمة وجود الذباب ، هذه الحشرة السمجة المقلقة للراحة الناقلة للأمراض ، فيقال فيها إنها مسلطة على الفتك بأنواع أشد ضرراً وخطراً على الإنسان من الذباب نفسه ، وقد يقول قائل ولماذا وجد الإثنان ؟ وهنا نجد أنفسنا أعجز من أن نفهم أسرار الإيجاد والإعدام فى الكائنات لأنها متعلقة بإرادته تعالى .

● والحكمة الكبرى من إيجاد الأكوان والمخلوقات مردها إلى الله تعالى ، وإن كان قد صرح فى الآيات بأن إيجادنا إنما كان لعبادته ومعرفته ، ويشير سبحانه إلى ذلك فى قوله تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » فهذا يدل على أن الانسان المحدود الفهم ان يصل إلى إدراك علم الله لأن ما يظنه عبثاً من الإيجاد ، هو عين الحكمة فى الايجاد ، فهو سبحانه

عندما اقتضت حكمته أن يوجد هذه الأكوان والكائنات جميعا بمحض إرادته ، أوجدها على أكمل ما يكون النظام والإتقان والإحكام ، وكان ذلك عن مصلحة عليا داعية لايجادها ، وكان سبحانه فى هذا الايجاد مريدا مختارا لزمانها وصفاتها ، وعلى الصورة التى شاءها ، ولم يجبره على ذلك شىء ، قال تعالى : « إن ربك فعال لما يريد » ولا يحسبن أحد أن هناك مع إرادة الله إرادة ، ولا مع مشيئته مشيئة، فإرادته نافذة فى السماء والأرض ولا زاد لها ، ولا معقب عليها ، قال تعالى : « وربك يخلق مايشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة » .

العلم

* العلم صفة قديمة قائمة بذاته تعالى وواجبة له ، وبها تنكشف له المعلومات على ما هى عليه ، سواء أكانت واجبة أم جائزة أم مستحيلة فهو سبحانه وتعالى يعلم الواجبات على ما هى عليه من ثبوتها وقدمها ومبلغ كمالها، ويعلم المستحيلات على ما هى عليه من انتفائها وعدم إمكانها ، ويعلم الجائزات قبل إيجادها ، وحال وجودها . وحال انعدامها ؛ وهو سبحانه بعلمه القديم يعلم ما كان وما يكون وما سيكون وما هو كائن . لا يعزب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وعلم الله تعالى ذاتى مطلق قديم أزلى باق سرمدى غنى عن الآلات والأدوات . وجولات العقل ، وإعمال الفكر ، وأفاعيل النظر ، وذلك على خلاف علم الإنسان المحدود ، المسبوق بالجهل ، والمكتسب بالجهد والدرس ، والمنتهى إلى العدم .

* ومن أدلة ثبوت العلم لله تعالى ما نشاهده فى نظام الكون من الإحكام والإتقان فى السماء والأرض وفى أنفسنا . فكل الأشياء تسير على سنن ثابتة وقوانين محكمة تكفل لها حسن الانتظام فى الوضع الذى قدر لها ، ولو أننا دققنا فى فهم الآيات التالية لرأينا كيف أن علم الله بدقائق الأمور وتفاصيلها هو علم لا نهاية له ولا حد ، بل إن الناس لتتفاضل فى درجة العلم

بمقدار ما تعرف من علم الله تعـــالى ، واقرأ قوله تعالى : « ويعلم ما فى السموات والأرض » وقوله تعالى « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق ؟ وهو اللطيف الخبير » وقوله تعـالى : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتـكم» وقوله تعالى : « إليه يرد علم الساعـة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ، وما تحمل كل أنثى ولا تضع إلا بعلمه » وقوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » .

● ألا تدل هذه الآيات على دقة علم الله بكل صغيرة وكبيرة ، وأنه هو سبحانه بحق العليم بكل شىء ، وأنه هو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وهل يعقل أن يكون هذا الإتقان فى الخلق ثم الدقة المتناهية فى الإحاطة بأدق التفاصيل من قبيل المصادفة ؟ وكيف يتأتى للمصادفة أن تـكون ينبوعاً متدفقاً بهذا النظام الـكونى البديع الذى تتجلى أحكامه فى حركة الأفلاك وفى عالم الأحياء من حيوان ونبات ؟ كلا ثم كلا ، إن موجد هذا الإبداع هو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ، وإذا كان علم الله المحيط لا يغيب عنـه ذرة فى كائناته التى لا تعد ولا تحصى ، فهو العليم كذلك بأحوال عباده فى كل وقت ، والعليم بأخبارهم قديماً وحديثاً ومستقبلا .

● قال تعالى فى محكم آياته : « قال فما بال القرون الأولى ؟ قال : « علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى » والله سبحانه وتعالى المتصف بالعلم ، عالم بعلم ، كما أنه حى بحياة ، وقادر بقدرة ، وكما لا يمكن تصور قاتل بلا قتل ولا قتيل كذلك لا يمكن تصور علم بدون معلوم وعالم .

● وقد مجد الله العلم مراراً فى كتابه ، وأشاد بفضل العلماء فقال تعالى :

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » وقال تعالى « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

ويكفى شرفا أن الله سبحانه وتعالى وهو مصدر كل علم ، قد علم الإنسان ما لم يعلم ، وهو الذى خلق الإنسان وعلمه البيان ، وهو الذى علم آدم الأسماء كلها ، فسبحانه من إله عليم خبير .

الحيـاة

● لقد أثبتنا لله تعالى القدرة والإرادة والعلم ، وكل من وجبت له هذه الصفات ، لابد أن يكون حياً وواجب الحياة ، ثم إذا كان الله موجوداً ولا ريب فى وجوده فهل يعقل أن يكون وجوده بغير حياة ، وواهب الحياة للمخلوقات بعد إيجادها من العدم كيف لا يكون حياً ؟ وهل يعقل أن فاقد الحياة يعطيها لغيره ؟ وقد سبقت الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى له كمال الوجود الذى هو فوق مراتب كل وجود للإنسان والحيوان والجماد ، فكيف يوجد الله الوجود عن إدراك وإرادة ولا يكون حياً ، وعنه سبحانه تصدر كل حياة فى الوجود .

● ودلائل الحياة الكاملة للمولى جل وعلا هى فى مظاهر الحياة المختلفة التى نراها تصدر فى جميع الكائنات ، فهذه البذور التى تضرب جذورها فى الثرى ، وتنمو شجراً وتنتج ثمراً ، من الذى يعطيها هذه الحياة والقدرة على أن تشق طريقها ؟ وهذه النطف فى الأرحام التى تصير أجنة تتحرك فى بطون أمهاتها ، من الذى وهبها الحركة والحياة ؟ وهذه البراكين الحية الثائرة ، وهذه البروق اللامعة ، والرعود الراعدة ، وهذه العواصف القاصفة ، والرياح المتحركة ، من الذى يعطيها هذه الاضطرابات والتقلبات ؟ إنك لو فكرت

فى كل حركة وسكون فى عالمنا لوجدت أنها تستمد حياتها وشدتها وضعفها من واهب الحياة ، ومحرك السكون بقدرته .

• قال تعالى : إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ، وحياة الله تعالى أزلية وليست ناشئة عن انبعاث روح فى ذاته ، وليس عن قلب ينبض ، ولا عن رئة تتنفس ، لأنه سبحانه وتعالى منزه عن ذلك كله . فهو ليس كمثله شىء .

وقد نطق القرآن الكريم بالآيات الدالة على حياته فمن ذلك : قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وقوله تعالى : « وتوكل على الحى الذى لا يموت » . وقوله تعالى : « وعنت الوجوه للحى القيوم » .

السمع والبصر

• إن الله سبحانه سميع بصير ، يسمع أصوات جميع المسموعات عالية وخافتة ، قريبة وبعيدة ، بغير أداة ولا أذن ، وكذلك يرى سبحانه جميع المرئيات صغيرها وكبيرها ليلا ونهارا ، ظاهرة أو خافية ، بغير عين ولا أداة للإبصار ، وهو سبحانه يسمع ويرى ، لا يختلط عليه شىء من الأصوات والمرئيات على كثرتها . ولا يشغله سماع جماعة يتكلمون أو يتهامسون أو يتناجون عن سماع غيرهم . فى نفس الوقت مهما بعدت المسافات ، وتعددت اللغات واللهجات ، ويكفى إثبات لسمعه وبصره ما جاء من أنه يسمع ويرى دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء ، بل إنه يسمع ويرى ما هو أخفى من ذلك ، وسمعه ورؤيته تنفذان إلى أعماق البحار وإلى أبعد الأغوار وأظلم الظلمات ، فيرى كل ما فيها بغير استعانة بأنوار تكشف له عنها ، أو مناظير مكبرة ليرى دقائقها

• قال تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » .

وقوله تعالى : « له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى . ولا يشرك فى حكمه أحدا » وقوله عندما أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وخافا من طغيانه : « ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال : لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » .

● وقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « أشفقوا على أنفسكم (أشفقوا عليها) بالدعاء فإنكم لا تدعون أصم أو غائبا ، وإنما تدعون سميعاً بصيرا . والدليل على ذلك أنه كيف يكون المخلوق سميعاً وبصيرا . ولا يكون الخالق كذلك ، وكيف تستقيم ، حجة إبراهيم عليه السلام على أبيه إذ قال له « لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ! » ولو انقلب ذلك فى معبوده لصارت حجته داحضة . ودلالته ساقطة .

الكلام

● لا خلاف فى أن الله تعالى متكلم ، وكلامه لا يصدر عن ألفاظ تخرج من فم ولسان ، وشفاه وأسنان كما تصدر عن الإنسان ، وكلامه سبحانه هو كلام النفس ، وقد ورد أن الله تعالى كلم أنبياءه ، فذكر فى القرآن الكريم أنه كلم موسى تكليما ، وأن من كلامه الوحى ، وإفادة العلم للملائكة والأنبياء ، ويجب تنزيه كلام الله سبحانه عن مشابهة كلام الناس كاختلاف علمه وعلمهم ، وقدرته وقدرتهم ، وكلام الله لا نهاية له كعلمه ، والكلام بالنسبة لذات الله سبحانه كمال محض ، إذ لو لم يكن الله متصفاً به لكان ناقصاً بفقده فى الأزل ، ولكان غيره من الموجودات كالإنسان أكمل منه ، وقد أظهر الله بطلان ألوهية عجل بنى إسرائيل بقوله تعالى : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا » والله سبحانه وتعالى قد خاطب أنبياءه ورسله وأمرهم بأوامر ، وأخبرهم بأخبار ،

وأعلمهم بحقائق ، عن طريق كلامه ، وكلمات الله لا نهاية لها ، فقد قال تعالى: « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مدداً » .

ما يستحيل على الله سبحانه وتعالى

• يستحيل على الله سبحانه وتعالى أى نقص من النقائص التى يتوهمها الفكر ، وأى صفة من صفات الحوادث التى نعلمها ، إذ يستحيل أن يكون عرضة أو محلا للحوادث ، أو داخلا تحت التغير بفعل الحوادث أو أى أمر يقع فى دائرة الخواطر والحوادث البشرية ، لأنها كلها أمور محدودة ، قاصرة غير دائمة ، لا تليق بجلال الله وعظمته ، فهو سبحانه وتعالى مستوجب لكل كمال مطلق لا يحده كم ولا كيف ، ولا يعرف كنهه أحد إلا هو ، وكمال الله سبحانه أعظم وأكبر من أن تدركه العقول أو تصل إليه الأفهام ، لأنه سبحانه هو الذى خلق العقول وحدد الأفهام ، ويعلم مدى ما تبلغه من التصور والإدراك والعلم والمعرفة ، وقد قال تعالى : « ولا يحيطون به علماً » وقول رسول الله ﷺ : « ولو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم العلم الذى ليس بعده جهل ، وما بلغ ذلك أحد » قالوا : « ولا أنت يا رسول الله ؟ » قال : « ولا أنا إلا ما علمنى ربى » فلا يعرف ذلك إلا هو سبحانه ، فهو الذى أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً .

• لذلك كان الواجب على المسلم أن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى متصف بكل كمال وجلال ، وأنه منزه عن كل ما يخطر بالبال ، وأنه سبحانه يستحيل عليه أن يتصف بشىء من أضداد صفاته التى وردت من قبل فيستحيل عليه : العدم ، والحدوث ، والفناء والمماثلة للحوادث ، والاحتياج إلى الغير ، والتعدد ، والعجز ، والكره (أى عدم الاختيار) ، والجهل ، والموت ، والصمم ، والعمى ، والبكم . فالله سبحانه مستحيل عليه أى نقص من ذلك ، وسبحان الله عما يصفون ، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

ما يجوز فى حقه تعالى

● يجوز فى حق الله سبحانه وتعالى فعل الممكنات وتركها ، فالممكن أى الجائز هو الذى يجيز العقل وقوعه وعدم وقوعه ، ويجوز فى حقه تعالى أن يفعله أو لا يفعله لأنه مختار بيده ملكوت السموات والأرض ، ويتصرف فى ملكه كما يشاء فيجوز أن ينزل سبحانه وتعالى المطر فى مكان ، وأن يمنع نزوله فى مكان آخر ، ويجوز أن يعذب العاصى ، ويجوز أن يعفو عنه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير » وقوله تعالى « يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيما » : وقوله ﷺ : « ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن » .

الإسلام والإيمان

● ما هو الإسلام ؟ ومن هو المسلم ؟

وما هو الإيمان ؟ ومن هو المؤمن ؟

وهل الإسلام هو الإيمان ، أو هو غيره ؟

وكيف يتفاضل إيمان على إيمان ، ويمتاز مؤمن عن مؤمن ؟

هذه أسئلة يسأل عنها السائلون ؛ وقد أجاب عليها الفقهاء والعلماء بما ملخصه أن الإسلام هو التسليم والاستسلام والسلام ، والمسلم هو الذى ينقاد ويذعن لكل ما جاء به الشرع بغير تمرد أو إباء أو إكراه ، مع الإقرار بالقلب واللسان والجوارح .

● وأما الإيمان فهو التصديق الوثيق عن يقين واقتناع بما يعتقده الإنسان ، وموطن الإيمان القلب ، واللسان ترجمانه الناطق بحقيقة مكنونه

وكيانه ، والمؤمن هو المصدق المتثبت من اعتقاده فلا يتزعزع عنه أبداً ، مهما لاقى من الشدائد . وكلمة الإسلام أعم فى مدلولها اللغوى من كلمة الإيمان ، والإيمان أخص دلالة من الإسلام ، بل هو فى الواقع أشرف درجات الإسلام ، ويمكن إظهار الاختلاف بينهما بلغة المناطقة فنقول ، إن كل تصديق تسليم ، وليس كل تسليم تصديقاً .

• وقد وردت كلمة الاسلام والايمان فى القرآن بمعنى واحد كما فى قوله تعالى : «فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا غير بيت من المسلمين» ولم يكن هناك بالاتفاق إلا بيت واحد ، ووردتا مختلفتين فى المعنى كما فى قوله تعالى : «قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم» .

• وقد دلنا الشرع على حقيقة الايمان فى حديث جبريل عليه السلام لما سأله النبي ﷺ عنه فقال له : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره .

وبقى علينا بعد هذه الايضاحات أن نعرف كيف يتفاضل إيمان على إيمان ، ويمتاز مؤمن على مؤمن ، ومن المسلم به أنه لا يوجد مقاييس محسوسة يقاس بها الايمان ، وإنما له دلائل لا تخفى على فراسة المؤمنين ، وتنطق بها ألسنة الخلق ، وهناك شعور النفس العميق بإيمانها وإخلاصها لعبادة الله مع الرضا والاطمئنان ، والتسليم المطلق لأمر الله تعالى ، اعتقاداً بعدله المطلق ، ورحمته الواسعة ، وأنه ولى المؤمنين .

• ولا شك أن تاريخ البشرية منذ أن استعمر آدم عليه السلام هو وذريته هذه الأرض إنما يجرى فى طريقه المرسوم أزلا كما أراد الله له أن يكون ، لأنه سبحانه هو المنظم والمدبر لأمور عباده وخلقه على مقتضى قوانين ثابتة أرادها ، وسنن محكمة ارتضاها ، وأودع فى كل شىء مقومات

حياته وبقائه ، ويتحدث هذا التاريخ عن طبيعة التنازع على البقاء ، ويظهر لنا مدى التدرج فى سلم الارتقاء ، حتى لا تقف الحياة بالناس على حالة واحدة ، بل إن قانونها هو التدافع والتصارع والتنافس حتى لا تفسد الحياة وتأسن ، قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

• وقد اقتضت مشيئة الله تعالى وسنته فى خلقه أن تظل الأفراد والجماعات متفاعلة متطورة مع دورات الزمن وأحداثه ، وحسبك دليلا على ذلك مجتمع المدينة الذى عاصر عهد الرسول ، فإنه سرعان ما تغير وتقلب فى تفكيره ونفسيته ، ووصل إلى مجتمع آخر فى عهد خلافة على بن أبى طالب ، فقد دب فيه الشقاق ، وقاتل المسلمون بعضهم بعضا .

ولا تقول إن هذه الحروب الداخلية ذهبت بالإيمان أو أضعفته ، وإنما هى فتن حدثت للابتلاء وتمحيص قلوب المؤمنين ، وإن يد التطور مهما تطاولت وغيرت وبدلت فلن تصل إلى جوهر الدين ، أو تمس عنصر الإيمان ، نعم إن العوامل الاقتصادية أو الاجتماعية والثقافية والسياسية تستطيع أن تؤثر فى حياة الإنسان وترغمه على الخضوع لها . ولكنها أعجز من أن تنال شيئاً من الإيمان المؤمن بربه وبرسوله ، ولكن الذى نعرض له هو أنواع من المسلمين لهم إيمان يتذبذب ، وآخرون لهم إيمان متزمت جامد جمود عقلياتهم ، وغيرهم لهم إيمان متحفظ وهو إيمان العجائز ، ثم إيمان المفكرين إلى غير ذلك . أما الفريق المتذبذب فى إيمانه فقد وصفه الله تعالى بقوله : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » .

• وأما المؤمنون المتزمتون فهؤلاء يقف إيمانهم عند حدود لا يتخطونها أبداً ، وكأنما صبت اعتقاداتهم وتصوراتهم الإيمانية فى قوالب من حديد ،

فلا يمكن أن تتغير أو تتحور عما هو عليه ، وهم يرون كل شيء مخالف لعقيدتهم وتصوراتهم خروج على الدين وضلال مبين .

وأما إيمان العجائز فهو صنفان[١] : « صنف يسلم أمره للواقع ، ويسلم فهمه ، فهو لا يفكر ، إما جهلا وإما عجزاً ، وكثيراً ما يتمادى في التعبد ، وينغمر في تعبده بما يدرى وما لا يدرى ، وهو يرجو أن ينزل عليه القدر بالخاتمة ، وهو على هذه الحال ، ويرجو من بعد ذلك حسن المآل ، فذلك هو الإيمان الذى قال فيه عمر : « اللهم إيماناً كإيمان العجائز » وهو إيمان سدت فيه أبواب العقول ، وفتحت فيه القلوب طاقات لا يشع إليها النور ، ولكن تشع هى بالنور . وطوبى لكل امرىء ما كسب .

أما الصنف الآخر فيؤسس إيمانه على الفهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وعنده أن عقلا يتحرك ، يسنده القلب خير من عقل كسيح ، وأن عقلا ينبض بالحياة خير من عقل لا حياة فيه » .

• وخلاصة القول هو أن المؤمن الصحيح الإيمان من يعيش فى عصره مستفيداً من علوم زمانه ، وأن يجعل من عناصر مدنيته المادية مدنية روحية يرى فيها قدرة الله وعظمته ، وليعلم أن العقول التى تبتكر هى من صنع الله ومواهبه ، لأنه هو الذى يلهمها ويزكيها ، وبذلك يدرك أن إرادته تعالى لها شأن فى تطوير حضارتنا المادية الحاضرة .

• وقد اتفق العلماء على أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهذا صحيح من جهة أن الشىء لا يزيد بذاته زيادة مادية محسوسة ، فالصلاة مثلا لا تزيد بالركوع والسجود أكثر مما هو مفروض فيها ، ولكنها تزيد زيادة معنوية روحية ، باتباع الآداب والتزام الخشوع وأداء السنن والمستحبات ، وغير ذلك مما يدخل فى باب الإحسان فى العبادة ،

---

(١) من كتاب « مع الله فى السماء » للدكتور أحمد زكى .

وذلك مثل سقى الشجر وتسميد تربتها وتقليمها ، فإن ذلك يزيد فى نمائها وازدهارها ، وقد قال الله تعالى فى تأكيد هذا المعنى : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » وقال صلى الله عليه وسلم : « الإيمان يزيد وينقص » وذلك بتأثير الطاعات فى القلب ولا يدرك ذلك إلا من راقب نفسه وأحواله فى أوقات المواظبة على العبادة ، والتجرد لها بحضور القلب ، ولا ننسى أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين كمال الإيمان وبين الأعمال ، فقد قال تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » وقال صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وسبعون باباً ، أدناها إماطة الأذى عن الطريق » وقد سبق القول أن الإيمان بلا عمل ، شجرة بلا ثمر .

• وأخيراً نؤكد أن الإيمان لا يحتاج إلى مظاهر يصطنعها الناس فى سلوكهم وزيهم وهيئاتهم لتدل عليهم ، ولا يحتاج إلى التزام رحاب أو أضرحة خاصة يجلسون عندها لاعتقادهم أنها تنفعهم وتباركهم فلم يأمر الشرع بشىء من ذلك ، كما أن الإيمان ليس ميزة أو خصيصة لطبقات معينة تنتحلها ، وتتخذها وسيلة للكسب أو السيادة ، وإنما الإيمان سر يكمن فى قلوب تعتقد بأن الأمر كله لله ، فتتخلص له وحده ولله العبادة ، إنه سبحانه لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا الظاهرية ، وإنما ينظر إلى أعمالنا ونياتنا ، لأن قلوب الخلق هى موضع نظر الله سبحانه وتعالى .

الاعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالى[١]

• لا يقوم أساس الدين إلا على الاعتقاد بوجود خالق للكون يدبر أمور الكائنات كلها بإرادته وحكمته وقدرته ، ومن لا يقر ويعترف بهذا الأساس فالدين عنده أوهام وأشكال خيالية اخترعها طبقة من الناس وروجوها بين عامة الجماهير فى أوطانهم ، ولكن الحقيقة أن الاعتقاد بوجود ذات الله العليـــة شىء بدهى وطبيعى كالاعتقاد بوجود الإنسان نفسه ، فلا يحتاج إلى بينة أو برهان ، حتى فى عصرنا هذا الذى يعرف بالعصر المادى نجد الأغلبية الساحقة من الناس تعترف بوجود الله ، ولذلك لم يتعرض القرآن الكريم بطريقة مباشرة للبحث فى هذه الحقيقة فى سياق دعوته ، غير أنه برهن على فكرة وجود الخالق بإشارات لطيفة تكفى لغرس فكرة وجوده تعالى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

• ومن الأمور المسلم بها قبل كل شىء هو أن القرآن لا يعتمد فى الإقناع بوجود الله والحقائق الإيمانية الأخرى، على الدلائل المنطقية والمناقشة الفلسفية التى تفحم المخاطب ، بل إن منهج القرآن أنه يخاطب الفطرة الإنسانية السليمة ، ويطلب منها التفكير فى الكون الذى يحل منه الإنسان كجزء صغير ، فإن هذا التفكير يكشف القناع عن وجه الحقيقة ، ويفتح عليه آفاقاً من الآيات التى توجه اليقين ، إلى قلب الإنسان، ولنقرأ فى هذا السياق قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (البقرة ١٦٤).

• وبعد ما يشير القرآن فى هذه الآية إلى خلق السموات والأرض

---

(١) من مقالة فى مجلة البحث الإسلامى التى يصدرها علماء لكهنو بالهند .

والتفكير فيما ورد فيها من المظاهر الكونية وآثارها التى تشهد بلسان الحال أنها لم توجد بنفسها بل إن لها خالقاً قديراً، يملك كل شىء ويدبره، وقد جاء فى سورة الأنعام آية ٩٥ : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت، ومخرج الميت من الحى، ذلكم الله فأنى تؤفكون ».

• والحقيقة أن الإنسان إذا فكر فى ذاته وبجرد أعضائه، ونظام حياته لم يعد لديه شك فى فاطر هذا الكون، فليفكر الإنسان فى بدايته من الذى صوره فى بطن أمه، وأودع فى كيانه الروح، ثم لينظر من الذى خلق له هذه الحوائج والمطالب ليقضى بها حياته، ووضع فى عينيه النور، وفى أذنه السمع وفى أنفه الشم، وفى لسانه الذوق، ومن الذى أكرمه بالنطق ؟ هل أعطاه أحد ذلك، أو استطاع هو الحصول عليها بنفسه ؟ لا جدال ولا مراء فى أن الله العليم الحكيم هو خالق الإنسان وأنه سبحانه خلع عليه لباس الوجود، ومن عليه بجلائل النعم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

دلائل وجود الخالق سبحانه وتعالى[1]

• لقد بث الخالق دلائل وجوده فى كل شىء فى الكون، فكلما تأمل العقلاء فى هذا الكون الكبير المتدفق حكمة وإبداعاً تجدد لهم فى كل تأمل جديد برهان جديد يشير إلى الخالق العظيم.

فالساذج من الناس ينكشف له من الدلائل ما يتناسب مع مستوى تفكيره وثقافته.

والذكى يزيد فى التأمل فيصل إلى نفس النتيجة، ولكن بدلائل أكثر والفيلسوف الباحث تضطره الحقيقة بعد البحث والتأمل أن يعلن وجود الخالق المبدع بمستوى من الأدلة أكثر عمقاً ودقة. والعالم المشتغل بالتجارب

(١) من موضوعات كتاب العقيدة الإسلامية وأسسها لمؤلفه الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميدانى.

ينكشف له فى كل تجربة صادقة دليل جديد على ارتباط المادة بسبب أولى فعال عليم مريد قادر وهو الخالق سبحانه .

والعبقرى لابد أن يصادف فى مجال عبقريته مئات الأدلة التى تجعله يذعن فى قرارة نفسه بوجود الخالق العظيم . والفطرى بفطرته الصافية ووجدانه السليم يتحسس ببساطة لا تعقيد فيها فيشعر بأن لهذا الكون خالقاً عظيما له قدرة كبيرة لا حدود لها فيؤمن به .

فسبحان الخلاق العظيم الذى جعل كل شىء فى الكون يشير إلى وجوده وكمال صفاته ، ولو أخذنا أفراد البشر منذ نشأة الإنسان حتى عصرنا هذا لوجدنا أنه ما من إنسان استطاع أن يعيش وهو عاقل مدرك منصف ثم يموت دون أن يعتقد بقوة مهيمنة على الكون تسيره وتدبره مهما ساورته الشكوك فى فترة من حياته .

• وإليك بعض ما يقوله علماء الكون والفلاسفة فى الإيمان بوجود الخالق لكى يؤنسك ذلك عن الحقيقة التى لابد من الاعتقاد بها حتى تزيدك أقوالهم إيماناً بربك فوق إيمانك وقد جاء فى كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم[1] » ثلاثون مقالا لثلاثين من كبار العلماء المتخصصين فى مختلف علوم الكون السائدة فى العصر الحديث، وقد أثبت هؤلاء العلماء فى مقالاتهم هذه وجود الله جــــل وعلا عن طريق ما وعوه من الأدلة الكثيرة المثبتة فى مجالات اختصاصهم، ونورد لك من هذا الكتاب المقالة الأولى تحت عنوان « نشأة العالم ، هل هو مصادفة أو قصد ؟ » وقد كتبها « فرانك ألان » عالم الطبيعة البيولوجية وهى :

• إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود ، فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟ .

---

(١) أشرف على تحرير هذا الكتاب جون كلوفر الصحفى الأمريكى ، وترجمه إلى العربية الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، وراجعه وعلق عليه الدكتور محمد جمال الدين الفندى.

هناك احتمالات أربعة للإجابة على هذا السؤال :

١ — فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ، وهذا ما يتعارض مع علمنا به من أنه موجود .

٢ — وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم وهذا مرفوض بداهة .

٣ — وإما أن يكون هذا الكون أزلى الوجود ليس لنشأته بداية وهذا الاحتمال يساوى ما يقوله المؤمنون بالله بالنسبة لأزلية الخالق ، ولكن قوانين الكون تدل على أن أصله وأساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حدث من الأحداث ولا يمكن إحالة وجود هذا الحدث المنظم البديع إلى المصادفة عقلا ، ولذلك فهذا الاحتمال باطل .

٤ — وإما أن يكون لهذا الكون خالق أزلى أبدعه وهو الاحتمال الذى تقبله العقول دون اعتراض عليه ، إذ لا يوجد ما يبطله عقلا فوجب الاعتماد عليه .

ومما كتبه العالم الطبيعى الفيلسوف ماريت ستانلى قوله :

١ — إن كثيراً من الأمور التى تسلم بها إنما نعتمد فى وجودها على الاستدلال المنطقى ، ومن أمثلة ذلك :

(ا) بحوث العلوم الفلكية التى ليس بيننا وبينها اتصال مباشر .

(ب) بحوث الذرة واستخدام قوانين الكتلة والطاقة فى استنباط صفات الذرة وتركيبها وخواصها ، مع العلم بأن العلماء لم يروا الذرة حتى الآن بطريقة مباشرة ، وقد أيدت القنبلة الذرية الأولى ما وصل إليه العلماء من قوانين ونظريات حول تركيب الذرة غير المنظورة ووظائفها .

ومن هذه الأمثلة : وجود الله سبحانه وتعالى فإننا نستطيع أن نصل إلى

معرفته عن طريق الاستدلال المنطقى الذى يقوم على تفسير النتائج بنظائرها أو مثيلاتها .

وبرغم أن العلوم لا تؤيد وجود عالم غير مادى تأييداً كاملا ، لأن الدائرة التى تعمل فيها تقع فى حدود المادة ، فإنها لا تستطيع أن تنفى بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادية وراء العالم المادى .

ونستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الإنسان وذكائه فى عالم يفيض بالأمور العقلية أن نصل إلى وجوب وجود قوة مسيطرة مدبرة تسير هذا الكون وتدبر أمره ، وختم مقاله بقوله ، إن جميع ما فى الكون يشهد على وجود الله سبحانه وتعالى ، ويدل على قدرته وعظمته وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية . فإننا لانفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادى الله وعظمته ، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته .

الاسلام دين التوحيد

● والخلاصة أن الإسلام دين الوحدانية ، وهو لهذا الدين الجامع بين الديانات السماوية كلها ، فهو الذى يقرر فى محكم آياته القرآنية أن التوحيد هو الأساس فى الديانات السماوية كلها ، فإبراهيم أبو الأنبياء قامت رسالته على التوحيد ، وقبله نوح ، وهود وشعيب ولوط ويعقوب وإسحاق والأسباط ويوسف .

فالتوحيد دين الأنبياء جميعاً ، وهو أقوى جامعة بين رسالات الله سبحانه وتعالى إلى خلقه ، وأن كل ما ناقش فيه المجادلون ليدحضوا حقيقة التوحيد إنما يرجع إلى أوهام وشكوك لا أساس لها . ولا يمكن أن يقبلها العقل المتحرر من قيود التقليد والوراثة ، وتأثير البيئة والمنزل وسلطة رجال الدين الذين اتخذوا من الدين وسيلة لتحقيق مطامع ومآرب ذاتية .

وقد قال تعالى فى وحدة الرسالة الإلهية : « وشرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب ، وماتفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب[١] » .

أركان التوحيد

• للوحدانية التى قررها القرآن الكريم ثلاثة أركان هى :

١ — وحدة التكوين والإنشاء .

لأنه سبحانه خالق كل شىء ، وأنه وحده المنشىء ، وأنه بديع السموات والأرض ، أبدعها على غير مثال سابق .

٢ — وحدانية الذات العلية .

فهو سبحانه منفرد بذاته وصفاته لا يماثله أحد من خلقه ، وليس شىء من خلقه يشابهه .

٣ — وحدانية العبادة والألوهية .

فهو سبحانه المعبود بحق ، وله وحده يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً .

وقد ترتب على وحدة المنشىء وهو الله تعالى ، ألا يكون أحد من خلقه له صلة به غير صلة المخلوق بالخالق ، وهذه الصلة هى عبادته وحده ، لما فى هذه العبادة من طاعة لله ولرسوله ومصلحة لنفسه ولمجتمعه .

---

(١) الشورى ١٣ ، ١٤ .

اختلاف الآراء فى فهم صفات الله تعالى

• ينقسم الناس عند تفكيرهم فى صفات الله إلى فرق مختلفة الآراء والمذاهب ، ففرقة تأخذ الصفات بظواهرها كما هى ، فنسبت إلى الله تعالى وجهاً كوجوه الخلق ، ويداً كأيديهم وضحكا كضحكهم ، وهكذا حتى فرضوا الإله شيخاً ، وبعضهم فرضه شاباً وهؤلاء هم المجسمة والمشبهة ، وليسوا من الإسلام فى شيء ، وليس لقولهم نصيب من الصحة ، ويكفى فى الرد عليهم قول الله تبارك وتعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

• وفرقة عطلت معانى هذه الألفاظ على أى وجه ، يقصدون بذلك نفى مدلولاتها مطلقاً عن الله سبحانه وتعالى ، فالله فى رأيهم لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر ، لأن ذلك لا يكون إلا بجارحة من الجوارح يجب أن تنفى عنه ، وبذلك يعطلون صفات الله ويتظاهرون بتقديسه ، وهؤلاء هم المعطلة ، ويطلق عليهم بعض علماء تاريخ العقائد الإسلامية الجهمية ، ولا نظن أن أحداً عنده مسكة من عقل يقبل هذا القول ، وها قد ثبت الكلام والسمع لبعض الخلائق بغير جارحة ، فكيف يتوقف كلام الله تبارك وتعالى على الجوارح ؟

• والذى عليه إجماع المسلمين أن المجسمة والمشبهة والمعطلة ومن اتبعهم على خطأ . وأن آراءهم باطلة ، لأن هذا التمثيل ونفى مدلولات الألفاظ وتعطيل معانيها هو ضرب من الخيال والضلال ، وبعد عن المقصود من القرآن الكريم فى فهم أسماء الله الحسنى وصفاته .

• وهناك فريقان آخران أحدهما من السلف ، والآخر من الخلف ، ولكل منهما رأيه فى صفات الله ، وآراؤهما محل نظر العلماء فى العقائد .

• أما مذهب السلف رضوان الله عليهم فقالوا : نؤمن بالآيات والأحاديث كما وردت ، ونترك بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى ، فهم

يثبتون اليد والعين والوجه والاستواء والضحك والتعجب الخ ، وكل ذلك بمعان لا ندركها ، ونترك لله تبارك وتعالى الاحاطة بعلمها ، ولا سيما وقد نبهنا عن ذلك فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى خلق الله تهتدوا ولا تتفكروا فى ذاته فتهلكوا » هذا هو رأيهم مع اعتقادهم بتنزيه الله سبحانه وتعالى عن المشابهة لخلقه .

● أما الخلف فقد قالوا : إننا نقطع بأن معانى ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لا يراد بها ظواهرها ، وعلى ذلك فهى مجازات لا مانع من تأويلها ، فأخذوا يؤولون الوجه بالذات واليد بالقدرة والاستواء على العرش بالتملك والسيطرة والاستيلاء ، وما إلى ذلك هرباً من شبهة التشبيه .

● ومذهب كل من السلف والخلف مثار خلاف شديد بين علماء الكلام من أئمة المسلمين ، والحقيقة أن الأمر لا يحتاج إلى التطرف والغلو من أى من الفريقين ، إذ أن النتيجة النهائية بعد هذا الخلاف المستحكم بينهما هو التفويض لله تبارك وتعالى لأنه سبحانه يقول وهو أصدق القائلين : « ليس كمثله شىء » « ولم يكن له كفواً أحد » .

الوحدانية فى الذات

● يوقن المسلمون أجمعون بوحدانية الذات ، وهو أصل يتفقون عليه ، وهو فى مرتبة البديهيات المعلومة من الدين بالضرورة ، وأصله من القرآن قوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

« سورة الشورى ١١ »

ولا يصح أن يخوض الخائضون فى مناقشة هذه الحقيقة ، لأن البحث فيها لا يعطى علماً جديداً⁽¹⁾ ، والفرق الإسلامية التى تصدت لها كانت تدور

---

(١) من كتاب « مجمع البحوث الإسلامية » .

فى خلافات فى مسائل جزئيـة ليست من لب الوحدانية فى شىء ، ولـكنها كانت حولها .

● والقرآن الـكريم يعرف الناس بلسان عربى مبـين بصفات الله وأفعاله ، ويقف العلماء الذين يتمسكون بالنصوص عند تعريف الذات العلية بما ورد فى القرآن الـكريم من تعريفها بأسمائه الحسنى ، ولـكن هؤلاء العلماء إذ يتمسكون بالنصوص وبالأسمـاء الحسنى التى جاءت فى القرآن يقررون حقيقتين ثابتتين : إحداهما أن هذه الأسماء وإن تشابهت فى الاسم مع صفات الناس كالقدرة والإرادة والحياة فإن حقيقـة هذه المعانى التى تنسب إلى الله تعالى غير ما هو معروف عنـد العباد ، والحقيقة الثانية أن ما يضاف إليه سبحانه وتعالى من صفات وأفعال هو غير ما يضاف إليه الناس ، لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته وأسمائه وهـذا عين ما يليق بالتنزيه الـكامل لرب العالمين .

● والله جلت قدرته ، وتقدست ذاته ، له أسماء وصفـات وردت فى القرآن الـكريم وبعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولأهل السنة من السلف الصالح مذهب فى الإيمان بها كما وردت فى القرآن الـكريم بغير تفسير وتأويل أو تشبيه ، وهم يصدقون بها تصديقاً كاملا ويثبتونها كما أثبتها سبحانه لنفسه ، فلا يشبهون صفاته بصفات خلقه ولا يقولون كيف هى ، بل يسلمون تسليم العاجز عن البحث فيما هو فوق طاقة العقول البشرية .

● وهؤلاء السلف الصالح يثبتون لله تعالى صفة الوجه والعين والجنب وأن له يداً وسمعاً وبصراً وكلاما : وأنه سبحانه له صفات المحبـة والرحمة والرضا والغضب والمعية وغير ذلك مما نطق به القرآن الـكريم فى صريح آياته . وأنه من واجبنا كبشر أن نقف عند حدود طاقاتنا العقلية والفـكرية لأننا مهما أوتينا من ذكاء لا نستطيع الوصول إلى معرفة شىء عن ذات الله وكنهه .

ولذلك قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « تفكروا فى خلق الله ، تهتدوا ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

• إن العلماء الذين أثبتوا لله تعالى كل ما أثبتــه القرآن كالحديث ولو حديث آحاد من أفعال وأحوال وصفات يرون أنها لله تنافى وحدانية الذات العلية ، فابن تيمية الذى حمل لواء إثبات كل الأحوال والأفعال التى تقترن باسم الله تعالى ذى الجلال والإكرام ما دامت قد وردت فى القرآن أو الحديث المتواتر أو غير المتواتر ، يقرر أن هذه الأحوال وإن تشابهت فى الاسم مع ما يقوم به الآدميون وما يكون لهم من أحوال — ليست من نوعها ، وليست مثلها . وعقيدة السلف هى بين التعطيل والتمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ، ولا يعطلون وينفون عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا

• ويقرر شيخ الأشاعرة أبو الحسن الأشعرى أن الصواب هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من غير مشابهة لمخلوقاته ، ويتبع فى ذلك سبيل السلف أهل العلم والإيمان ، والمعانى المفهومة من الكتاب والسنه لا ترد بالشبهات ، فيكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يعرض عنها ، ليكون من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، ولا يترك تدبر القرآن فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، مع ملاحظة عدم التشابه بين هذه الصفات وصفات الحوادث .

• وبهذا يتبين أن الذين أخذوا بظواهر القرآن وظواهر الأحاديث لم يختلفوا عن الذين يأخذون بتأويل الظاهر ، وعدم الأخذ بأحاديث الآحاد ، فإن الجميع قد اتفقوا على تنزيه الذات العلية على أن يكون لها مايشبه الحوادث من صفات أو أحوال أو أفعال ، فقد أثبتوا أن الله تعالى يرضى ويسخط .

ويحب ويبغض ويريد ولا يريد ، وكل هذه صفات وأحوال لله تعالى ليست كما يكون للناس .

● ويقول ابن الجوزى وهو حنبلى المذهب إنه لا يوافق على أن مذهب السلف هو تفسير الألفاظ الواردة فى القرآن والحديث الدالة مظاهرها على الجوارح كاليد والوجه والقدم على معانيها الظاهرة ، بل صرفها إلى معان مجازية . فاليد تطلق على النعمة والقدرة ، والوجه على الذات العلية ، ويعتبر ذلك مجازاً مشهوراً ، وقد صرف إليه صارف من العقل ، واستحالة ذلك على الذات العلية .

● ويرى ابن الجوزى أن العبارات المروية عن الأئمة الأعلام هى إلى التفويض أقرب منها إلى التفسير ، فالإمام مالك يروى عنه أنه قال فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى [(١)] » الاستواء معلوم ، ولكن الكيف هو المجهول .

● والذى يجب أن يكون عليه المسلم سواء أكان سلفياً أم أشعرياً أن يؤمن إيمانا وثيقا أن الله سبحانه ليس كمثله شىء مطلقاً .

* * *

ذكر الله تعالى[(٢)]

● لا شىء أدل على فضائل ذكر الله تعالى ، ولا أصدق فى الحث عليه ولا أوضح فى بيان فضله وأثره من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً » .

---

(١) سورة طه آية ٥ .

(٢) فى كتابى « مع الله » فصل عن ذكر الله تعالى فليقرأه من يريد الاستزادة . ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربى .

« واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »

« والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما»

« فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » .

« واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار » .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

● كما أن الآيات حذرت ونبهت الغافلين عن ذكر الله تعالى ، وذلك فى قوله جل جلاله :

« ولا يذكرون الله إلا قليلا » .

« واذكر ربك إذا نسيت »

« واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » .

« يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى » .

● وجاء فى الأحاديث النبوية ما يحث على ذكر الله تعالى كما فى وصيته لمعاذ بن جبل أن يقول دبر كل صلاة :

« اللهم أعنى على ذكرك وشكرك » .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت » .

وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث قدسى عن الله عز وجل : « أنا عند

ظن عبدى بى ، وأنا معه ما ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه » .

وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث قدسى عن الله عز وجل أيضاً : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت على ، فأخبرنى بشىء أتشبث به ، فقال : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله » .

وقوله صلى الله عليه وسلم: « ما جلس قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة . وذكرهم الله فيمن عنده » .

• وليس بعد كتاب الله وآياته ، وبعد أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه حجة على عظم شأن الذكر وجزيل ثوابه وأن الذكر وحلقاته ليس بدعة مبتدعة ، وإنما هو أمر واضح وصريح لا يمارى فيه إلا جاحد ، ومعنى هذا كله أن ذكر الله تعالى من خير العبادات سواء أكان باللسان أو بالقلب أو بالفكر ، وفى خلوة وفى جماعة ، وفى حالة وقوف أو جلوس أو رقود ، فالمسلم مطالب أن يذكر الله دائماً ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

المسبحة :

• وقد اتخذ بعض الذاكرين المسبحة أداة يعدون عليها مقدار ما يذكرون من أسماء الله تبارك وتعالى ، وقد يعترض بعض الناس على حمل المسبحة ، ويقولون إنه لا معنى للعد على الله ، والحقيقة أن فى عبادتنا ذكرا وتسبيحات وتكبيرات وحركات فى الصلاة والطواف والسعى ورمى الجمار وغيرها مقدرة بأعداد محدودة ، فالعد له أصل فى الشرع ، والمقصود أن يعد الذاكر على نفسه ليحملها على الإكثار من ذكر الله إذا توانى ، وليس

المقصد البعد عن الله تعالى ، والأمر بذكر الله كثيراً أن يكون كثيراً فى عدده والاهتمام بزيادته دائماً .

● فالمسبحة إذا قام الذاكر باستخدامها على الوجه الأكمل تكون خير أداة تعين على المضى فى الذكر وترك الغفلة، وهى ليست من البدع الخارجة عن منهج السلف الصالح ، حتى ينظر إليها بعض المسلمين نظرة استنكار ولا يرضون عنها .

فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدون تسبيحهم بذكرهم على الأصابع ، أو باستعمال الحصى والنوى ، وقد كان لأبى هريرة رضى الله عنه وهو خادم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حبل معقود به ألف عقدة يستغفر الله عليه . كما أنه كان لإحدى زوجات النبي مسبحة تعد بها تسبيحها ، ولا ينكر الرسول عليها ذلك .

● والحذر من أن تكون المسبحة آلة للعبث بها بتطويحها فى الهواء أو لفها على اليد ، أو العد عليها من غير ذكر مقصود ، ومن الخير لمن يستعمل المسبحة أن يخفيها عن الأعين ، وأن يضعها فى الجيب ويعد عليها ما شاء ، لأن الإنسان لا يأمن على نفسه من الوقوع فى مظنة الرياء أو حب الظهور ، أو مهاوى الغرور والعياذ بالله .

اقوال فى فضائل الذكر :

● وفسر بعضهم قول الله تعالى : « فاذكرونى أذكركم » أى اذكرونى باللسان أذكركم بتنقيح الجنان ، واذكرونى بالإسرار أذكركم بترادف المنح والأنوار. اذكرونى بالحضور أذكركم بالفتح والسرور، اذكرونى بالتعظيم أذكركم بالفوز العظيم، اذكرونى بالإجلال والاحترام أذكركم بالكرامة والاكرام، اذكرونى بالهمة والاهتمام أذكركم بالحكمة والالهام، اذكرونى بالقلوب أذكركم بكشف أسرار الغيوب ، اذكرونى بالأركان أذكركم بالمحبة والعرفان .

• وروى الإمام السهروردى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حاكياً عن ربه : إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت همته ولذته فى الذكر فعشقنى وعشقته ، ورفعت الحجاب فيما بينه وبينى ، لا أسهو إذا سها الناس ، أولئك كالأنبياء ، أولئك الأبطال الأبدال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت بأرض الأرض عقوبة وبلاء ذكرتهم وصرفته بهم عنهم .

• ويقول الحكيم الترمذى رضى الله عنه ، ذكر الله يرطب القلب ويلينه ، فإذا خلا عن الذكر أصابته حرارة الشمس ونار الشهوات فقسا ويبس وامتنعت الأعضاء من الطاعات .

• وفى الحديث القدسى عن رب العزة : « أنا جليس من ذكرنى » وهذا شرف عظيم للذاكرين ؛ فمن جالس الله تعالى أفاض عليه من عطائه ، فأخرجه من إطاعات الغفلة إلى نور الذكر ، ومن نور الذكر إلى نور الفكر ، ومن نور الفكر إلى نور الأنس ، ومن نور الأنس إلى نور المعرفة ، ومن نور المعرفة إلى نور التوحيد ، ومن نور التوحيد إلى نور المحبة ، ومن نور المحبة إلى نور الرضوان الذى هو غاية الغايات ونهاية السعادات .

* * *

أسماء الله الحسنى

• من جليل المزايا والمحاسن فى الدين الإسلامى أنه يعرفنا رب العباد بأسمائه الحسنى وأجمل صفاته التى تملأ القلوب بجلاله وجماله ، فتنجذب إلى حبه وإيثاره ، وتتجه نحو المثل العليا التى تشتمل عليها معانى هذه الأسماء والصفات لتسير العباد على هداها ، وهذا الجانب من العقيدة الإسلامية له أهميته باعتباره وصفاً للحقائق السامية التى يجب أن يعتنقها الناس فى شأن الإله عن

وجل . وقد قال تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون» وقال تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ماتدعوا ، فله الأسماء الحسنى » .

وجاء فى الحديث الشريف: « إن لله تسعاً وتسعين إسماً مائة إلا واحد ، إنه وتر ويحب الوتر ، من أحصاها دخل الجنة » .

وليس المقصود إحصاء عدد ، وإنما إحصاء وعى وإدراك واندماج فى معانيها : بالتصديق فى ثبوتها لله تعالى على وجه الكمال . وهذا سر ذكر الذاكرين لهذه الأسماء بالألوف بل وعشرات الألوف لتسطع معانيها القدسية فى قلوبهم ، وتجرى فى عروقهم ، ولم يحصل لأهل الأرض والسماء معرفة بالله تعالى إلا عن طريق الأسماء والصفات ، كما أنهم لم يحصلوا على شىء من معرفة الجنة إلا بوصفها وأسمائها التى وردت عنها ، لأن كل ما فيها لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

• والحقيقة أن أحداً كائناً من كان لا يعلم حقيقة ذات الله سبحانه وتعالى ، ونهاية العارفين هو الاقرار بعجزهم عن المعرفة ، إذ أنه يستحيل أن يعرف الله تعالى المعرفة المحيطة بكنهه وكنه صفات الربوبية إلا الله ، وقد قالوا : إن العجز عن إدراك ذات الله إدراك ، وهذا الذى عناه سيد الخلق صلى الله عليه وسلم بقوله: «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». واتساع المعرفة إنما تكون فى إدراك معانى أسمـــاء الله وصفاته ، وبهذا الاتساع فى المعرفة تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأولياء عند الله .

• وقد أراد الله سبحانه أن يعرفنا بنفسه فقال تعالى : « وله المثل الأعلى » ترقيباً لأذهاننا ، وهذا المثل الأعلى تختلف عقول الناس فى فهمه ، فإنك لو ذكرت إسما لعالم عظيم ورع تقى كالإمام الشافعى مثلا ، لوجدت أن فهم الناس عنه وتقديرهم لمنزلته ومكانته تتفاوت تفاوتاً واضحاً ؛ فالرجل العامى يعلم أنه عالم كبير من علماء المسلمين ، والرجل المثقف ثقافة متوسطة

يرى أنه شخصية وقودة لها مكانتها فى البحث والتصنيف ، والرجل المثقف ثقافة عالية يفهم فيه العلم والورع والاجتهاد وهداية العباد ، ويمكنه أن يستكشف بعض مواهبه الفذة وعظم قدره وسمو مكانته ، ويشعر بالإذعان لفضله والإقرار بتفوقه ، لأنه صاحب مذهب الفكر والرأى والاجتهاد ، هذا يدلنا على أنه بقدر ما ينكشف لنا من معلومات الله وعجائب مخلوقاته وبدائع آياته ، تزداد معرفتنا بالله ، ويشهد له بالوحدانية والربوبية .

• وقد ذكر الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته فى القرآن الكريم ، ولكن هل بالامكان معرفة حقيقة هذه الأسماء والصفات ؟ الجواب بالنفى طبعاً ، إذ لا يعرف حقيقة علم الله مثلا إلا من كان له مثل علمه ، وأنى للمخلوق المستمد وجوده وعلمه وحركته وسكونه من الله أن يحيط بذات الله أو أسمائه أو صفاته علماً ؟ والخلاصة إنه لا يعرف الله إلا الله ، وهذه الأسماء الحسنى جاءت كلها فى القرآن بالنص ما عدا : الواجد والماجد ، وإليك أسماء الله الحسنى :

الله ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، العفو ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الودود ، الحميد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ،

النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .
جل جلاله ، ولا إله غيره .

● وذكر[١] الله تعالى بهذه الأسماء عن طريق التأمل واستحضار معانيها ، وتعرف جلال الله سبحانه وتعالى أو صفاته بها من شأنه أن يعرفنا بكل ماهو سمو وجمال وخير وكمال ، مما يبعث فى القلوب شعوراً عميقاً بعظمة الله وقدرته ورحمته ، فنحبه سبحانه وتعالى حباً روحياً ونؤمن به ونتوكل عليه .

وإليك شرحاً مختصراً لكل اسم من هذه الأسماء :

الله : علم على الذات العلية ،وهى أعظم الأسماء التى تفرد بها الرب المعبود، واجب الوجود ، رب العالمين .

الرحمن : اسم مختص به تعالى بأنه المنعم على عباده فى الدنيا بعظيم رحمته التى تشمل الطائع والعاصى .

الرحيم : صفة له تعالى بأنه الرفيق الذى يرحم برحمته الواسعة من يشاء من خلقه فى الآخرة .

الملك : صاحب الملك ومن بيده الأمر ، وهو المتصرف فى ملكه بما يشاء وهو المستغنى عن سواه .

القدوس: المتصف بالطهارة ، والمنزه عما لا يليق بكماله من نقص أو عجز أو حدوث .

السلام : واهب السلام والسلامة من المخاوف والمهالك . كما أنه هو الذى سلمت ذاته وصفاته وأفعاله من كل وصف لا يليق بجلاله وكماله .

---

(١) ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من نزل به غم أو كرب أو أمر مهم فليقل» «لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش لا إله إلا الله ربه السموات والأرض ورب العرش العظيم »
يقولها بلسانه مع قلبه ووجدانه

المؤمن : الذى يؤمن بذاته العلية بأنه الحق المبين ، وأنه الواحد الأحد ، وأنه واهب الأمن والإيمان لعباده .

المهيمن : الرقيب الحافظ لكل شيء وهو المطلع على كل ما يجرى فى الكون والمسيطر على كل ما فيه ظاهراً أو باطناً بالإحاطة والسلطان .

العزيز : ذو العزة الذى لا نظير له ، ولا تستطيع العقول أن تصل إلى حقيقته وهو الغالب على كل شيء ، وكل الخلق مفتقر إليه

الجبار : القاهر الذى يجبر الخلق على ما يريد ، ويقهر الجبابرة ، وهو العالى الذى لا تناله الأفكار والأبصار ، وهو المصلح الذى يجبر كسر عباده .

المتكبر : ذو الكبرياء بحق ، وهو المنفرد بالعظمة ، وكل شيء مهما عظم فهو صغير وحقير بالنسبة لعظمته وجلاله .

الخالق : الذى خلق المخلوقات كلها بذاتها ونوعها على مقتضى إرادته وحكمته فى الأزل على غير مثال سابق .

البارىء : الذى أوجد ملكه ومخلوقاته من العدم ، وأنشأها على أكمل نظام وأدق شكل ، وأبدع تكوين ، بقدرته وحكمته .

المصور : المبدع الذى أعطى كل شيء خلقه على أوفق شكل يصلح لكل كائن منها ، وفى أكمل صورة ، وأحسن تقويم .

الغفار : الصفوح الذى يستر العيوب كرهاً منه ، ويغفر الذنوب تفضلا منه ، ويتجاوز عن عقوبتها بمغفرته وإحسانه .

القهار : الغالب الذى يخضع كل ما فى ملكه لقهره ، ويرغم كل من فيها على الانقياد لأمره وسيطرته أراد أم لم يرد .

الوهاب : كثير العطاء بالنعم والهبات ، والمتفضل بالعطايا الجزيلة لمن يشاء من عباده ، بغير سبب ولا غرض ولا عوض .

الرزاق : المتكفل بأرزاق خلقه ، فلا يقطع عنهم ما يحفظ عليهم كيانهم ، ولا يمنع عنهم ما يرفع معنوياتهم ، وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها .

الفتاح : الحاكم العادل الذى يظهر مواضع الحق ، ويزكى عباده بفتوحاته الربانية ، ويفتح لهم خزائن علمه وكنوز خيراته .

العليم : المحيط علماً بحقائق ودقائق كل معلوم لنـا وغير معلوم ، والذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

القابض : الممسك بزمام كل شىء فى ملكه فلا يخرج عن قبضته خارج ، وهو الذى يتصرف فى الأرزاق قبضاً وبسطاً ، وهو القابض للأرواح .

الباسط : المنعم الذى يوسع الرزق ، وينشر الفضل والإحسان ، والذى يشرح الصدور ، ويلهم النفوس الرضا والبسط .

الخافض : الذى يهوى بمن يغضب عليه إلى الدرك الأسفل ، وينزله منازل الذل والهوان حسياً ومعنوياً .

الرافع : المعلى شأنه من يرضى عنه ، ويرفعه إلى الدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، ويرفع الله الذين أوتوا العلم درجات .

المعز : الذى يعز بالطاعة من يشاء من عباده ، فيعزه بنصره وتأييده ، ويحفظه من الهوان ، ويبقيه عزيزاً كريماً .

المذل : الذى يذل من عصاه ، ويهين كل من تجبر وتكبر على خلقه فيسلبه القوة والعزة والجاه الذى يطغى به .

السميع : الذى يسمع كل الأصوات ، ولا يغيب عنه أى مسموع مهما كان بعيداً أو خافتاً ، ولا يختلط عليه منها شىء فى أرضه أو سمائه مهما كثرت

البصير : الذى يرى كل موجود ، ويظهر له كل ماخفى وما بطن منه . وجميع المرئيات حاضرة أمامه ، ولا يخفى عليه شىء منها .

الحكم : الحاكم الذى يقضى بالحق والعدل ، وقيل الحكم الذى حكم على القلوب بالرضا والقناعة ، وعلى النفوس بالانقياد والطاعة .

العدل : ذو العدل الذى لايظلم ولا يجور أبداً ، ويعطى كل ذى حق حقه ، وهو الذى يؤيد الحق ، وينصره على الباطل .

اللطيف : الذى لا تدركه الحواس ، والعليم بدقائق الأمور وغوامضها ، وهو البر الذى يلطف بعباده من حيث لا يشعرون ، ويقضى مطالبهم وحوائجهم من حيث لا يحتسبون .

الخبير : العالم بكنه الأشياء ، المطلع على حقيقتها وجوهرها لأنه خبير بخلقه ، قال تعالى : « ألا يعلم من خلق ؟ وهو اللطيف الخبير » .

الحليم : الذى لا يستفزه عصيان ولا يتملكه غضب ، ويسبل ستر عفوه على المذنبين ، فلا يعجل بعقوبة أو انتقام ، بل يمهل من عصى لعله يندم ويتوب .

العظيم : هو الجليل الشأن الذى تتجاوز عظمته حدود العقل والفكر والخيال ، وكل عظيم مهما كان ، هو حقير بالنسبة إليه سبحانه وتعالى .

الغفور : هو الستار لذنوب عباده بالعفو والصفح ، وقال بعضهم إنه غافر يزيل معصيتك من ديوان أعمالك ، وغفور ينسى الملائكة أفعالك ، وغفار ينسيك ذنبك .

الشكور : كثير الشكر لمن أطاع وأحسن ، وهو الذى يقبل اليسير من الطاعات ، ويقابلها بالكثير من النعم والدرجات ، ويكافىء بالعطاء الجزيل على العمل القليل .

العلى : الذى لا رتبة فوقه أبداً ، ولا يساويه شىء مطلقاً فى الشرف والمجد

والعزة ، وهو الذى علا عن إدراك ذاته ، وكبر عن تصور صفاته .

الكبير : العظيم القدر ، الجليل الشأن ، ذو العظمة والكبرياء ، وهو كبير بالقياس إلى كل ما سواه من الموجودات، فكلها صغيرة وحقيرة .

الحفيظ : الذى يعلم ما فى الكون جملة وتفصيلا ، علماً لا يتبدل بالزوال والسهو والنسيان ، هو الذى يحفظ الكون ، ويمنع ما فيه من التلف أو الضياع أو الاختلال .

المقيت : القادر المقتدر بحوله وقوته ، وهو المتكفل بإيصال أقوات الخلق إليهم ، حسية كانت أو معنوية ، لإمداد أجسامهم وأرواحهم .

الحسيب : المحاسب الدقيق فى حسابه لعباده ، وهو الكافى لمن توكل عليه ، وهو الذى إذا رفعت عليه الحوائج قضاها وإذا حكم بقضية أبرمها وأمضاها .

الجليل : ذو الجلال فى الذات والصفات ، وهو المستحق أن يعترف بجلاله وكبريائه العاقلون ، وقيل الجليل الذى أجل الأولياء بفضله ، وأذل الأعداء بعدله .

الكريم : ذو الكرم والجودة من غير طلب ولا سؤال ، والمتجاوز عن ذنوب المسيئين ، وهو الذى لا يضيع من توسل إليه ، ولا يترك من التجأ إليه .

الرقيب : الشاهد المطلع على ضمائر عباده وأسرارهم ، وهو من أسرارهم قريب ، وعند اضطرارهم مجيب ، لأنه هو الحاضر الذى لا يغيب .

المجيب : الملبى دعاء الداعين ، والمجيب نداء الراغبين فى إحسانه ، ولا يضيق بمطالب المحتاجين مهما كثرت ، ولا تخيب لديه آمال الطالبين .

الواسع : الذى وسعت رحمته كل المخلوقات ، والذى وسعت معرفته كل المعلومات ، والذى لا يحد غناه ، ولا تعد عطاياه

الحكيم : ذو الحكمة البالغة المنطوية على إتقان التدبير وحسن التقدير ، وقيل الحكيم الذى ليس له أغراض ، وليس على فعله اعتراض .

الودود : كثير الود والتودد لعباده ، وهو المتحبب إلى أوليائه بمعرفته وإلى المذنبين بعفوه ورحمته، وإلى العوام برزقه ورعايته .

المجيد : الرفيع القدر والشأن ، ذو الشرف ذاتا وصفات وأفعالا ، وهو الكثير الفضل والإحسان ، وهو الذى تمجده وتقدسه كل المخلوقات .

الباعث : باعث الخلق يوم القيامة ، وباعث الرسل إلى خلقه ، وباعث الإلهام فى القلوب لعمل الصالحات ، والذى يبعث بالمعونة والإغاثة لعباده .

الشهيد : هو الشاهد الحاضر الذى لا يغيب أبداً ، ولا يخفى عليه شىء ، وهو الشهيد : أى المشهود له بأنه يلزم العقول إثباته ، ولا يسعها إنكاره .

الحق : واجب الوجود ، المشهود له بالوحدانية ، والمعترف له بالألوهية ، وهو الذى وجوده ثابت لذاته أزلا وأبداً ، ومعرفته حق أبداً .

الوكيل : الكفيل بأمور عباده ، لأنه وكل إلى نفسه تدبير أحوالهم ، عن علم وقدرة ، وهو الذى يثنى جميلا ، ويعطى جزيلا ، لمن يرضى به وكيلا .

القوى : ذو القدرة البالغة حد الكمال ، وهو القادر الذى لا أحد ينصره ، ولا أحد يحصره ، ولا شىء يتعبه أو يجهده .

المتين : الشديد القوة الذى له كمال التأثير فى الغير ، وله سبحانه كمال الحال فلا يتأثر بالغير أبداً سبحانه جل شأنه .

الولى : المتولى للأمور والقائم بها ، وهو ناصر المؤمنين ، وهو المحب لأوليائه بغير علة ، وهو الجليس المؤنس لمن أحبه وذكره .

الحميد : المحمود الذى يستحق كل حمد وشكر ، وهو الذى يوفقك للخيرات ويحمدك عليها ، ويمحو عنك السيئات ولا يخجلك بذكرها .

المحصى : المحيط علماً بعدد مخلوقاته فى الأرض والسموات ، دقيقها وجليلها ، ويعلم عدد حركاتهم وسكناتهم وعدد أنفاسهم وألحاظهم .

المبدىء : الذى بدأ إيجاد الأشياء من غير سابق وجود لها ، وأظهرها من العدم ، وكل من فى الوجود منه بدأ ، وإليه يعود .

المعيد : الذى يرجع المخلوقات بعد موتهم وفنائهم ، لأنه وحده القادر على إعادة الحياة إلى كل معدوم .

المحيي : خالق الحياة وواهبها حسية ومعنوية لمن يشاء ، فيحيي العلقة والنطفة بخلق الحياة فيها ، ويحيي الأرض بإنزال الغيث ويحيي القلوب بذكره .

المميت : الذى بيده الموت ، فهو يسلب الحياة الحسية والمعنوية ممن يشاء كما يشاء ، وهو الذى يميت القلب بالغفلة ، ويميت العقل بالشهوة .

الحى : دائم الحياة ، فلا يجوز عليه موت ولا فناء ، لأنه واجب الوجود ومن كان واجب الوجود ، تلازمه الحياة ملازمة أبدية .

القيوم : القائم لذاته من غير بدء ، والدائم الإقامة والتقويم لشئون عباده والقائم بأسباب مخلوقاته ، وله وحده كمال القيام بذلك . فهو قيوم السموات والأرض .

الواجد : الغنى الذى لا يعوزه شىء ، ويجد كل ما يريد ، والعليم الذى يقدر على تنفيذ وإيجاد ما يريد ، وكل شىء حاضر بين يديه سبحانه وتعالى .

الماجد : المجيد ذو الرفعة والعزة ، وهو سبحانه لا يشاركه فى مجده ند ولا نظير ، وهو أهل لكل تمجيد .

الواحد : الفرد المتصف بالوحدانية فى الذات والصفات والأفعال ، ولا ينقسم

ولا يتجزأ ، ولا يثنى ولا يثلث ، ولا ولد له ، ولا والد ، سبحانه وتعالى .

الصمد : السيد العظيم المطاع الباقى الذى يصمد إليه جميع الخلق فى حوائجهم ويقصدونه فى نيل رغباتهم ، وهو الذى يطعم ولا يطعم

القادر : ذو القدرة على تدبير شئون ملكه وملكوته بلامعالجة ولاواسطة وهو المقدر لكل شىء ، قال تعالى : « قدرنا فنعم القادرون » .

المقتدر : دائم القدرة ، وبيده مقاليد الأمور لأنه قادر عليها ، ولا يستعين بأحد على تحقيق ما يريد ، لأنه على كل شىء مقتدر .

المقدم : الذى يقدم الأشياء فى المواضع أو الأزمان التى يرتبها حسب إرادته ، فهى تتقدم أو تتأخر طبق مشيئته .

المؤخر : الذى يؤخر الأشياء إلى أزمانها وأماكنها حسب إرادته ، وهو الذى يؤخر من يشاء عن معرفته ويؤخر الفجار ويشغلهم بالأغيار .

الأول : السابق قبل كل شىء ، فكان ولا شىء معه ، لا يتقدم وجوده وجود فى الأزل ، فهو الأول بلا بداية ، وأول بالوجوب والقدم والأزلية .

الآخر : الباقى بعد كل شىء ، إذ لا نهاية لآخره سبحانه وتعالى فهو آخر بلا انتهاء لأنه سبحانه منزه عن الزمان ، فلا يقال كان أو يكون .

الظاهر : الغالب الذى يظهر بالقدرة على كل شىء ، وهو الظاهر بالدلائل اليقينية والآثار التى تدل عليه بلا رؤية لذاته ، وهو الظاهر بالإحسان .

الباطن : المحتجب بجلاله عن إدراك الحواس ، وهو الباطن بلا اختفاء لشدة ظهوره ، وهو الباطن عن مشابهة المعقولات والمحسوسات والباطن الذى يعلم بواطن الأمور كلها فلا يخفى عليه شىء .

الوالى : المالك للأشياء ، المستولى عليها ، المتصرف فيها بمشيئته ، ويجرى عليها حكمه ، لأنه سبحانه الذى يتولى أمور مخلوقاته .

المتعالى : الذى ارتفع وتعالى عن كل ما سواه ، وشرف بقدرته وعظمته واستغنائه عما عداه ، بما له من الحق والسلطان على جميع المخلوقات .

البـــر : المحسن الذى زاد فضله وخيره على الطائعين بحسن الثواب ، والمنعم الذى يكثر عطاؤه فى الدنيا لعباده بنعم الصحة والمال والأولاد .

التواب : الذى يهيء لعباده أسباب التوبة مراراً وتكراراً ليقبلها منهم ، لأنه هو الذى يتوب عليهم ليتوبوا ، وهو الذى يقابل الاعتذار بالاغتفار .

المنتقم : شديد العقاب الذى يقصم ظهور الجبابرة الطغاة بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال ، وهو الذى من عرف عظمته خشى نقمته .

العفو : الذى يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصى ، ويزيل آثارها كرماً منه ، وقد يبدل الله بعفوه السيئات حسنات ، فضلا منه وإحساناً .

الرءوف : شديد الرحمة والرأفة بخلقه ، وهو المتعطف على المذنبين بالتوبة وعلى الأولياء بالكرامة والعصمة .

مالك الملك : الملك التام القدرة ، النافذ الإرادة فى مملكته ، فهو صاحب الأكوان علويها وسفليها ، وله مطلق التصرف فيها كما يشاء .

ذو الجلال : الذى لا جلال إلا لذاته ، ولا كرامة ولا مكرمة ولا إكرام والإكرام : إلا بفضله ، وقد عظمت ألوان كرمه التى لا تتناهى أنواعها على خلقه .

المقسط : العادل الذى يقضى بالحق ، وينتصف للمظلوم من الظالم ، بما فيه إرضاء للمظلوم ، ورضاء من الظالم .

الجامع : الذى اجتمعت له كل صفات الكمال والجلال والجمال ، وهو الجامع لقلوب العبـــاد على طاعته ومحبته ، وهو الجامع للناس فى يوم لا ريب فيه .

الغنى : المستغنى عمن سواه ، وله خزائن السموات والأرض ، فغناه تام لا ينقصه شىء ، ولا يفتقر إلى شىء ، والكل مفتقر إليه .

المغنى : واهب الغنى والثراء لمن يشاء من عباده . بغير سؤال ولا علة ولا غاية ، والخلق يفتقرون إلى الله تعالى لأنه الغنى المغنى .

المانع : الذى يمنع السوء ويرد أسباب الهلاك والنقصان فى الأبدان والأديان بما يخلقه من الأسباب الكفيلة بالحفظ والسلامة .

الضار : الذى يضر من عصاه ، وتكبر على عباده ، وبيده الأسباب لإيصال الضرر لمن يريد له المضرة ، ومنع وسائل الوقاية منها .

النافع : الذى يوصل النفع إلى من يشاء ، ويرشدهم إلى طريق الحصول إليه ، لأنه سبحانه مصدر كل نفع وخير .

النور : الذى ينور الكائنات وبه كل ظهور وكل هداية ، وبنور ذاته أضاءت الأكوان وظهرت ، لأنه سبحانه وتعالى نور السموات والأرض .

الهادى : المرشد إلى طريق الحق ، وهو الذى هدى من أراد من عباده إلى معرفته وأكرمه بنور توحيده ، وهو الذى ألهم خلقه سبل الهداية والسلام .

البديع : الذى لا عهد بمثله ولا شبيه له أزلا وأبداً ، وهو المبدع الذى فطر الخلق ابتداء على غير مثال سابق ، وأظهر عجائب صنعته وحكمته .

الباقى : الذى يبقى أبداً ، لأنه واجب الوجود ، ولا ينتهى تقدير وجوده فى المستقبل إلى آخر ، فهو الأبدى السرمدى ، الذى لا يفنى ولا يبيد .

الوارث : الذى يرث الأرض ومن عليها ، وتؤول إليه الأملاك بعد فناء الملاك ، لأنه الباقى بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شىء .

الرشيد : المنفرد بالرشاد والحكمة ، وينساق تدبيره إلى مواضعها من غير مشورة مشير ، ولا إرشاد مرشد ، فتصير الأمور إلى غاياتها .

الصبور : الحليم الثابت على الحق ، فلا تحمله العجلة إلى فعل شىء قبل أوانه ، بل ينزل الأمور بقدر معلوم ، وعلى سنن محددة النظام والأوان .

● هذه هى أسماء الله الحسنى ، وإنما ندعوك يا ربنا يا عظيم يا رحيم يا كريم بسرها الأسمى . ونورها الأسنى ، كما نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم نور صدورنا ، وربيع قلوبنا وجلاء حزننا ، وذهاب ، همنا . آمين .

من كلام الموحدين المخلصين

● ليس أحب إلى قلوب المؤمنين من مطالبة كلمات أولياء الله الموحدين المحبين لذات الله تعالى ، وليس أمتع إلى الأرواح من الاستماع إلى ابتهالاتهم ومناجاتهم لرب العزة ، ففى دعواتهم لمحات تضىء بنور الإيمان ، وفى توجيهاتهم لمعات من إشراقات وجدانهم الملهم ، ومن فضائل هذه الكلمات الروحية أنها تسبح بقارئها فى عالم الطهارة والقداسة والجمال ، وتسمو به إلى معارج الملأ الأعلى ، فتسمع القلوب على أنغامها العذبة ، أناشيد الحب فى الله تعالى وتستروح على ألحان أوتارها نسائم الشوق إلى ذاته العالية ، وما أكثر ما نجد هذه الضراعات الصادقة الجميلة ، والمناجاة المخلصة فى كلام أولياء الله الذين عرفوا الله بإيمان الروح ، التواقة إلى مرضاة ربها ، العاشقة لجماله وبهائه ، الظامئة إلى رشفة من رحيق محبته تعالى ، وهؤلاء الأولياء هم الذين خلوا

عقولهم وتفكيرهم من بحث الذات والصفات ، وخلصوا أنفسهم من كلام المتكلمين فى الجدليات ، واتجهوا إلى إخلاص العبادة لله تعالى ، سراً وعلانية .

• وإليك ما يقوله أبو حيان التوحيدى فى بعض مواقف مناجاته :

« اللهم إنى أبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الرضا إلا عنك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التوكل إلا عليك، ومن الطلب إلا منك ومن الرضا إلا عنك، أسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمتك شعارى ودثارى ، والنظر إلى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شأنى وشغلى ، والخوف منك أمنى وإيمانى ، واللياذ بذكرك بهجتى وسرورى » .

• ومن ضراعات الخواص قوله :

« اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب قوى عليه بدنى بعافيتك ، ونالته يدى بفضل نعمتك ، وانبسطت إليه بسعة رزقك ، واحتجبت فيه عن الناس بسترك ، واتكلت فيه على أناتك وحلمك ، وعولت فيه على كريم عفوك ، اللهم إنى أعوذ بك ، أن أقول حقاً فى رضاك . وألتمس به أحداً سواك ، وأعوذ بك أن أتزين للناس بشىء يشيننى عندك ، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك، وأعوذ بك أن يكون أحداً من خلقك أسعد بما علمتنى منى » .

• ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه الغوالى الخوالد :

« إلهى ماذا وجد من فقدك وما الذى فقد من وجدك ، لقد خاب من رضى دونك بديلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا ، إلهى كيف يرجى سواك ، وأنت ماقطعت الإحسان ، أم كيف يطلب غيرك ، وأنت ما بدلت عادة الإيمان » .

« إلهى كيف يستدل عليك ، بما هو فى وجوده مفتقر إليك ، أيكون

لغيرك من الظهور ما ليس لك ؟ حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ إلهى عميت عين لا تراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيباً » .

« إلهى أخرجنى من ذل نفسى ، وطهرنى من شكى وشركى قبل حلول رمسى ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى » .

● ويقول ولى الله السيد إبراهيم الدسوقى فى مناجاته :

لما علمت بأن قلبى فارغ ... ممن سواك ملأته بهواكا
وملأت كلى منك ولم أدع ... منى مكاناً خالياً لسواكا
فالقلب فيه هيامه وغرامه ... والنطق لاينفك عن ذكراكا
والطرف حيث أحيله ملتفتاً ... فى كل شىء يجتلى معناكا
والسمع لا يصغى إلى متكلم ... إلا إذا حدثوا بحلاكا

● ومن شعر رابعة العدوية رضى الله عنها فى المناجاة الربانية :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك تصفو والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

وقالت الطاهرة التقية السيدة زينب بنت الإمام على كرم الله وجهه فى تسليم الأمور لله تعالى :

سهرت أعين ونامت عيون ... لأمور تكون أو لا تكون
إن ربا كفاك ما كان بالأمس ... سيكفيك فى غد ما يكون
فادرأ الهم ما استطعت عن النفس ... فحملانك الهم جنون

• ولسلطان العاشقين عمر بن الفارض فى الحب الإلهى :

أنتم فروضى ونفلى … أنتم حديثى وشغلى
يا قبلتى فى صلاتى … إذ وقفت أصلى
جمالكم نصب عينى … إليه وجهت كلى
وسركم فى ضميرى … والقلب طور التجلى
أنا الفقير المعنى … رقوا لحالى وذلى

• ومن فيض الإلهام قول شاعر الأولياء الشيخ على عقل :

أسعى لخلاق وأقصد وجهه … وعن المسير إليه لن أتخلفا
يا مالكا روحى ومانحها الهدى … انظرّ إلى فأنت أكرم من عفا
إن قيل من ؟ قلت امرؤ فى ربه … ساع ، وهذا فى انتسابى قد كفا
لا والذى غمر العباد بفضله … إنى بغير الله لن أتشرفا

ومن فيض الإلهام :

إن الذى أشرقت فى الله وجهته … فإنه بعطاء الله محدود
أفرغ دموعك حباً فى جلالته … عسى ينالك باسم الله تأييد
سارع إلى الله معتزاً برحمته … فالكل عبد ورب الكل معبود

• ومن مناجاة زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما : « اللهم لك قلبى ولسانى ، وبك نجاتى وأمانى ، وأنت العالم بسرى وإعلانى ، فأمت قلبى عن البغضاء وأصمت لسانى عن الفحشاء ، وأخلص سريرتى وعلانيتى من علائق الأهواء ، واكفنى بأمانك عواقب الضراء ، واجعل سرى معقوداً على مراقبتك ، وإعلانى موافقاً لطاعتك ، وهب لى جسما روحانياً ، وقلباً سماوياً ، وهمة متصلة بك ويقيناً صادقاً فى حبك » .

• وقال أحد المحبين لله تعالى فى التذكير :

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا … فإنا منحنا بالرضا كل من أحبنا

ولذ بحمانا واعتصم بجنابنـــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وسلم إلينا الأمر فى كل ما يكن فما القرب والأبعـاد إلا بأمرنا
ولا تعترضنا فى الأمور فكل من أردنا أحببنـاه حتى أحبنـــا
وسر نحونا لا تخش فى الليل ظلمة وكن ذاكراً فالأنس فى طيب ذكرنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل ولا تنسنا واقصد بذكرك وجهنا
ولا تنس إحساناً بسطناه عندما جهلت فقربنـاك حتى عرفتنا
بدأناك بالخيرات تأتى بضـدها مع العلم والإقرار أنك عبـدنا
كفيناك أغنيناك عن سائر الورى فلا تلتفت يوماً إلى غير وجهنا

* وللشيخ العارف بالله على نور الدين البيومى قوله :

كل له ورد يكون وسيـــلة لمعـــاشه ومعـــاذه ومعـاده
وجعلت وردى فى الخروج عن السوى وأكون مع مولاى تحت مـراده

ومن فيض الإلهام قول شيخ الأولياء الشيخ إبراهيم أبو خليل :

رجاء السائلين دعـــوت فامنح عطـاءك لى فأنت تجيب سؤلى
أراك معاهـــدى فى كل أمر وحالى أنت تعلمـــه فكن لى
ووجهنى إليـــك شعور قلبى بأنك لى فعـــدت بكل فضل
فسلمت الجـــوارح مستمداً بنصرك لى وأنت منـار عقلى
سألتك باسمـك المكنون سراً ونوراً فى رضاك يلم شمـــلى

* وإذا شاء القارىء الاستزادة عن مطالعـة كلام أولياء الله المحبين لذات الله العلية فيمكنه قراءة ديوان ابن الفارض وغيره من دواوين أحباب الله مثل كتاب شعـاعر الأولياء ، وما جاء فى كتابى « مع الله » وكتابى « الله والأشواق الروحية [1] » .

---

(١) الناشر : دار الفكر العربى .

الباب الثالث

وأشهد أن محمداً رسول الله

قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيـــل كزرع أخرج شطأه فـآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » .

(سورة الفتح)

دعوة الرسل

• اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث فى الناس رسلا مبشرين ومنذرين ، وأن يكون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً لأولئك الرسل ، ويعلم الله أن الدعوة إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل محفوفة بالمخاطر ، محوطة بالأشواك ، ومن شأن هذه المخاطر أن تكون ذريعة لتثبيط همة الداعى ، وتسرب اليأس إلى نفسه ، فكان من الخير أن يحال بين اليأس ، وبين قلب رسوله ، وأن يريه أن هذه العقبات التى تعترض الداعى ، وتلك الشدائد التى يراها المصلح ، لا غنى له عنها ، وأنها سنة فيمن سبقه من الرسل ، قال تعالى : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » .

• وكيف ينجو المصلح من أهوال هذه الشدائد ، ومهمته أن يحول بين النفوس وشهواتها ، والقلوب وأهوائها ، ويحاول أن يرسم لها طريقا غير طريقها ، ليباعد بينها وبين ما ألفت من الشهوات ، ويقارب بينها وبين ما تركت من الفضائل ، فهو مرب يريد أن يخلق الناس خلقاً جديداً ، ومهذب يحاول أن ينشئهم نشأة صالحة ، وكثيراً ما تستحكم الشهوات ، ويتمكن الفساد إلى حد كبير ، كالأمة العربية فى جاهليتها ، فيحتاج المصلح إلى شىء كثير من الصبر واحتمال المكاره ومن نماذج غير قليلة من سيرة المصلحين السابقين يذكر بها نفسه وقومه . فلا عجب أن تكون سيرة الرسل الماضين جزءاً من دعوة خاتمهم ، وأن تكون دعوتهم لأقوامهم مثلا صالحا لدعوته لقومه ، لا عجب أن تكون أنباء الرسل تثبيتاً لقلبه ! وموعظة للغافلين والمتشككين .

• أبان الله تعالى لرسوله محمد ﷺ فى سيرة الرسل الماضين أن العاقبة

للتقوى ، وأن جند الحق هو الغالب : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون » كما أراه تعالى أن حزب الباطل لا يصلح الله عمله ، وأن الدائرة تكون عليهم ، تلك هي الغاية من ذكر سيرة الرسل في القرآن الكريم ، وتكرار القصة في عدة سور بأساليب مختلفة ، وهي تمكين هذه السنن في النفس ، وتثبيتها في القلب ، حتى لا يجد اليأس إلى قلب الداعي سبيلا ، فتقوى فيه دوافع الإصلاح ، وكثيراً ما يسلي القرآن نبينا محمداً ﷺ بما كان يقال لسلفه من الرسل : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة ، وذو عقاب أليم » .

● وإن الذي يتأمل تاريخ أولئك الرسل يجدهم متفقين على دعوة الناس إلى التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء ، والإيمان بالرسل جميعهم ، لا فرق بين رسول ورسول ، وإن المكذب لرسول من رسل الله تعالى مكذب للرسل جميعهم : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ، والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيما » .

● وكانت دعوة الرسل كلهم واحدة أساسها التوحيد ، والعمل الصالح ، والخلق الطيب ، وعلى هذه الأصول اتفقت دعوتهم ، واجتمعت كلمتهم ، وبذلك كانت الشرائع متحدة في أصولها وغاياتها ، وإن تفاوتت في مشاربها وأساليبها ، وكان لكل رسول عناية خاصة بمرض من الأمراض التي تحيق بقومه ، ومما يلفت النظر في دعوة نوح عليه السلام صبره على الدعوة زمناً طويلا ، قال تعالى : « فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما » فليعتبر بذلك الدعاة الذين يغلب على نفوسهم اليأس ، ومن مواطن العبرة في قصة نبي الله صالح عليه السلام أن الذي عقر الناقة واحد من قومه ، وقد عمهم العذاب .

لأنهم رضوا عن عمله ، ليعلم الناس أنهم إذا لم يأخذوا على يد الظالم عمهم الله بعذاب من عنده ، وفى قصة إبراهيم عليه السلام نجده يهتم كثيراً للتوحيد لتفشى الوثنية فى عهده ، ونبى الله لوط عنى بمحاربة الفاحشة التى فشت فى قومه ، ونبى الله شعيب حث قومه على الأمانة فى الكيل والميزان ، ونبى الله موسى حارب ظلم فرعون وطغيانه ، وحاول خلق روح العزة والكرامة فى نفوس بنى إسرائيل الذين ألفوا الذل والهوان زمناً طويلا ، وأخيراً دعوة نبينا محمد ﷺ ، وحسبها أنها الدعوة الباقية إلى قيام الساعة ، والمتفقة فى أصولها العامة ، مع الأزمنة المقبلة ، والملائمة لرشد الناس وثقافتهم التى أعدهم الله لها فى قرونهم الأخيرة .

● تلك هى دعوة الرسل إلى الله تعالى ، أولهم نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ ، كلها هدى وخير ، وحكمة وعظة وتذكير للناس ، قال تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق ومُوعظة وذكرى للمؤمنين » .

(من كتاب دعوة الرسل إلى الله تعالى الشيخ محمد أحمد العدوى)

الرسالة العامة

● نريد بالرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان ، وموفيه ما لا غنى له عنه . كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجتها ، ومقومات وجودها على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود ، والكلام فى هذا البحث من وجهين :

● الأول : أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان ، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ، ومنذرين بعقابه ، وقد قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته ، وتبيين لسطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لأحكامه فى فضائل أعمال ،

وصفات يطالبهم بها ، وفى نقائص فعال وخلائق ينهاهم عنها ، وأن يعتقد وجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم ، والائتمار بما أمروا به ، والكف عما نهوا عنه ، وأن يعتقد أن منهم من أنزل الله عليه كتباً تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ، ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها ، وأن هذه الكتب التى أنزلت عليهم حق ، وأن يؤمن أنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ، ولا للاستطاعة البشرية ، وأول هذا الأمر الفائق المعروف البشر ، هو المعجزة الدالة على صدق النبى فى دعواه .، فمتى ادعى الرسول النبوة ، واستدل عليها بالمعجزة ، وجب التصديق برسالته .

● الثانى : إن من لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقولهم وصدق أقوالهم وأمانتهم فى تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل مايشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار ، وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات المتقدمة ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما يمكن معه لنفس إنسانية أن تستطيعه استطاعة روحانية ، أما فيما عدا ذلك ، فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده ، يأكلون ويشربون وينامون ، ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون ، وتمتد إليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الأنبياء [١] .

---

(١) من كتاب رسالة التوحيد .

الرسل والأنبياء

● اصطفى الله جل شأنه من بين خلقه عباداً اختصهم بفضله ، وميزهم بمواهب أهلتهم لأن يكونوا أنبياءه ورسله إلى مخلوقاته ، فقد اقتضت حكمته تعالى البالغة وإرادته المطلقة أن تكون هناك صلة بينه وبين عباده ، تتم بها نعمته ، ويكتمل بها دينه وهدايته ، وتتبين بها أحكامه وشريعته ، فاختار فى كل عصر ، ولكل أمة رسولا منهم ، ألهمه روح الفضائل والكمالات ، وأفاض عليه فيوضات علمه وحكمته وأنوار معرفته ، ومحاسن تأديبه ماجعله المثل الأعلى ، والقدوة الكاملة للإنسان وكان من تمام رحمته أن جعل الرسول إنسياً منهم ، وبشرياً مثلهم ، ليمكن اتصالهم به ، وانتفاعهم منه ، قال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

● وفى هذا الإرسال ، وذلك الاصطفاء ، إظهار لعدل الله ورحمته ، وتحقيق لمشيئته وإرادته ، كما قال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

هذا والنبى إنسان أوحى إليه بشرع ليعمل به ، ولم يؤمر بتبليغه ، وأما الرسول فهو إنسان أوحى إليه بشرع يعمل به ، وقد أمر بتبليغه ، ويشترط فى الرسول أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلا ، أكمل أهل زمانه . سليما من دناءة الآباء . وحقارة الحرف . ومن كل منفر طبعاً .

● ولله سبحانه رسل كثيرون أرسلوا إلى الأمم السابقين فى مختلف العصور ، حينما اشتدت الحاجة إليهم ، وتعطشت الانسانية المعذبة لتعاليمهم وإرشادهم ، وتطلعت إليهم لانقاذها ، وإخراج الناس من ظلمة الجهل والطغيان ، إلى نور المعرفة والإيمان . وقد اختلف العلماء فى عددهم . إلا أنه

روى مرفوعا عن أبي هريرة عن أبي ذر رضى الله عنهما ، أنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا .

● واتفقوا على أن الواجب معرفته منهم كل على مكلف خمسة وعشرون رسولا ، لأنهم هم الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن الكريم وهم : آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ويونس وشعيب وموسى وهارون وزكريا ويحيى وأيوب وذو الكفل وداود وسليمان واليسع وإلياس وعيسى ونبيا محمد ﷺ . وقد أيدهم الله سبحانه وتعالى بمعجزات قاهرة ، وآيات باهرة تدل على صدقهم ، والاستنارة بهديهم ، فقد قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات . وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » أما أنبياء الله فهم كثيرون ، ويقدرون بنحو مائة وعشرين ألفا .

ترابط أنساب الرسل الذين ذكرهم القرآن

● هناك سلسلة من الترابط فى الأنساب بين الرسل الذين قص علينا القرآن المجيد قصصهم ، وإليك نبذة موجزة فى ذلك :

١ — فى الفترة ما بين رسالة آدم عليه السلام ورسالة نوح عليه السلام وهى فترة ما قبل الطوفان لم يبعث الله سوى رسول واحد هو إدريس عليه السلام .

٢ — وكان لنوح ثلاثة أولاد انتشروا فى الأرض وهم :

(أ) يافث ومن ذريته شعوب الترك والصين ويأجوج ومأجوج وغيرهم .

(ب) حام ومن سلالته رسل الله هود وصالح وشعيب ، وقد بعثوا إلى أقوام عربية بادت ولم يبق منهم أحد .

---

(١) تلخيص كتاب « العقيدة الإسلامية وأسسها » لمؤلفه الأستاذ عبد الرحمن الميكداني .

(ﺣ) سام ومن سلالته سيدنا إبراهيم الخليل وهو عم لوط عليه السلام .

٣ — وجاء من ذرية إبراهيم الخليل عليه السلام وهو المعروف بأبى الأنبياء ثمانية عشر رسولا ، ويقول المولى تبارك وتعالى فى حقه : « وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب » .

٤ — ومن أبناء إبراهيم الذين أكرمه الله بهم إسماعيل وإسحاق ، أما إسماعيل عليه السلام فقد نشأ مع أمه هاجر فى مكة ، ولما كبر واشتد ساعده تزوج سيدة عربية من قبيلة جرهم ، ثم كان من سلالته خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ . وأما إسحاق فقد نشأ فى الشام ورزق بولدين عيص (عيسو) ويعقوب (إسرائيل) .

وقد ظهرت النبوة فى سلالة عيص فى الرسولين أيوب وولده ذى الكفل .

وأما يعقوب فقد كثر فى ذريته النبوة ، لأن فيهم ظهر جميع أنبياء بنى إسرائيل ، ومعلوم أن يعقوب عليه السلام كان له اثنا عشر ولداً هم أسباط بنى إسرائيل[1] أحدهم يوسف عليه السلام الذى تولى خزائن مصر فى عهد الفراعنة .

• وأما باقى الأسباط فقد ظهرت النبوة فى سبط لاوى فى موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، وفى إلياس عليه السلام، وقيل أن نسبه يتصل بأفرايم بن يوسف عليه السلام .

• وظهرت النبوة فى سبط يهوذا فى داود وابنه سليمان عليهما السلام، كما ظهرت فى زكريا وابنه يحى عليهما السلام ، ثم ظهرت أخيراً فى عيسى المتصل نسب أمه مريم بداود أيضاً .

وظهرت النبوة فى سبط بنيامين يونس عليه السلام كما قيل .

---

(١) هؤلاء الأسباط هم: بنيامين ويوسف وروبين، وشمعون ،ويهوذا ولاوى ، ويشاكر وذوبولوك ودان ونفتالى ، وجاد ، وأشير .

• وجميع رسالات هؤلاء الأنبياء والرسل واحدة فى جوهرها وأصولها وعقائدها ، ومتكاملة فى شرائعها ، وكلها تدعو إلى توحيد الله .

الواجب فى حق الرسل والمستحيل

يجب فى حق الرسل أربع صفات وهى : الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، ويستحيل فى حقهم أضدادها وهى الكذب والخيانة والكتمان والبلادة ، ويجوز فى حقهم الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية ، كالأكل والشرب ، والمرض والموت ، واللذة ، والألم .

والمقصود بالصدق مطابقة ما يخبر به للواقع ، وأن كل رسول صادق فيما يبلغ عن ربه ، قال تعـــالى : « وصدق الله ورسوله » وقوله تعالى : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين ،ثم لقطعنا منه الوتين» وهذه الآية رد على المشركين الذين اتهموا الرسول بالكذب ، وأن القرآن ليس من عند الله ، وأنه افتراء وادعاء ، فبين سبحانه أنه لو افترى الرسول وادعى قولا لم يقله ، لبطش به ، وانتقم منه بقدرته ، لكن الله يحبو رسله برعايته ، وينصرهم على مخالفيهم ، ويؤيدهم بمعجزاته ، فكان ذلك دليلا على صدقهم ، وقد وردت آيات تثبت صدق الرسل والأنبياء كقوله تعالى: « واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً » وقوله : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً » وقوله تعالى : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد » .

والمقصود بالأمانة حفظ الله لهم ظاهراً وباطناً عما نهى عنه ، وعصمته إياه من سائر الذنوب صغيرها وكبيرها قبل البعثة وبعدها . والدليل على ذلك قوله تعالى : « وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » فهذا دليل على أن الرسل صفوة الخلق ، وأنهم أخيار أبرار لا ترقى إليهم الشبهات ، وقوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » فهذا يؤكد أن الرسول

لا يمكن أن يذنب أو يخالف أمر ربه فى أى أمر من الأمور ، وإلا لما صح أن يجعله قدوة حسنة يقتدى الناس بها .

والمقصود بالفطانة اليقظة والذكاء وقوة الحجة وسداد الرأى، والحرص على مجادلة الخصم لإلزامه الحجة ، وإبطال شبه المنكرين ، وقد أيدهم الله بالمنطق السديد والحكمة وقوة البيان ، وقد استطاعوا بهذه الوسائل إقناع الناس وهدايتهم إلى طريق الحق والرشاد فآمنوا بهم ، قال تعالى : « وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » وقوله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » .

وأما الدليل على أنهم خاضعون للقوانين البشرية، ويجوز عليهم مايجوز على الناس فهو مشاهدة أهل زمانهم لأحوالهم، وقد ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق» وقوله تعالى: « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية » وقوله تعالى : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ، وأنت أرحم الراحمين » وقوله تعالى : « قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولا » .

بيان الحاجة إلى الرسل

كل إنسان مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته ، وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته ، وأنه محكوم بإرادة تصرفه، لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين ، وتشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى ، فتطلبها من حسها تارة ، ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها إلا الطريق التى حددت لنوعها وهى طريق النظر ، فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر ، فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها ، أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من بهرته الأشجار والأحجار لاعتبارات

له فيها . ومنهم من تبدت له قوى مختلفة فى أنواع متفرقة ، فجعل لكل نوع إلها .

لكن كلما رق الوجدان ، ولطفت الأذهان ، ونفذت البصائر ارتفع الفكر ، وجلت النتائج ، فوصل من بلغ بعقله بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى إلى أنها قدرة واجب الوجود ، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه ، فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه ، فبقى الخلاف دائماً ، والرشد ضائعاً .

اتفق الناس فى الإذعان لما فاق قدرهم ، وعلى متناول استطاعتهم ، لكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له اختلافاً كان أشد أثراً فى التقاطع ، وإثارة أعاصير الشقاق فيهم ، من اختلافهم فى فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم .

والإنسان عجيب فى شأنه ؛ يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ، ويسامى بقوته مايعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل ، وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر مالم يعرف سببه ، ولم يدرك منشأه ، ومن ذلك الضعف قيد إلى هداه ، ومن تلك الضعة أخذ بيده شرف سعادته ، إذ واتته عناية الله من أضعف الجهات فيه ، وهى جهة الخضوع والاستكانة ، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميزهم بخصائص فى أنفسهم ، لا يشركهم فيها سواهم ، وأيدهم بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق عن سوابق العقول ، فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويصدق بها عقل العاقل ، فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل ، فيرتد عن غيه ، يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، ويعلمون الناس ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم . وماأراد

أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته ، وأولئك هم الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم ، فبعثة الأنبياء من متممات حياة الإنسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة أتمها الله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) .

الوحى

يختار الله رسله الذين يلقى إليهم ما يريد أن يبلغوه بالوحى ، والوحى فى لغة العرب إعلام مع خفاء وسرعة ، وللوحى مراتب وهى :

١ — أن يخاطب الرسول فى النوم ، وتلك هى الرؤيا الصادقة ، وذلك لقوله تعالى : « يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « رؤيا الأنبياء حق » « ونحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ، ولا تنام قلوبنا » .

٢ — أن يلقى ما يراد إلقاؤه فى قلبه ، من غير وساطة وهو يقظان ، وذلك هو المسمى بالإلهام ، والإلقاء فى الروع .

٣ — أن يرسل الله إليه رسولا يخبره بما يريد إعلانه إياه ، وهو المسمى بالملك ، فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله : « إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين » .

٤ — أن يسمعه الله كلامه مباشرة ، كما حصل لموسى عليه السلام حين سمع من العليقة المتقدة فى الوادى المقدس ، قال تعالى : « فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك ، فاخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى » .

وسئل الرسول ﷺ : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ ، فينفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى رجلا فأعى ما يقول » وكان ﷺ يوحى إليه فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً ، وأول ما بدأ به الرسول

ﷺ الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

ومن الأمور البدهية أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضا ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، وأن ذلك ليس لتفاوت فى التعليم فقط ، بل لأن بعض النفوس البشرية يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ، ما يؤهله للاستمداد من الفيض الإلهى ، حتى تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقله ، وتتلقى عن العليم الحكيم ، ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا من أساتذة التعليم ، ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ، ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم .

(من كتاب رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده)

الحالة الدينية بجزيرة العرب

لم يكن للعرب فى جزيرتهم المترامية الأطراف فى جاهليتهم وحدة سياسية تجمعهم ، بل عاشوا فى أرجائها المتباعدة جماعات متعادية ، وقبائل متنافرة ، ولم يكن لهم دين واحد يربطهم برباط المودة والأخوة ، بل كانت كل ناحية من نواحى الجزيرة تدين بمعتقدات يختلف بعضها عن بعض ، منها ما أتى به الوافدون من الخارج ومنها ما نشأ من طبيعة البيئة ووحيها ، ففى قلب الجزيرة عاش الأهالى هناك فى شبه عزلة عن العالم ، وفى هذه البيئة البدائية سيطرت على عقول السكان السذج معتقدات جاهلية خرافية أساسها الوهم بوجود أرواح تحرك مظاهر الطبيعة . وتسخر الرياح والأمطار والنجوم والكواكب لأمرها ، أو تتقمص ما حولهم من الأشجار والأحجار والرمال والآبار ، كما توهم غيرهم وجود أحياء شريرة تؤذى الإنسان وتضره ، وسموها الجن والعفاريت ، ولعلها كانت بعض الحيوانات المفترسة التى عاشت هناك ، وكانت تهاجمهم أحياناً .

وفى أطراف الجزيرة شرقاً ، وعلى مقربة من بلاد فارس وجزر البحرين وما جاورها قامت عبادة النار ، وقد اعتنق هذه العبادة المجوسية قبائل تميم ، وزرارة ، ولم تكن هذه العبادة تكلف معتنقيها بناء هياكل ولا نحت أصنام ، وكذلك ظهرت حول هذه الجهات عبادة الكواكب وكانت الصابئة هم أصحاب هذه العقيدة ، إذ كانوا ينسبون خلق العالم ، وما يجرى فيه من أحداث ، إلى أحكام هذه النجوم ، ولكن هذه العبادة لم تنتشر بين الناس لكثرة قيودها وأشراطها وما تتطلبه من العزل والاعتكاف ، فلا يصل إلى أسرارها إلا من تعمد البحث عنها ، وقبل تكاليفها .

وفى الأطراف الجنوبية من الجزيرة انتشرت اليهودية قبل الإسلام بقرون فى اليمن ، وقد اعتنقها حكامها ، كما أن اليهودية ظهرت فى مستعمرات تكونت فى يثرب وتيماء وخيبر ، وأشهر قبائلها بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة ، وقد قال بعض المؤرخين أن هؤلاء اليهود كانوا ممن هاجروا من الشمال من أرض كنعان كلما أصابهم القمع والتشريد من فاتح جديد ، أو كلما أصاب بلادهم جدب شديد ، وجاء بعضهم من الجنوب من ناحية اليمن حيث كانوا كثرة هناك ، ولم يكن اليهود فى بلاد العرب أصحاب رسالة دينية أو روحية يروجون لها ، لاعتقادهم أنهم هم وحدهم شعب الله المختار ، فلا يبشرون غيرهم بدينهم ، لئلا يصبحوا مثلهم من الشعب المختار ، والحقيقة التى ما زالت الأيام ترددها ، وتؤكدها أن اليهود دعاة فتنة ورسل إفساد أينما كانوا ، وأنهم قوم لا هم لهم فى الحياة إلا جمع المال واكتنازه ، وليس أدل على قبح سريرتهم من أنهم كانوا يؤكدون للعرب كلما سألوهم عن صدق دعوة الرسول ، وعن أيهما أفضل عبادة الأوثان أو اتباع دين محمد عليه السلام ، فكانوا يؤكدون لهم أن عبادة أصنامهم أفضل من عبادة الله الواحد ، وذلك طمعاً فى تفريق كلمة العرب ، وعدم اتحادهم تحت راية واحدة ، لأنهم رأوا فى طلائع الدين الجديدة ، قوة ترهبهم ، وقد صدقهم أكثر العرب ،

، لو أنهم فكروا قليلا لعلموا أن ما يقوله اليهود كذب محض ، لأن دينهم الموسوى سداه ولحمته التوحيد ، وترك عبادة الأوثان والأصنام .

وكانت المسيحية منتشرة فى جزيرة العرب بحكم الرحلات والعلاقات التجارية والسياسية مع جيرانها وبخاصة فى القبائل التى تتاخم حدودها بلاد الروم مثل قبائل تغلب وقضاعة وغسان ، أو تجاور بلاد الحبشة فى الجنوب ، ورغم وجود المسيحية بين سكان الجزيرة ، إلا أنه لم يكن لها أثر يذكر فى نفوس العرب قديماً ، لأن دعوة المسيحية إلى السلم والاستسلام واجتناب الحرب والقتال لم تلق استجابة فى بلاد تغلب على طبيعة أهلها وظروفها المعيشية روح النضال والكفاح من أجل الماء والمرعى ، ودوام التشاجر والتناحر والأخذ بالثأر لعدم وجود قانون أو سلطة تنفيذية للفصل بين الناس ، هذا فضلا عما كان فى الدين المسيحى وقتئذ من انقسام بين رؤسائه على جوهر العقيدة ، فقد ظهرت نحل ومذاهب مختلفة منها الاريوسية والنسطورية واليعقوبية والملكانية [1] . وكل نحلة منها تكفر أختها وترميها بالمروق والهرطقة ، لما بينها من خلاف شديد ، وأقوال متضاربة فى الطبيعة الإلهية ، ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها .

---

(١) تضاربت الأقوال فى طبيعة المسيح وفى الأقانيم الثلاثة ، وهى الآب والابن وروح القدس ، وهل المسيح هو هذه الثلاثة الأقانيم مجتمعة ، أم هو إله وبشر ، أم هو إله فقط ؟ وقد اشتد الجدال بين أصحاب الفرق المسيحية المختلفة ، وليس لنا شأن بما قرره مجمع ليقية الكنسى وقتئذ ، وإنما نعرض أمام نظرك ما تدعو إليه هذه المذاهب للتعرف عليها : يقول المذهب الأريوسى بوحدة الله وعدم قبولها للتجزئة ، ويقول بأن المسيح حادث مخلوق خلقه الله من العدم ، وهذا يعارض قول القائلين بأنه كان منذ ولادته وظهوره فى صورة بشرية بين الناس متحداً بذات الله اتحادا جوهرياً .

ويقول مذهب اليعاقبة أن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا فى المسيح وصارتا فيه واحدة ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، أما بعد فصار ذا طبيعة واحدة .

ويقول مذهب الملكانية أن الابن المولود من الأب قبل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصار واحدا وهو المسيح .

هذا ولقد دققنا فى البحث وحاولنا تحليل النفسية العربية الجاهلية وقتئذ فلم نجد فيها تحمساً للأمور الدينية أو التعمق أو التعلق الشديد بها ، وكانت طقوسهم الدينية تجرى رتيبة بحكم العرف والعادة والتقليد دون بحث فى حقيقتها ، أو تعرف على أصولها ، أو تحكيم للعقل فى صحتها ، ويدل على هذا الاتجاه منهم أن ديوان شعرهم الجاهلى لم ينطق بقصائد تعبر عن مشاعرهم الدينية أو الروحية ، ثم إن التاريخ يحدثنا عن الأصنام ، ويخبرنا أنها نقلت إليهم من خارج بلادهم ، فقد قيل أن عمر بن لحى الخزاعى بعد أن آل إليه أمر البيت ورياسته ، نقل إليه أول صنم وهو هبل وكان على صورة شخص بشرى ، وقد جاء به من البلقان بالشام حيث تصنع هذه الأصنام وتعبد ، وأخذت القبائل بعد ذلك تتبادى فى صنع أصنامها بأحجام وأشكال ومواد مختلفة وتوضع بالكعبة لعبادتها .

وقبيل ظهور الإسلام كان بالجزيرة وفى مكة وما حولها بقية من أتباع ملة إبراهيم وإسماعيل، وقد فطنوا إلى ماوصل إليه قومهم من شرك وضلال، وفكروا فى التخلص من العادات الجاهلية مثل وأد البنات وشرب الخمر والميسر ، وقد زاد أنصار هذه النزعة التى تؤمن بوجود إله واحد يحاسب الناس ويجازيهم على أعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ويطلق على هذه النزعة التحنف أو التحنث ، وعلى أتباعها الحنفاء أو التائبون .

وعندما جاءت الرسالة المحمدية تدعو الناس إلى توحيد الله ، قابلها القرشيون واليهود والنصارى بالوجوم والعناد والعداء ، وبلغ بهم الاضطراب والتخبط فى سلوكهم إزاءها ما تفسره لك المواقف الآتية :

فالعرب الوثنيون بمكة هالهم الأمر فثاروا وهددوا وتوعدوا ، وحاولوا صرف النبى عن دعوته التى سفه بها أحلامهم ، وعاب بها آلهتهم ، ثم إنهم وعدوه أن يقدموا له كل مايطلب من مال وجاه ومنصب ، إذ هو ترك هذا الأمر ، ولكنه رفض ، وتعرض لكل أنواع الأذى والإيذاء سنوات

طويلة ، ولو لم يكن الرسول مرسلا حقاً من ربه لأغرته هذه العروض وقبلها لأنه كان بحكم فقره فى أشد الحاجة إليها ، وقد عانده أهل مكة من حولها وقالوا : كيف ننقاد إلى رجل فقير، ونذعن لرجل غير عظيم ، وظل الرسول صامداً مجاهداً حتى نصره الله ، وأظهره على أعدائه ، وصارت كلمة الله هى العليا .

أما اليهود فكان موقفهم من الدعوة الإسلامية موقف الحاقدين المتربصين ، وكان لجبنهم وحرصهم على أموالهم يبطنون غير ما يعلنون ، ويتآمرون سراً مع أعداء النبى أملا فى كسر شوكة الإسلام والمسلمين ، وكانت لهم أعمال إجرامية سجل التاريخ بها خبثهم ، ودمغ بها مكرهم ، وقد انتهى أمرهم بأن أحبط الله كيدهم ، وأنزلهم من صياصيهم ، إذ أجلاهم الرسول عن مواطنهم التى اتخذوها أوكاراً للدسائس والمكائد ضد المسلمين ، ونزلت آيات القرآن ناطقة بحقيقة أمرهم فى قوله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » .

أما المسيحيون فكانوا أخف وطأة من اليهود ، لأنهم وقفوا موقف المهادن المتفرج ، ومنهم من بهرتهم أنوار الدعوة وأسلموا ، ومنهم من كابروا وتعصبوا لمسيحيتهم ، وادعوا أنه لم يرد فى التوراة والإنجيل نص يدل على ظهور نبى من العرب ولا نريد الخوض فى حقيقة ما فى كتبهم المقدسة من ذكر ذلك أو عدمه ، ويكفى أن القرآن الكريم نص على ذلك فى قوله تعالى : «وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » ومنهم من أعماهم الحقد على الرسول فأخذوا يدسون على الإسلام المفتريات والشبهات فى أمور لا يفهمون حقيقتها وحكمتها فى شأن حروبه وزواجه ومسألة الرق وتعدد الزوجات ، مع أن الذى يهم فى أمر الإسلام مبادئه وقواعده التى يقوم عليها ، ودعوته

إلى توحيد الله تعالى وطاعته ومحبته ، فإن كان فى ذلك ما يجافى العقل أو الفطرة فلهم أن يقولوا ما شاءوا ، وليدعوا خصوصيات الرسول ﷺ ثم إن ما جاء به الإسلام من التشريع لهو مصلحة البشر عامة ، ورغم كل مايعمله المسيحيون الآن للتبشير بدينهم وإنفاقهم الأموال الطائلة واستخدام نفوذهم السياسى والاقتصادى فإنهم لاينجحون أبداً بقدر ما يلاقى الإسلام من استعداد فطرى لقبوله والإيمان بمبادئه العادلة وسنته السمحة طواعية واختياراً ، على قلة عدد الدعاة وعدم الإنفاق والدعاية ، للتبشير بالإسلام وفى ذلك البرهان الأكيد على أنه دين الفطرة ، وأنه من عند الله حقاً وصدقاً ولو كره الكافرون .

كيف أوحى الله إلى محمد ﷺ

هناك فى غار حراء ، فى جانب من جبل النور ، ذلك الجبل الذى يقع على بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكة ، شمالى طريق عرفة ، كان الرسول يتحنث شهراً كل عام ، ولما بلغ الأربعين من حياته الكريمة نزل عليه الوحى ، وهو فى هذا الغار فى خلوته ، وفى تأملاته العميقة ، وكان ذلك فى أحد الأيام الأخيرة من شهر رمضان من عام ٦١١ ميلادية ، وقال الرسول ﷺ فى وصف هذا النزول عليه ما يأتى : « أتانى جبريل فى غار حراء ، وأنا نائم ، بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . . فقلت ما أقرأ ، فغطنى به ، حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ماصنع بى ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فقرأتها ثم انتهى ، فانصرف عنى ، وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً ، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يامحمد أنت رسول

الله ، وأنا جبريل ، فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية إلا رأيته . ثم قال ثانية : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، وانصرف ، فانصرفت راجعاً إلى أهلى .

ولم يكد الرسول يغشى داره ، حتى هرع إلى خديجة ، وخبأ رأسه فى حجرها ، وقال : وقد أخذته رعدة المحموم : « دثرونى ! دثرونى ! » فأسرع الخدم إليه يزملونه ويدثرونه ، حتى هدأ روعه ، وسألته خديجة ، وقد تملكها فزع عظيم : « يا أبا القاسم حدثنى بالله ، أين كنت ؟ وماذا حدث لك ؟ لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا حراء . ووصلوا إلى ضواحى مكة ، ورجعوا دون أن يلقوك » .

فحدثها بالذى رأى ، ثم قال : حسبت من شدته أنى أموت . فقالت خديجة ، وقد رجع إليها اطمئنانها : والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتعين على نوائب الدهر ، أبشر يا بن عمى ، واثبت ! فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » .

(من كتاب رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده)

قيامه صلى الله عليه وسلم بأعباء الرسالة وحده

وقيام الرسول ﷺ بأعباء هذه الدعوة العظمى وحده ، لا حول له ولا قوة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور المعزة عن النظر فى دعوى فقير أمى مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم ، والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف .

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة، ويناضلهم بالدليل ،ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه ، عادل فى أمره ونهيه ، أو أب حكيم فى تربيته أبناءه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رءوف بهم فى شدته ، رحيم فى سلطته .

ما هذه القوة فى ذلك الضعف ؟ ماهذا السلطان فى مظنة العجز ؟ ما هذا العلم فى تلك الأمية ؟ ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؟ إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شىء الذى وسع كل شىء رحمة وعلماً ،ذلك أمر الله الصادع، يقرع الآذان ويشق الحجب ، ويمزق الغلف ، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً عن التهمة ، لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أى برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمى قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون ومايقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليحصوا ما كانوا يعلمون . ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب فى أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر فى

سنته البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا ، لا أقول ذلك ، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه: « إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه » نبي صدق الأنبياء ولكن لم يأت فى الإقناع برسالته بما يلهى الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

نبي دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وإن كانا ممتزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً ، وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق ، ودعا الناس إلى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الأخرى ، وبين لهم أن خير زاد يتزودونه هو الإخلاص لله فى العبادة ، والإخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والإرشاد .

دعوة الإسلام

• لقد دعا الإسلام إلى الإيمان بوحدانية الله ، ولن يكون هذا الإيمان إلا عن طريق النظر فى الكون ، وما عليه من نظام دقيق رائع ، وما يحفل به من بديع الصنع ، وجميل الآيات .

هذه الآثار الرائعة ، وهذا النسق الجميل لن يأتى إلا بإرادة خالق مبدع مدبر لأمورها ، ثم إن الترابط بين العوالم بعضها وبعض ، عالم النفس وعالم الجسد ، عالم الأرض وعالم السماء وما فى كل منها من الأسرار إنما تستمد

وجودها من المهيمن على هذه العوالم جميعاً ، وهذا التواصل وهذه الدقة البادية بمنتهى الحكمة وهذه الأمور المستترة التى تتكشف للعقل الإنسانى يوماً بعد آخر ، وقرناً بعد قرن لأبلغ آية على أن المهيمن واحد لا شريك له إذ (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

• وتحريض العقل على التأمل فى هذا الكون والتبصر فى شؤونه كما تدعو إليه آيات الكتاب ، ليستطيع المسلم مسايرة ركب الدعوة ، والتمشى ومنطقها السليم فى إيمان واقتناع .

ثم إن كل فريضة من فرائض الدعوة الإسلامية ، وكل ركن من أركانها إنما تتفق فى وجودها مع العقل والمنطق ، فالصلاة مردها إلى التهيئة النفسية ليظل الانسان متصلا بربه عارفاً لحقه، فإذا مسه طائف من الضلال رده قلبه المفعم بالإيمان إلى الحق والهدى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .

• والزكاة قائمة على إيجاد نوع من التوازن بين الطبقات ، فلا تثرى طبقة على حساب أخرى ، ولا تستعبد طبقة لفقر أو مرض ، ولا تثور جماعة على جماعة ، ولا تعدو طائفة على طائفة ، إنها توجد السلام الاجتماعى والتواصل الروحى: (وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، هو خيرا وأعظم أجرا ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم) .

• والصوم تذكير للإنسان بكفر الجوع،وضراوة الحرمان، وتدريب المسلم على كبح جماح نفسه ، وترويض لطبعه على قوة الصبر والاحتمال ، ووصل المؤمن بربه ، وتنزيه له عن الإسفاف والتردى فى مهاوى الابتذال، فالصوم صوم عن الطعام والشراب ، وصوم عن سوء الخلق .

• والحج تقوية للروابط بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ،

وتهيئة الفرص للتشاور فيما بينهم ، وإفعام قلب المؤمن بدفعة روحية تصل ما بينه وبين صاحب الدعوة ، عندما يشهد مهبط الوحي ومواطن الكفاح وشواهد الحق والخير والهدى : (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ، على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق) .

• وهكذا نرى الدعوة في أعماقها وفي دعامتها ، ثورة على الجمود ، وبعث تحرير الفكر الإنساني من قيود الجهل ، وما رأيك في دعوة تجعل الاجتهاد في فهمها مصدراً من مصادر تشريعها ، إنها ولا شك شريعة حية ، تدعو دائماً إلى التجدد والتحرر ، ومسايرة الأجيال والعصور ، فهذا عمر بن الخطاب يقول لشريح عند توليته قضاء الكوفة : « انظر ما يتبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً ، وما لم يتبين لك فاتبع فيه رسول الله ﷺ وما يتبين لك في السنة فاجتهد فيه برأيك » .

• هذه الشريعة الخالدة التي إذا تعارض فيها العقل والنص ، أول النص ليتفق والعقل ، وبذلك أحلت الرأي الصائب محله الصحيح ، فكان ذلك مصدر قوة وحيوية لها ، بل كان سبب بقاء هذه الشريعة صادة تيار الفتن والانحرافات التي حاول بها الملحدون زعزعة العقيدة ، ثم إنها شريعة مرنة ، تتقبل الرأي الصائب وتحتضنه ، وتعمل له حين قصرها على الكليات ، أما الجزئيات فتركها لعاملي الزمان والمكان .

فقد قال النبي ﷺ : أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وقال عليه السلام : إنما أنا بشر مثلكم ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر .

• وكان الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب أجرأ الناس في إبداء

الرأى ، وكان رأيهم ملزماً للمسلمين فى أغلب الأحيان ، لأن حياتهم كانت موصولة بحياة النبى عليه السلام ، لجلسوا إليه طويلا ، وسمعوا عنه كثيراً ، وفهموا روح الإسلام .

وبهذه الحملات المحمدية على الجمود الفكرى صحت عقول صحابة الرسول ، وتكونت شخصياتهم المتحررة . ونضجت أفكارهم نضجاً هادئاً عميقاً ، فإذا كل منهم أمة وحده ، استنارت به أجيال وأجيال ، واهتدت بهديه شعوب وشعوب .

وبهذا التحرر الفكرى لم يخضع المسلمون الأولون لغير الحق وحده ، فإذا نال منه متسلط أو متجبر جاهدوه جهاداً عنيفاً حتى يردوه إلى شرعة الحق أو يفنوا دونه .

حقاً كم انطوت الدعوة المحمدية على معالم ، يهتدى بها كل ضال ، ويقتدى بآثارها كل من ينشد الحقيقة ، من غير أن يغطى بصيرته تعصب مقيت أو هوى مريب .

التعاليم المحمدية واتصالها بالكون(١)

● فطر الإنسان على خاصتين ، إحداهما الشعور بقوة غيبية مهيمنة عليه وعلى الكون ، وهى ذات لها علم وحكمة وتدبير وقدرة كما أنها مصدر الخلق والإيجاد ، ومصدر التوفيق والهداية . وكان من حق هذا الشعور النابع من الفطرة ، أن يظل حاضراً فى النفس ، مستتبعاً آثاره ولوازمه من الإيمان بوحدانية الله ، وباستحقاقه وحدة العبادة والتقديس واستجابة أمره ونهيه دون سواه .

ولكن ما ركب فى الإنسان من قوى الشهوة ، وحب الانطلاق مع

(١) من كتاب منهج القرآن فى بناء المجتمع للمغفور له الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر « سابقا » .

بواعث الهوى العاجل، أنساه هذا الشعور ،وحال بينه وبين التذكر فى كثير من أوقاته وشئونه ، وصار لا يذكره إلا جوابا عن سؤال مفاجىء ، أو التماسا لتفريج كربة وقع فيها ، أو أحاطت به .

• وقد سجل القرآن الكريم فى كثير من آياته هذه الخلاصة للإنسان، وأشار إلى غفلته عنها وإلى تذكره لها واعترافه بها : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» «ولئن سألتهم من أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله » « وإذا مس الانسان الضر دعا لجنبه أو قاعداً أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

• أما الخاصة الثانية للإنسان فهى اعتداده بقوى العقل والإدراك للبحث والنظر فى نفسه ، وفيما يحيط به من ملكوت السموات والأرض فينمو شعوره الفطرى ، ويمتلىء قلبه بنور الإيمان ، فيسلك السبيل الواضح الذى لا غموض فيه ولا التواء ، سبيل الأمن والاطمئنان ، سبيل الحياة الطيبة ، والسعادة النفسية الراضية ، ويصل فى الوقت نفسه ببحثه ونظره إلى معرفة أسرار هذا الكون ، وما أودع فيه من وسائل التقدم ، ومواد العمارة لهذه الأرض ، التى جعله الله خليفته فيها .

• ولكن الأوهام التى كانت تملكه فى أوقات غفلته ـ وما أكثرها ـ وضعت على عقله حجابا كثيفا منعه من التوجه إلى حقائق هذا الكون ودرايتها وفهمها ، وبذلك ربط نفسه بالخرافات والأوهام ، فسلب فائدة العقل والإدراك ، وانقاد لما لا يسمع ولا يبصر وظل يدور حول نفسه ، لا يعرف فى الحياة إلا ما يلبى غرائزه الحيوانية وميوله النفسية الفاسدة .

لم ترض الحكمة الإلهية أن يقع الانسان ، وقد كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، فى هذا المصير الذى أضعف خاصيته ، خاصة الشعور بالإله الخالق ، وخاصة البحث والنظر لمعرفة أسرار الكون ، والانتفاع

بها فى الحيـــاة ، فتعهدته بالإرشاد وأنواع الهداية على ألسنة الرسل الـكرام .

● وكانت خاتمة الإرشاد والهداية ، هذه التعاليم التى أوحى الله بها إلى رسوله محمد عليه السلام خاتم الأنبياء والمرسلين ، أوحى بها إليه ، وكلفه تبليغها للناس ، ودعوتهم إلى التأمل فيها والإيمان بها ، عن طريق النظر والاستدلال فى أنفسهم ، وفيما يحيط بهم من أرض وسماء وماء وهواء ، فأحيا بها فى القلوب الشعور الفطرى بوجود الخالق ووحدانيته ، ثم توجههم بها إلى البحث عما أودع فى الـكون من مواد الحياة ، التى بها تعمر الأرض ، والتى يكون العالم بها مظهراً لرحمة الله بعباده .

● وبهذين النوعين من التعاليم المحمدية التى جاءت للناس على فترة من الرسل ، عرف الانسان مركزه من خالقه ، فـكان له عابداً مقدساً ، وحامداً شاكراً ، وعرف مركزه أمام الـكون ، وكان أمامه باحثا منقبا ، وبانياً معمراً ، وقد تضمن القرآن هذين النوعين من التعاليم ؛ ونجد النوع الأول بمناهجه المختلفة ماثلا فى أكثر الآيات ، وقد جاء الثانى كذلك فى القرآن بأساليب توحى كلها بالتوجه إلى النظر فى الـكون ، والبحث عن أسراره ومنافعه ، ويغرى بالتطلع إلى جهات النفع والحصول عليها .

فمن أسلوب يعلن أن الله ما خلق الـكون على هذا النحو المملوء بالأسرار إلا ليصل الانسان إليها وينتفع بها : « هو الذى خلق لـكم ما فى الأرض جميعا » فى ظاهرها وباطنها بأعيانها ، وبإدراكها وبدلالتها .

● ومن أسلوب يؤكد للإنسان أن الله « سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ، « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلـكم تشـكرون » « فسخرنا له الريح

تجرى بأمرة رخاء حيث أصاب »، « وألنا له الحديد »، « وأسلنا له عين القطر». « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ».

● ومن أسلوب ينبه إحساس الانسان إلى التطلع إلى مخلوقات خاصة، ذات شأن فى الأسرار والمنافع، فيندفع إلى تلمس ما اشتملت عليه، ذلكم الأسلوب هو قسم الله سبحانه بهذه المخلوقات: « والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها. ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها ». « والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا ».

● ومع ذلك كله يوجه الأنظار إلى جملة من أصول الثروات التى تكون بها حياة الأمم ونهضتها، فيذكر الثروة الحيوانية والنباتية والجبلية، ويمتن على الانسان بها، ويغريه إلى تحصيلها والانتفاع بها.

بهذا يتضح أن التعاليم المحمدية الماثلة فى كتاب الله، لم تقتصر فى مهمتها للإنسان على إحياء شعوره الفطرى بالخالق وعبادته، وإنما أوحت إليه فى الجانب الانسانى أيضا بما يحقق قيمته فى الحياة، ويقف به فى مركزه أمام الكون.

وبذلك تطابق الكتاب الوحى مع كتاب الكون، وصدق كل منهما الآخر، فامتزجت الروحية المادية، وكان الوسط الذى لا إفراط فيه ولا تفريط.

جددت التعاليم عهد الولاء بين الإنسان وخالقه، وردته إلى فطرته، ثم ربطت بينه وبين الكون، وهيأته بهذا الربط لحياة قوية شريفة، بذلك كانت الدنيا من الدين، وكان الدين من الدنيا.

عظمة محمد ﷺ

• جرت سنة المسلمين — بعد قرونهم الأولى — أن يحتفلوا فى شهر ربيع الأول من كل عام بذكرى ميلاد الرسول محمد ﷺ ، ولهم فى الاحتفال بهذه الذكرى أساليب مختلفة باختلاف البيئات والبلدان .

فمنهم من يحتفل بالدعوة إلى اجتماعات تفتتح بتلاوة آى من الذكر الحكيم ، وكثيراً ما يتحرى القارىء الآيات التى تعرض لذكرى الرسول باسمه وبصفته ، ولعلك تسمع فى الليلة الواحدة أكثر من قارىء يقرأ قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ثم تتلى قصة المولد الشريف ، بما أودع فيها من الأوصاف الخلقية ، والأوضاع التى كان عليها وقت ولادته عليه الصلاة والسلام ، وتلك ذكراهم لمولد الرسول .

• وتعنى أقلام الكتاب وألسنة المتحدثين بتدبيج المقالات وإلقاء الأحاديث ، ينشرونها ويذيعونها على الناس ، يذكرونهم فيها بعظمة محمد فى شمائله التى فطر عليها ، وعرف بها فى أهله وبين قومه .

يوم أن كان غلاما يرعى الغنم ، ويعزف بنفسه عما يألفه أقرانه من مجالس اللهو واللعب .

ويوم أن كان شاباً جلداً يحضر مع أعمامه حرب الفجار[1] وحلف الفضول[2] : ويوم أن كان رجلا مكتملا وافر العقل ، يرضاه قومه حكما فى النزاع يشجر بينهم .

---

(١) حرب الفجار هى التى حدثت بين قبائل العرب ، وقد سميت بذلك لأنها وقعت فى الأشهر الحرم التى تمتنع القبائل فيها عن القتال وتنصرف إلى عقد أسواق تجارتهم فى عكاظ وذى المجاز ، وقد حارب الرسول فى هذه الحرب وهو ابن خمس عشرة سنة ، فكان يجمع السهام ويدفعها إلى أعمامه وقت الصدام ، ويرمى بها أيضا .

(٢) هو حلف تعاهد فيه رؤساء القبائل على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ، وقد حضره محمد عليه الصلاة والسلام.

يوم أن كان ملتهب الفطرة فى صلته بالله، فيفر من ظلمة الدنيا إلى التحنث والأنس بنور الإيمان الفطرى .

ويوم أن كان مشفقاً على قومه من جهلهم بالله ، وانغماسهم فى الشهوة والهوى ، ولا يحاول أن يهديهم إلى الطريق المستقيم .

ويوم أن كان هادياً مرشداً ، يتعهدهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويبشر من أجاب ، وينذر من أبى .

ويوم أن كان محتملا عدوان قومه ، صبوراً على إيذائهم ، فيستعذب العذاب فى سبيل دعوته .

ويوم أن خرج من نطاق الحديد والنار الذى ضربه قومه حول بيته ليضربوه ضربة واحدة يتفرق بها دمه بين القبائل ، فيستريحوا منه ومن دعوته .

ويوم أن صار فى المدينة قائداً يتقدم الصفوف ، ويدرب قومه على القتال .

ويوم أن كان حاكما يقيم الوزن بالقسط ، لا يعرف نفسه ولا أهله فى إقامة حدود الله وشرعه .

● هكذا جرت سنة المسلمين بعد قرونهم الأولى .

وما كان المسلمون الأولون يفكرون فى تعيين زمن خاص يذكرون فيه الناس بعظمة محمد ﷺ عن طريق الاحتفالات التى تقام ، أو المقالات التى تكتب ، أو الأحاديث التى تذاع .

ذلك أنهم كانوا يرون عظمته ﷺ ليست من جنس العظمات التى يغشى عليها النسيان أو التلاشى فى صحف الأيام . حتى تحتاج فى بقائها إلى تذكير الناس بها ، وتنبيه وعيهم إليها ، وليست من جنس العظمات التى تألفها الأمم فى نوابغها وأفذاذها ، تكون فى ناحية من نواحى الحياة ، كانتصار

فى معركة ، أو فتح لحصن ، أو سبق فى اختراع مادى ، أو كشف نظرية علمية فى السماء أو فى الأرض ، أو زعامة أمة أو إقليم .

● وإنما كانوا يرون — كما هو الواقع — أنها عظمة خالدة بخلود آثارها فى العالم، تنمو وتمتد وتسرى بقوتها الذاتية فى جوانبه شرقاً وغرباً، وتنطلق أشعتها على مجاهل الكرة الأرضية ، فتنبض لها القلوب ،وتتحرك لها العقول، وتنشرح لها الصدور ، وتمتلىء بروعتها وبساطتها النفوس ، وترسم هى لهم سبل السير وراءها فيكشفون للناس عن جوهرها ومصدرها وعن نظمها فى الحياة .

● كانوا يرونها خالدة بآثارها ، وخالدة بكتابها الخالد ، الذى يهدى الإنسان فى الحياة إلى التى هى أقوم . فى عقيدته ، وفى خلقه ونظم حياته ، وروابطه العائلية والمدنية والإنسانية ، وفى علاقته بالكون ، أرضه وسمائه. وفى متعته بلذائذ الحياة الطيبة ؛ وفى تضامنه مع إخوته من بنى الانسان ، وفى عمارة الدنيا وفى أمنها واستقرارها وفى بلوغها أقصى ماقدر لها من كمال. كانوا يرونها هكذا خالدة ، وهكذا عامة .

● وكان ذكراها لديهم فى ترسم خطاها ، والجد فى نشرها وفتح قلوب الناس لها ، والعمل على انتفاع الانسانية بها ، وبذلك ركزوا حياتهم فى تقليب وجوهها والاقتباس من نصها وروحها ، لما يكفل الإنسانية أن تحتفظ بمكانتها فى صفحة الترتيب الكونى لهذا العالم .

وتلك كانت ذكراهم لعظمة محمد ، كانت حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم أقلاماً من نور ، ترسم خطوطهم فى جميع الآفاق ، وتفتح القلوب وتنير العقول ، وتحيى الضمائر .

● هذه هى عظمة محمد ﷺ ، وتلك ذكراها عند المسلمين الأولين ، ولكن لما ضعفت نفوس المسلمين، وتفتحت للناس منابع الشهوة والهوى ، وناءت القلوب بحمل الأمانة هان على الناس تقديرها ، واستبدلت بها غيرها

من صور العظمات الخاصة ، وصارت تلك العظمات هي المحراب الذى نتجه إليه ، والغرض الذى نسمى جهدنا فى الحصول عليه .

وأقفرت قلوبنا وحياتنا من جوهر العظمة المحمدية، وصرنا لانذكرها، ولا يلمح برقها إلا حيث يوافينا من كل عام هلال ربيع، شهر المولد النبوى الكريم فنهرع إلى هذه المظاهر نقيمها ، وتلك الكلمات نؤلفها ،حفاوة بحق الذكرى وبحق الانتساب « ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

صورة وصفية للرسول ﷺ

● كان رسول الله ﷺ وسطا بين الطول والقصر ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتطامن ، قوى الجسم ، ضخم الرأس ، أبيض مشرباً بحمرة،سهل الخد،ذا وفرة إلى شحمة أذنيه ، ليس بالجعدُ القطط ولا السبط، إذا غضب رؤى فى جبهته عرق كحبات اللؤلؤ ، أزج الحاجبين ، عظيم العينين، أدعج ، أهدب، كبير الفم كما ينبغى للخطيب المفوه ، أسنانه كالبرد، ولمس يديه الكبيرتين ذاتى الأصابع كلمس الحرير الرقيق ، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو بيضاوى الشكل ، أحمر اللون تحيط به شعرات ، يمشى فى تؤدة وقودة جليلة ، حاضر البديهة دائماً ، إذا التفت التفت جميعاً ، لا كالحمق الذين يدودون برقابهم ويهزون رؤوسهم فوق أكتافهم ، إذا أشار إلى الشيء أشار بجمع يده ، وإذا أعجب بشيء حمد الله، وأدار كف يده إلى السماء، وهز رأسه وعض على شفتيه ، وإذا أراد تأكيد شيء قاله ، وضرب بإبهام يده اليمنى على يده اليسرى المبسوطة ، وإذا غضب احمر وجهه ومر بيده على لحيته ووجهه ، وتنفس الصعداء طويلا ، ثم يقول : توكلت على الله خير وكيل .

● وكانت المعانى تتدفق غزيرة من ألفاظه المحكمة الموجزة ، التى تعبر

عن مراده خير تعبير ، أما سحر بيانه فكأن شيئاً إلهياً يغزو القلب ويأسر اللب ، ولايقوى أحد على مقاومته، وكان الرسول لايغرق أبداً في الضحك ، فإذا ما اشتد به المرح حجب وجهه بيده . وصار ضحكه تبسما .

● وكان هادىء الخلق حليم الطبع، لاتكبر فيه ولاخشونة ،لا يدعوه أحد إلا أجابه فى الحال ، يحب الأطفال ويلاعبهم ويضمهم إلى صـــدره الكريم ، وقد رؤى مراراً يصف أولاد عمه العباس ليتسابقوا ، ويعد الفائز منهم بجائزة ، فيتنافسون فى اللحاق بأحضانه ، والجلوس فى حجره .

● وكان ﷺ يرعى شئون الجميع ،سواء فى ذلك الأشراف والعبيد، بعطفه ، وقد روى أن الناس أغفلوا مرة إخباره بموت خادمة فقيرة تعمل فى المسجد ، فغضب لذلك غضباً شديداً ، وسأل عن المكان الذى دفنت فيه حتى وجده ، فقام يصلى على الميت .

● ولم تكن فطنته العجيبة ومعرفته بخفايا النفوس وجواهر الأشياء لتمنعاه من مشاورة أصحابه فى كل الشئون ، ويذكر عن عائشة رضى الله عنها فى هذا الشأن أنها لم تر إنساناً قط يحب المشاورة كما يحبها محمد .

● وكان الرسول يحب الطيب ، ويحرق فى بيته الصندل والكافور والمسك ، ويدهن شعره بالدهون ، ثم يرسله على أذنيه فى أربع خصل ، اثنتين من كل ناحية ، ويقص شاربه ويعفى لحيته ، أما كساؤه فيتألف عادة من قيص من القطن قصير الكمين ، وبردة من نسيج عمان ، وكان له بردة يمانية يرتديها أيام الجمع والأعياد ، وكانت له بردة ثالثة خضراء توارثها الخلفاء من بعده ، وعمامته التى سميت بالسحاب آلت إلى صهره على بن أبى طالب .

● كان النبى ﷺ يقوم بأعماله الخاصة بنفسه ، فكان يحلب شاته ويخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويطعم إبله ، وينصب خيمته ، ويمارس هذه

وسواها من الأعمال دون الاستعانة بأحد ، وكان يحمل بنفسه ما يشتريه من السوق . وأراد يوماً بعض المؤمنين أن يحمل عنه متاعبه فقال له : « صاحب الشيء أحق بحمله » وبهذه القدوة أراد أن يقضى على تلك العادة التى كان يسير عليها أولئك الأغنياء الذين يشترون من السلع ما يوقرون به ظهور خدمهم ، دون أن يبدوا عطفاً عليهم .

• وكان عليه الصلاة والسلام يتباعد إلى أقصى حدود التباعد عن عرض الدنيا وزينتها ، وهذا بعض ما قاله فى هذا الشأن رواية عن عائشة ، قالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله ﷺ ، « إنى عرض على أن تجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يارب ، أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » وقال: « مالى والدنيا ، إنما أنا فى الدنيا كرجل سار فى يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ، حتى مال الظل ، فتركها ولم يرجع إليها » وقال : « اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » .

هذه هى بعض نواحى صورة النبى الكريم التى حفظتها الآثار والسنن، وإن المسلمين ليعتقدون أنها حق ريب لا فيه ، بل هم يرونها أشبه ما تكون بما عناه الشاعر :

إنما مثلوا صفاتك للنا س كما مثّل النجوم الماء

(من كتاب محمد رسول الله)

موجز السيرة المحمدية العطرة

تمهيد :

• كان العالم كله فى نهاية القرن السادس الميلادى قد بلغ الغاية فى فساد العقائد الدينية ، وفساد الأخلاق وفساد الأنظمة الاجتماعية ، فقد سادت الوثنية كل الحضارات القديمة ، وغلب الشرك على الأمم جميعها ، فعبدوا مع الله سبحانه وتعالى آلهة شتى . المجوس عبدوا النار ، والهندوس عبدوا الأبقار ، والعرب عبدوا الأوثان والأحجار ، وغيرهم عبدوا الشموس والأقمار إلى غير ذلك .

• وأصحاب الأديان السماوية أنفسهم حرفوا وبدلوا . فاليهود قالوا عزيز ابن الله ، وجعلوا رب العالمين « إله إسرائيل » وحدهم ، وشبهوه بالبشر ، حتى جعلوه يصارع إسرائيل ويصرعه إسرائيل ، كما أن كتبهم أنزلت الأنبياء من سماء القدوة العالية إلى درك الحيوانية الهابطة ، فنسبت إليهم الزنا والسكر والفواحش ، وامتلأت الأرض قبل ظهور الإسلام ظلما وجورا ، حتى أذل الأقوياء الضعفاء ، وداس الأغنياء الفقراء ، وشغل الملوك والرؤساء بترفهم وشهواتهم عن حقوق شعوبهم ، وكان فى العالم كتلتان كبيرتان متصارعتان : الكتلة الشرقية ويتزعمها دولة الفرس فى إيران ، والكتلة الغربية ويتزعمها الروم فى بيزنطة ، وكانت الحروب بينهما دائمة ، والعرب وقتئذ موزعون فى التبعية بين الفرس والروم ، لا حول لهم ولا قوة .

• وكان العالم بأسره فى أشد الحاجة إلى نجدة من السماء ، تكون رحمة من الله تعالى لعباده فى شخص رسول كريم يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد ، رسول عالمى لا يخاطب جنساً خاصاً ، ولا تنحصر دعوته فى بقعة محدودة ، بل ينادى الناس كافة فى مشارق

الأرض ومغاربها إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقد تجلت رحمة الله تعالى بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ويصحح برسالته مافسد من العقائد ويقوّم به ما اعوج من الأخلاق .

مولده صلى الله عليه وسلم

ولد رسول الله ﷺ فى مكة صبح يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول الموافق ٢٠ من أبريل عام ٥٧١ ميلادية ، وهو العام المعروف عند أهل مكة بعام الفيل[١]. وعندما وضعته أمه السيدة آمنة بنت وهب أرسلت إلى جده عبد المطلب تعلمه ، ذلك لأن أباه عبدالله بن عبدالمطلب كان قد توفى قبل ولادته ، ومحمد جنين فى بطن أمه، فأقبل جده مسروراً وسماه « محمداً ». وسلمه إلى حليمة السعدية لترضعه كما هى عادة أشراف قبيلة قريش، فمكث عندها أربع سنوات ، وتوفيت أمه وهو فى السادسة من عمره ، وصار يتيم الوالدين ، فكفله جده عبد المطلب ، ولكنه مات بعد سنتين فقام بكفالته ورعايته عمه أبو طالب ، وصار يعطف عليه ويكرمه ويقدمه على أبنائه ، وكان أبو طالب قليل المال كثير العيال فوسع الله عليه رزقه ؛ وظل يرعى ابن أخيه ويحميه إلى ما بعد بعثته .

— ولما شب محمد صلوات الله وسلامه عليه اشتغل فى صغره برعى الغنم والإبل ، وفى شبابه مارس التجارة ليعيش من كسب يده ويساعد عمه ، وقد اشتهر بين قومه بالصدق والأمانة حتى لقبوه بالأمين ، وقد دعته السيدة خديجة وهى من أشرف نساء مكة وأغناهن ليتاجر لها فى مالها ، فذهب فى تجارة لها إلى الشام ومعه ميسرة خادمها ، وعاد بربح كثير ، وقد حدث ميسرة سيدته خديجة عما رأى وسمع من أخلاق محمد ومكارمه

---

(١) وهو العام الذى قصد أبرهة الحبشى مكة ومعه جيشه الكبير المزود بالفيلة لهدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

وسماحته وأخلاقه وبركته أثناء سفره معه مما حببها فيه ، ورغبها فى الزواج منه ، فلما بلغه ذلك وافق وخطبها له عمه، وكانت سنه إذ ذاك خمساً وعشرين سنة ، وهى أرملة فى الأربعين ، وقد عاش معها عيشة سعيدة ، وأنجبت جميع أولاده : القاسم وبه كان يكنى النبى، وزينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم وعبد الله الملقب بالطيب وبالطاهر ، أما ابنه إبراهيم فهو من مارية القبطية التى أهداها إليه المقوقس حاكم مصر من قبل الروم لما أرسل إليه يدعوه للإسلام .

● وكانت السيدة فاطمة رضوان الله عليها أحب أولاد النبى ﷺ إليه، وقد تزوجها ابن عمها على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وولدت له حسناً وحسيناً سبطى الرسول ، ولم يكن للنبى من ذرية إلا منهما . وهم السلالة التى تعرف بالأشراف إلى يومنا هذا .

— وبعد أن تزوج النبى صلوات الله وسلامه عليه السيدة خديجة عاش رب أسرة يعمل فى التجارة وتربية أولاده ، وكان طوال ذلك الوقت يعبد الله تعالى على دين نبى الله الخليل إبراهيم عليه السلام وهو دين الحنيفية الذى كان يعتنقه بعض أهل مكة ، وكانت له أوقات يعكف فيها على العبادة فى غار حراء فوق جبل بالقرب من مكة ، وبينما هو فى الغار إذ نزل عليه الملك « جبريل » عليه السلام فى صورة رجل ،وضمه إلى صدره ثلاث مرات، ثم قال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فقرأها عليه السلام ، ثم رجع إلى بيته بمكة خائفاً مضطرباً ، وأخبر زوجته بما جرى له ففرحت وقالت : « أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً » وقد كان عمره وقتئذ أربعين سنة . ثم نزل عليه الوحى بعد فترة بقوله تعالى « يا أيها المدثر قم فأنذر » وبدأ بعدها يقوم بتبليغ دعوته لقومه ، ولمن كان يفد على مكة من زوار الكعبة .

• وأخذ النبي ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام في أول الأمر سراً ، وأول من آمن به زوجته خديجة ، وابن عمه علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وبلال ، ثم دعا من يثق فيهم من قريش ، فأجاب دعوته عثمان بن عفان وكثيرون غيره حتى بلغ عددهم نحو الثلاثين ، وظل النبي يدعو إلى الإسلام سراً مدة ثلاث سنوات ، حتى نزل عليه الوحي بقوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » عند ذلك أعلن الدعوة جهراً ، ممتثلا أمر الله تعالى واثقاً بنصره .

• لم يجد الرسول من قريش في أول الأمر سوى السخرية والاستهزاء به ، فلم يثنه ذلك عن مواصلة دعوته ، والحط من شأن معبوداتهم والطعن في أوثانهم وأصنامهم ، فغضبوا لذلك وتوجهوا إلى عمه أبي طالب وشكوا إليه سب ابن أخيه لآلهتهم ، وتسفيهه لأحلامهم وطلبوا منه أن يكفه عن ذلك ، ولكن الرسول لم يصده شيء عن المضي في دعوته ، فتعرض هو وأتباعه للأذى والاعتداء من الكفار ، وكان أشد الناس إيذاء له : أبو جهل وأبو لهب وزوجه ، وغيرهم من كفار قريش .

— ولما اشتد الإيذاء على المسلمين شكوا إلى رسول الله ما يلقون من التعذيب الوحشي ، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجروا وكانوا إثني عشر رجلا وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وكان ذلك في السنة الخامسة من البعثة ، فأكرمهم النجاشي ملك الحبشة .

• وفي السنة السابعة من البعثة شدد الكفار الأذى على المسلمين مرة أخرى وحصروهم في شعب أبي طالب بمكة ، ومنعوا عنهم الأرزاق وألا يقبلوا منهم صلحاً إلا إذا سلموا محمداً للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في الكعبة ، ومكث النبي صلى الله عليه وسلم في الحصار ثلاث سنوات

حتى نفد الطعام وأكلوا أوراق الشجر، فأمر النبي أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر إليها ٨٣ رجلا و ١٨ من النسوة فأكرمهم النجاشي ، وهذه هي الهجرة الثانية .

• فأرسل زعماء قريش عمر بن العاص بهدايا للنجاشي ليطرد المسلمين من بلاده ، فلم يجبهم إلى طلبهم ، وبقى المهاجرون فى الحبشة حتى طلب النبي صلوات الله وسلامه عليه من النجاشي أن يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم فأذن لهم بذلك .

• وظلت قريش على عدائها لدعوة الإسلام رغبة منها فى المحافظة على نظامها وكيانها . وقد حاولوا أن يصرفوه عن دعوته ومنوه بتولية الملك عليهم إذا كف عن مهاجمة معبوداتهم فرد عليهم بقوله: إن الله بعثنى رسولا وأنزل على كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

• ولما رأى القرشيون أن جدالهم للرسول لم يجدهم نفعاً ، استعانوا عليه بأحبار اليهود فى يثرب ، فذهب إليهم وفد منهم وطالبوا منهم أن يدلوا برأيهم فى الرسول. فقالوا لهم : سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يجب فهو متقول ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الاول ، وعن رجل طواف . وعن الروح . ولم يجب النبي من فوره على هذه الأسئلة ، ثم أنزل الله تعالى آياته بشأن الفتية الذين ذهبوا فى الدهر وهم أهل الكهف ، وأن الرجل الطواف هو ذو القرنين ، وقال فى الروح : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ولم يقتنع القرشيون بصدق هذه الإجابات. وازدادوا فى عداوتهم وطغيانهم على من آمن من أهل مكة .

• وبعد أشهر مات عمه أبو طالب الذى كان يحميه ويمنع عنه أذى

قريش . ثم ماتت بعده زوجته الوفية خديجة ، فحزن النبي ﷺ على موتهما حزناً شديداً ، وسمى عام موتهما عام الأحزان .

● وبعد موت أبي طالب شدد الكفار الأذى على النبي وعلى أصحابه فخرج النبي من مكة إلى الطائف يلتمس النصرة من قبيلة ثقيف فقابلته أسوأ مقابلة، وسلطوا عليهم سفهاءهم فصاروا يرمونه بالحجارة ويسبونه، فانصرف الرسول عائداً إلى مكة ، ولم يؤمن به أحد من أهل الطائف سوى رجل واحد هو عداس ، وقبل أن يدخل النبي مكة أرسل إلى المطعم بن عدى من عظماء مكة يطلب منه حمايته له حتى يبلغ رسالة ربه ، فأجاره وحماه ، ودخل النبي مكة ، وعاود نشر الإسلام بين أهلها .

● وفي موسم الحج عرض نفسه على القادمين إلى مكة من قبائل العرب ودعاهم إلى الإسلام ، فأسلم ستة من عرب المدينة ، ووعدوه بأن يبلغوا قومهم رسالته عند عودتهم ، فلما رجعوا إلى المدينة وذكروا لقومهم رسول الله ودعوته انتشر الإسلام بينهم . وفي السنة الثانية عشرة من البعثة قدم من المدينة ١٢ رجلا واجتمعوا بالنبي ﷺ عند العقبة الأولى وأسلموا وفي السنة التالية قدم ٧٣ رجلا وامرأتان من المدينة فبايعوا النبي على الإسلام ، وعاهدوه على أن يدافعوا عنه ، وهذه هي بيعة العقبة الثانية .

● وبعد عودة هؤلاء إلى المدينة أخذوا ينشرون الإسلام بحماس شديد بين أهليهم ومواطنيهم، ولم تمض فترة حتى انتشر الإسلام في المدينة انتشاراً عظيما ، وصار الإسلام يتلى في كل بيت ، وأصبح جميع أهل المدينة في شوق شديد إلى رؤية رسول الإسلام محمد صلوات الله وسلامه عليه، ولما تأكدت قريش أن أصحاب النبي وأنصاره وأتباعه قد ازداد عددهم ، ويخشى بأسهم، عزموا على قتل النبي والتخلص منه ، واختاروا من كل قبيلة شاباً ليشترك في قتله ، كي يتفرق دمه في القبائل فلا يقدر أقاربه على الأخذ بثأره، ولكن الله سبحانه وتعالى أفسد عليهم مكيدتهم ، وأخبر نبيه بما عزموا عليه ،

وأمره بالهجرة إلى المدينة ، فأخبر أبا بكر ، واتفقا على أن يسافرا معاً ، بعد أن سبقه كثير من المسلمين إلى المدينة ، وفى الليلة التى اتفقا عليها ، أمر النبى علياً بن أبى طالب بأن ينام فى فراشه ، وأن يتخلف بعده ليؤدى عنه الودائع التى كانت للناس عنده .

● ولما جاء الليل أحاط الكفار بمنزل النبى ، ونام على مكانه ثم خرج النبى صلوات الله وسلامه عليه من داره، وقد أعمى الله أبصار المحاصرين لداره فلم يروه عند خروجه ، والتقى مع أبى بكر خارج مكة، وأسرعا فى السير حتى وصلا غار ثور ، واختفيا فيه ثلاثة أيام ، وهما على علم بما يفعله الكفار ، حيث كان ابن أبى بكر وابنته أسماء يأتيانهما بالطعام والأخبار كل يوم .

● فلما مضت ثلاث ليال على الرسول وصاحبه بالغار أتاهما دليلهما، وساروا فى طريق يثرب مهاجرين من مكة إليها ، ولما لم يجد الكفار محمداً طارت عقولهم ، ووضعوا جائزة كبيرة لمن يرشد عنه، ولكن خاب فألهم ، وأحبط الله مسعاهم ، وتابع النبى مع صاحبه أبى بكر السير حتى بلغ ضاحية من ضواحى يثرب تسمى قباء . فنزل بها وأقام فيها أربعة أيام ، أسس فيها أول مسجد للإسلام بها ، وكان أهل يثرب التى سميت فيما بعد باسم المدينة قد علموا بقدوم النبى فخفوا للقائه متقلدين سيوفهم، والسرور ملء أفئدتهم فرحين بما آتاهم الله من فضله ، وسمى أهل المدينة بالأنصار ، ومن قدم إليهم من مكة بالمهاجرين ، وألف الرسول بينهما ، ونزل النبى فى ضيافة أبى أيوب الأنصارى حتى بنى بيته .

● لقد كانت هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه بداية عهد جديد هو العهد المدنى الذى يختلف عن العهد المكى الذى لاقى فيه المسلمون العذاب والاضطهاد على يد المشركين ، وكان بالمدينة حين هاجر إليها الرسول قبيلتا الأوس والخزرج وكانتا فى نزاع وشقاق وتصادم مستمر فألف النبى بينهما ، وكان بيثرب مشركو هاتين القبيلتين وأكثرية من اليهود ، ثم وفد إليها

المهاجرون وكان كثير منهم تجارا تركوا أموالهم فى مكة ، ولا أمل لهم فى استردادها ، فدعا الرسول الأنصار إلى مساعدتهم بعد أن آخى بينهم ، ففتحوا بيوتهم لهم ، وشاركوهم فى كل شىء من تجارة ومتاع وأزواج .

● ولما استقر الرسول ﷺ فى المدينة وضع نظاماً للحياة العامة يكون أساساً لتحقيق الوحدة بين أهلها ، وعاهد اليهود ، وترك لهم حرية الاعتقاد، وأخذ يدرب المسلمين على أعمال القتال استعداداً للدفاع عن النفس إذا ما حاول الأعداء قتالهم، وأخذ الرسول يرسل الكتائب من أصحابه فى طريق قريش ليتجسس أخبارهم .وتكشف نواياهم ، ولتقطع الطريق على تجارتهم فينقطع بذلك شريان من أهم شرايينهم التى تمدهم بالمال والقوة والجبروت، وليشعرهم بأن المسلمين قد أصبحوا قوة يحسب حسابها . لعلهم يرجعون إلى الصواب ويكفوا عن بغيهم وعداوتهم ، فإذا استطاع المسلمون أن يغنموا شيئاً من أموال قريش ، فذلك بعض مالهم المغصوب وحقهم المسلوب .

— ولم يكن استعداد المسلمين للقتال عن رغبة فى نشر الدين بالسيف والقهر كما يظن بعض الجاهلين ، وإنما كانت السرايا والغزوات التى خاضها المسلمون للدفاع عن النفس ، ولإعزاز كلمة الله ، كانت بتوجيه من الوحى للقيام بأقدس العبادات وهى الجهاد فى سبيل الله تعالى ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » وقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

— وقد أرسل الرسول عدة سرايا ، وهى مجموعات من المسلمين كانت تخرج لاستطلاع أحوال الأعداء الضاربين حول المدينة ، ولإشعار مشركى

المدينة ويهودها بأن المسلمين قوة يخشى بأسها ، كما أن الرسول خرج لقتال أهل مكة وغيرهم فى عدة غزوات كبرى منها : غزوة بدر وكانت فى السنة الثانية للهجرة وفيها انتصر المسلمون وقتلوا منهم سبعين من بينهم أبو جهل وكثير من أشراف مكة، وأسروا مثل هذا العدد ، وعاد النبي ﷺ بأصحابه إلى المدينة يحملون الغنائم ، واتبع الرسول فكرة فداء الأسرى فمن كان غنياً ففداؤه من ٤٠٠٠ درهم إلى ١٠٠٠ درهم ، ومن كان فقيراً ويحسن القراءة والكتابة ففداؤه تعليم عشرة صبيان من أبناء المدينة ، وفى السنة الثالثة جرت غزوة أحد حيث أرادت قريش الانتقام لما أصابهم فى غزوة بدر، وكانت الغلبة فى البداية للمسلمين ، وانهزم المشركون فتبعهم المسلمون وأبعدوهم ، وعادوا يجمعون الغنائم وشغلوا بها ، فأسرع المشركون والتفوا حول المسلمين وهزموهم ، وأصيب النبي بإصابات كثيرة ، وكاد يتعرض لخطر شديد لولا ما أظهره من الشجاعة والثبات والتفاف المسلمين حوله لحمايته .

وفى السنة الخامسة تحزب على قتـــال المسلمين معظم قبائل العرب بتحريض من اليهود، وجمعوا جيشاً يبلغ ١٠,٠٠٠ محارب تحت قيادة أبى سفيان، وسار به إلى المدينة يريد غزوها ، فاستشار النبي أصحابه فيما يفعل فأشاروا عليه بالبقاء فى المدينة وبحفر خندق حولها فكان ذلك، ووقف جيش المسلمين مدافعاً . وصار الفريقان يتراميان بالنبال ، حتى دب الخلاف بين المشركين، وأرسل الله عليهم ريحاً باردة عاصفة فى ليلة مظلمة هدمت خيامهم وبعثرت متاعهم وآنيتهم ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل ولم ينالوا شيئاً .

وفى نهـــاية السنة السادسة من الهجرة خرج النبي ﷺ ومعه ١٥٠٠ رجل من المدينة إلى مكة معتمراً لا محارباً ، فلما علمت قريش بخروجه جمعوا جيشاً لصده عن الاعتمار (أى زيارة الكعبة) ، ولمـا وصل النبي إلى

الحديبية وتلاقى مع جيش المشركين جرت مفاوضات انتهت بصلح عرف باسم صلح الحديبية ، وكانت شروط هذا الصلح ما يأتى :

أن يرجع النبى ومن معه بدون عمرة هذا العام فقط .

أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين .

أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه ، ولا تلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد ﷺ .

— وقد استاء بعض أصحاب الرسول من شروط هذا الصلح وظنوه نصراً لقريش ، ولكن النبى رأى فيه مصلحة للمسلمين وتفرغاً لنشر الدعوة وتأميناً لها من كثرة القتال ، فأرسل الرسول رسله إلى الملوك والأمراء داخل جزيرة العرب وخارجها يدعوهم للإسلام .

— وبعد رجوع النبى ﷺ من الحديبية إلى المدينة نزلت عليه سورة الفتح بقوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » ، وقد فرح المسلمون بنزول هذه الآية ، وأقبلوا على الرسول يهنئونه ، واطمأنوا إلى أن صلح الحديبية كان فتحاً مبيناً .

— وحدث أن قريشاً أخلت بشروط الصلح ونقضت عهدها ، فجهز النبى جيشاً بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل وسار به إلى مكة ، فلما علمت قريش بذلك أرسلت أبا سفيان ليجدد العهد ولكنه لم يفلح ودخل النبى مكة فاتحاً ، وطاف بالكعبة سعياً ثم طعن الأصنام برمحه فسقطت على الأرض محطمة والرسول يرتل قوله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ، وبذلك طهر الله بيته العتيق من هذه الأوثان وكان ذلك فى ٢٠ رمضان سنة ٨ هجرية .

— مكث المسلمون بمكة بعد فتحها ثلاثة أيام أتموا خلالها مناسك العمرة ، وزار المهاجرون دورهم التى تركوها ، ثم أمرهم الرسول بالعودة إلى

المدينة فوصلوا إليها فى آخر السنة التاسعة من الهجرة ، وبعد قليل فرض عليهم الحج وأصبح ركناً من أركان الإسلام .

— وبهذا الفتح دخل أهل مكة والعرب فى دين الله أفواجا ، ثم عفا النبي عن قريش ، وخطب فيه خطبة أبان فيها كثيراً من أحكام الدين ، وبعد فتح مكة اتفقت قبيلتا ثقيف وهوازن بالطائف على محاربة المسلمين فسار إليهم النبي بعشرة آلاف من المدينة وألفين من مكة ممن أسلموا يوم الفتح، فلما وصلوا إلى موضع يسمى حنين اغتر المسلمون بكثرتهم واستهانوا بعدوهم ، فقابلهم العدو المختبىء فى شعاب الوادى وفاجأهم بالنبال فاضطرب جيش المسلمين ، ولكن ما لبث النبي أن ناداهم وجمع شملهم ، وحملوا على أعدائهم حتى هزموهم ، وكانت غزوة حنين هذه سبباً فى إسلام كثير من مشركى مكة .

— لما اطمأن الرسول إلى أن جزيرة العرب أصبحت تستظل بلواء الإسلام استقر رأيه على الخروج لأداء فريضة الحج فلقيت دعوته ترحيباً، ووفدت جموع كثيرة يريدون أن يأتموا برسول الله فى حجته ، وخرج مع النبي جمع كبير من المهاجرين والأنصار وبعض القبائل بلغ عددهم مايقرب من مائة ألف ووصلوا إلى مكة ، وأدوا الحج كما علمهم الرسول ، ثم إن النبي خرج إلى منى فى اليوم الثامن من ذى الحجة فأقام بها ليلة ، ثم خرج فى صباح اليوم التاسع إلى جبل عرفات وألقى هناك خطبة الوداع التى يعتبرها المسلمون دستور الإسلام الحكيم .

— وقد انتقل الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى جوار ربه فى يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ وهو فى الثالثة والستين من عمره بعد أن بلغ رسالة ربه ، وأقام الدولة الإسلامية على دعائم قوية .

* * *

الدلائل على صدق نبوة محمد ﷺ ورسالته

— لا ريب مطلقاً فى أن سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه هو رسول رب العالمين ، أرسله ربه مؤيداً بالقرآن الكريم لهداية قومه والناس جميعاً إلى عبادة الله وحده ، واعتناق الدين الإسلامى الحنيف ، لأن الدين عند الله الإسلام ، ولا مراء فى أنه هو الرسول الذى اصطفاه ربه من ذرية إبراهيم عليه السلام لنشر هذا الدين الذى هو آخر ما نزل من عند الله لعباده ليكون دستورهم الخالد إلى يوم الدين .

● وهناك من الدلائل العقلية والشواهد التاريخية والسمات الخلقية والخلقية ما يثبت ويؤكد أنه هو رسول الله حقاً وصدقاً ، وليس ثم دليل أقوى بما نطق به القرآن الكريم من الآيات الصريحة التى تؤيد دعوة محمد ، وأنه مرسل من عند ربه مبشراً ونذيراً ، وسراجاً منيراً .

● وكل عاقل متزن غير متعصب ولا مكابر يمكنه أن يستدل على صدق رسالة النبى بواحد من الأمور الآتية :

أولا : أن جوهر الرسالة الإسلامية تحمل أسمى وأهدى العقائد، وأيسر وأزكى العبادات والمعاملات ، وأحسن وأجمل مكارم الأخلاق .

ثانياً : أن شخصية الرسول الأعظم التى عرفها الأصدقاء والأعداء كانت مثار إعجابهم وتقديرهم قبل الرسالة وبعدها ، لأنها اتسمت بالكمال الإنسانى والخلق العظيم .

ثالثاً : إخبار الكتب السماوية عنه بصفاته ومميزاته وانطباقها عليه .

رابعاً : معجزته الكبرى القرآن التى تحدى به قومه فعجزوا عن الإتيان بشىء يماثل ما معهم إذ كانوا أرباب فصاحة وبلاغة .

● ومن كتاب « تثبيت دلائل النبوة[1] » لمؤلفه قاضى القضاة عبد الجبار

(١) راجع هذا الكتاب وحققه الدكتور عبد الكريم عثمان فى جزأين .

أحمد الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥ هـ . نقل بإيجاز بعض الدلائل التي تؤكد أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه هو رسول الله حقا وصدقا ، وأنه هو خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أنزل عليه القرآن ، وكلفه ربه جل وعلا أن يبلغ رسالة الإسلام بكل ما فيها من معتقدات وعبادات إلى قومه وإلى الناس كافة ، وهذه الدلائل وردت واضحة وضوح الشمس فى سياق كلام الله المبين فى كتابه العزيز ، ومنها :

• معجزة القرآن الكريم وهو من أقوى وأخلد الدلائل لأنها جاءت معجزة معنوية عقلية تخاطب الفكر البشرى ، وتعتمد على الإقناع العقلى أكثر مما تعتمد على القناعة الحسية التى هى أساس المعجزات المادية التى جاء بها رسل الله من قبل فذهبت ولم تدم ، ولم يؤمن بها إلا قليل ، بينما ترى معجزة القرآن جاءت لتبقى أبد الدهر ، وقد آمن بها ملايين البشر شرقا وغربا .

• إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه عندما قام بدعوته إلى الإيمان بالله وتوحيده ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان ، وكان وقتئذ فقيراً معيلا وحيداً . ولم يكن له ركن شديد من ملوك أو رؤساء يحتمى بهم ، وكان يعلم حق العلم أن قومه سيعارضونه ويعادونه ويؤذونه أشد الإيذاء ، ولم يمنعه ذلك من الاستمرار فى دعوته ومجابهة جميع الأخطار والشدائد مع الصبر واحتمال مكائد كل من تألبوا عليه من قومه قريش واليهود والنصارى والفرس والمجوس ، وظل يعيب آلهتهم وآباءهم ، ويسفه ويضلل أديانهم ، لا يخشى شيئاً من مكرهم وكيدهم له ، إيماناً منه بأنه على الحق ، وأن الله الذى أرسله بالهدى ودين الحق يعصمه من الناس جميعاً .

• سلامة رسول الله ﷺ من شرور أعدائه الألداء الذين حرصوا كل الحرص على إيذائه والسعى إلى قتله ومحو كل ما جاء به فلما سلم من

جميع ما دبره له المشركون من عرب وعجم ، وأظهره الله عليهم كان ذلك أقوى برهان على أنه رسول الله حقاً ، وصدقاً ، وأنه مؤيد من ربه .

• وعد الرسول عليه السلام أتباعه بأنه سيصير للإسلام جماعات مؤمنة وأنصار، وجنود وأعوان فكان الأمر كما قال وأخبر، لأنه حين دعا قومه للإسلام أنكروا قوله ، وتلقوه بالرفض والتكذيب ، ولكنهم بعد ذلك أجابوه وأطاعوه واعتقدوا بصدقه وثبوته . وصاروا يفرون من آبائهم المشركين ، ويفارقون أوطانهم ، ويتركون أموالهم ومتاعهم دفاعا عن الدين الإسلامى .

• أن قريشاً بعد أن اتخذت جميع الوسائل لقتل رسول الله وإبادته وإطفاء نوره والتنفير منه والصد عنه باءت بالفشل الذريع، لأن الله سبحانه وتعالى منعه منهم ، وصرفهم عنه فلم ينالوا منه نيلا فاضطروا أخيراً أن يمشوا إليه يعرضون عليه جميع وسائل الإغراء ، من جاه وسيادة ومال ، ولكنه رفض ذلك كله بإباء وهو الفقير المعيل الوحيد الفريد ، لأنه كان على ثقة من أنه رسول من رب العالمين لا يعنيه شيء من متاع الدنيا وزينتها ، بل كان همه أن يصدع بأمر ربه .

• والدليل الأخير لا الآخر، هو أنه صلى الله عليه وسلم أسرى به فى ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عاد فى ليلته إلى مكة، ومدة السفر فى ذلك مقدار شهرين ذهاباً وإياباً . ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث بذلك فى أهله ، فقالت له أم هانىء بنت أبى طالب : لا تتحدث بهذا حتى لا يصدقك الناس ، ويكفر بك من آمن منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن ربى أمرنى أن أخبر الناس بذلك » فخرج وأخبر قريشا بذلك ، فسرهم هذا ، وقالوا : الآن يظهر كذبه ، وينقطع الناس عنه ، قوموا بنا إلى أبى بكر الصديق ، فلما قابلوه قالوا له : يا أبا بكر ، ما زال

صاحبك على عهده حتى أتى بكذبة لا يصدقها عقل، فقال أبو بكر حاشاه أن يكذب ، وما هى كذبته ؟ قال : زعم أنه أسرى به فى ليلة واحدة إلى بيت المقدس ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قال ذلك فقد صدق . وقد ورد فى سيرة الرسول الأكرم أنه أكد قوله ودلل على صحة رحلته هذه بأن وصف لهم بيت المقدس وصف من عاين وشاهد أبوابه وسقوفه وجدرانه ، كما أنه صلوات الله وسلامه عليه أخبر قريشاً أنه مر بعير لهم فى موضع كذا ، إلى غير ذلك من الأدلة القاطعة على صحة قوله وصدق كلامه ، مع أنه لم يكن قد شاهد المسجد الأقصى من قبل .

حياة الرسول وأعماله فى سطور

السنة	العمر	
٥٧١ م (عام الفيل)		ولد محمد عليه الصلاة والسلام فى فجر يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول . بدار جده عبد المطلب بمكة ، وأبوه عبد الله مات فى الرابعة والعشرين من عمره قبل مولد ابنه ، وأمه السيدة آمنة بنت وهب ، وقد أرضعته حليمة السعدية فى بادية بنى سعد بعيداً عن مكة لسوء جوها ، وعاش فى كنف مرضعته خمس سنوات .
٥٧٣ م	٣	تقص كتب السيرة حادثة شق صدره ، وخوف مرضعته عليه.
٥٧٥ م	٥	أعادته مرضعته إلى أمه ليعيش معها بمكة ، وبعد قليل ذهبت به أمه إلى يثرب لزيارة أهلها وليتعرف ابنها على خؤولته ، ومكثت شهراً هناك ، ثم رجعت إلى مكة ، وفى طريقها إليها ماتت بالأبواء ودفنت بها ، وأصبح محمد يتيم الأبوين ، وعادت به أم أيمن جاريته إلى جده عبد المطلب ، حيث عاش فى كفالته .
٥٧٨ م	٨	مات جده عبد المطلب ، وكفله عمه أبو طالب الذى كان على صغره وفقره أنبل وأكرم إخوته ، وكان يؤثر محمداً على أبنائه لما يجد فيه من النجابة وطيب النفس ، واشتغل محمد مع عمه بالرعى وبالتجارة ليساعده فى أعماله .
٥٨٢ م	١٢	صحب عمه فى قافلة رحلت للتجارة بالشام ، وفى بصرى إحدى بلدان الشام رآه بحيرى الراهب وتوسم فى مخايله علامات النبوة فأوصى عمه بالمحافظة عليه من كيد اليهود ، لأن له شأناً عظيماً فى المستقبل .

السنة العمر

٥٨٥ م ١٥ اشترك فى حرب الفجار ، وكان دوره فيها جمع السهام لأعمامه والرمى بها فى صدور الأعداء ، وقد استمرت هذه الحرب أربع سنوات ، وكذلك اشترك فى حرب حلف الفضول لنصرة المظلومين ، وكان ذلك فيما بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره .

٥٩٥ م ٢٥ كان يتجر فى مال السيدة خديجة فربحت تجارتها كثيراً ونقل ميسرة خادمها ما رآه من نشاط محمد أثناء رحلاته ، وما شاهده من أمانته وإخلاصه ويمنه وبركته ، وقد حببتها هذه الصفات فيه ، فرغبت فى زواجه ، وكانت فى الأربعين من عمرها ، وقد تزوجت مرتين قبل ذلك ، فرضى النبى بها زوجاً وعاش معها عيشة زوجية سعيدة مباركة ، ورزق منهـا أولاده القاسم وعبد الله والطيب ، وقد ماتوا صغاراً ، أما بناته الأربع زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة فقد عشن حتى رأين عظمة أبيهن .

٦٠٥ م ٣٥ حكمه أشراف مكة فى نزاعهم المستحكم بشأن وضع الحجر الأسود بمكانه بالكعبة بعد إصلاحها ، فوضعه فى ردائه وأشركهم جميعاً فى حمله ووضعه بيده مكانه ، وقد رضوا حكمه لما عرفوا من أخلاقه السامية ، حتى كانوا يلقبونه بالأمين ، وعاش خلال هذه الفترة حتى الأربعين من عمره فى عبـادة وتحنث على ملة أبيه إبراهيم عليه السلام ، وكان يمضى وقته فى تأمل عميق ، واستغرق فى حياة روحية علوية ، وقد اعتاد أن يذهب إلى غار حراء ليقضى به شهراً فى كل عام منقطعاً عن

السنة	العمر	
		العالم ، وسابحاً فى ملكوت الله العظيم مستأنساً بمناجاة خالق الأكوان .
٦١١ م	٤٠	كان الرسول يعيش فى عالم من الحقائق الروحية ، زاهداً فى زخارف الدنيا ، وكانت تتراءى له الرؤى الصادقة ، وذات ليلة بينما هو نائم بالغار نزل عليه الوحى ، وأخبره أنه رسول الله ، وعاد إلى زوجته مضطرباً وأخبرها بما حدث ، وبعد ذلك فتر عنه الوحى ، فقلق الرسول كثيراً ، وظن أن ربه قد تخلى عنه .
٦١٤ م	٤٤	عاد الوحى وهو جبريل عليه السلام يبلغه أن ربه ما ودّعه وما قلاه ، وأمره أن يجهر بالدعوة إلى توحيد الله ، فبدأ بعشيرته الأقربين فأسلمت زوجه وعلى بن أبى طالب وأبو بكر وبلال وغيرهم ، وكان أشد المنكرين له والمعادين له عمه أبو لهب وأبو جهل وأخذ المشركون يؤذون النبى ، ويضطهدون أتباعه .
٦١٥ م	٤٥	وجد النبى أن إيذاء قريش للمسلمين يشتد فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة فعملت قريش على حصار بنى هاشم بالشعب وقطع علاقتهم بهم ، حتى يسلموا محمداً لهم وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة ، لأنهم وجدوا المسلمين يزدادون ويقوون ، وفى هذه الفترة مات عمه أبو طالب ، وقد بلغ الثمانين ، وبعد موته بثلاثة أيام ماتت زوجته الوفية خديجة وهى فى الخامسة والستين من عمرها ، فكان هذا العام عام الحزن كما سماه الرسول ، وفيه خرج إلى الطائف لدعوة

السنة العمر

أشراف ثقيف للإسلام فردوه رداً قبيحاً ، وعاد الرسول إلى مكة حزينا مهموما .

٦٢١ م ٥١ كانت ليلة الإسراء والمعراج تسرية للرسول ، وفيها فرضت الصلاة خمس مرات كل يوم ، ثم أسلم جماعة من أهل يثرب فى موسم الحج لمكة ، وتعاهد معهم النبى فى بيعتى العقبة على منعته وعلى حمايته وعلى حرب الأسود والأحمر لنصرته ، ووجد فى بلدهم ملجأ لهجرة المسلمين . ولما علمت قريش بهذه البيعة خافت وأرادت الانتقام من أهل يثرب ، ولكنهم رحلوا ، وعلم الرسول بأن قريشاً تآمر على قتله فأمر أتباعه بالهجرة سراً إلى المدينة وخرج الرسول مع رفيقه وخليله أبى بكر سراً ، وهاجر إلى يثرب ، وفشلت محاولات قريش فى قتله وفى تعقبه .

٦٢٢ م ٥٢ وصل الرسول إلى يثرب فى وسط مظاهر بالغة من الحفاوة
١ هـ والإكرام ، وبنى بها مسجد قباء أول مساجد الإسلام ، ثم مسجد المدينة، وبدأ حياة الاستقرار والتشريع ونشر الدعوة، واعتبر هذا العام بدء التاريخ الهجرى ، وفى هذا العام فرضت صلاة الجمعة ، وصوم رمضان ، والزكاة وتحريم الخمر ، ووضعت الحدود ، وتقررت صيغة الأذان ، واتجاه المسلمين فى صلاتهم نحو الكعبة بمكة ، وتم زواج الرسول بالسيدة عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنه .

٦٢٤ م ٥٤ وقعت أول غزوة فى بدر ، وفيها انتصر المسلمون على قلة
٢ هـ عددهم وتم حصار يهود بنى قينقاع وفرارهم إلى قلاعهم ، ثم

السنة	العمر	
		إرغامهم على الجلاء والخروج إلى الشام ، وتم زواج السيدة فاطمة بعلى بن أبى طالب ، ومنهما كانت سلالة الرسول الأشراف ، وتزوج الرسول بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب .
٦٢٥ م ٣ هـ	٥٦	غزوة أحد وفيها انتصر المسلمون أولا ثم انهزموا لمخالفتهم الخطة التى وضعها الرسول وذلك طمعاً فى الغنـــائم ، ولـكن قاوم المسلمون ورجعت قريش ، وقتل فى هذه الغزوة عم النبى حمزة ، ثم اتصل بالنبى أن جماعة من غطفان
٦٢٦ م ٤ هـ	٥٧	بنجد كانوا يريدون حربه فسار إليهم وكان الطريق كثير الصخور الحادة فربط المسلمون أرجلهم بالخرق والرقاع وسميت غزوة ذات الرقاع . وقد انتصر النبى فيها ، وفرضت وقتها صلاة الخوف ، ثم كانت غزوة دومة الجندل فى قلب الجزيرة وفيها فر المشركون لما علموا بسير النبى إليهم ، ومن هذا ترى مبلغ امتداد الفتوحات والانتصارات داخل الجزيرة .
٦٢٧ م ٥ هـ	٥٨	غزوة بنى المصطلق وعقبها تزوج الرســول جويرية بنت الحارث التى وقعت فى الأسر ، وشرع فى هذا العام التيمم ، ثم غزوة الخندق وبعدها غزوة بنى قريظة وهم من أكثر اليهود مكراً وغدراً .
٦٢٨ م ٦ هـ	٥٩	حدثت حادثة الشاة المسمومة ، وكانت معاهدة الحديبية مع قريش لما منعته من دخول مكة للعمرة ، ثم غزوة يهود خيبر لأنهم كانوا يتآمرون ويتحينون الفرص للغدر ، والأخذ بالثأر .

السنة	العمر	
٦٢٦م ٧ هـ	٦٠	عمرة القضاء ، ورجوع المهاجرين من الحبشة ، وزواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة ميمونة ، وفى حلول هذا الوقت كان الرسول يرسل رسائله للملوك والحكام لدعوتهم إلى دين الله ، ثم الاستعداد لغزوة مؤتة .
٦٣٠م ٨ هـ	٦١	فتح مكة ، ودخول الرسول لبيت الله وتحطيم الأصنام ، وفى ذلك اليوم أسلم أبو قحافة والد أبى بكر ، وأقبل أهل مكة على الرسول فى موقف يخطبون وده لما رأوا من رحمته ، وحسن معاملته كان يستطيع الانتقام منهم على سوء أعمالهم وتزوج الرسول بمارية القبطية التى أهداها إليه حاكم مصر ، وولدت له إبراهيم ولكنه مات ، وحدثت غزوة حنين مع أهل الطائف ، وكان النصر فيها أخيراً للمسلمين ، وحدثت أيضاً غزوة تبوك وانتصر فيها جيش المسلمين بغير قتال .
٦٣٣م	٦٣	حجة الوداع وخطبة الوداع ، وفى هذا العام انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بعد أن أدى رسالته ، جزاه الله على أمته خير الجزاء .

[تم بحمد الله وعونه]

الفهرست

الباب الأول

التوحيد دعوة جميع الأنبياء والرسل

الباب الثانى

اشهد أن لا إله الله

الباب الثالث

واشهد أن محمداً رسول الله

كتب للمؤلف

- معجم الألفاظ والأعلام القرآنية « طبعة جديدة ومنقحة ومزيدة وفيها زيادات كثيرة وإضافات عديدة » .
- الشهادة « من أركان الإسلام »
- الصلاة « من أركان الإسلام »
- الصوم « من أركان الإسلام »
- الزكاة « من أركان الإسلام »
- الحج « من أركان الإسلام »
- الجهاد « من أركان الإسلام »
- الزواج وسننه
- مع الله
- الله والأشواق الروحية
- المعارج القدسية « خواطر قلب فى عالم الحب »
- الصلوات على النبي « صلى الله عليه وسلم »
- سيرة الرسول « صلى الله عليه وسلم »
- أضواء تاريخية على أسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأهل البيت
- الأحاديث النبوية والمحدثون
- القرآن وإعجازه العلمى
- القرآن وإعجازه التشريعى
- الخلفاء الراشدون
- أئمة المذاهب الأربعة

تطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها

دار الفكر العربي

١١ شارع جواد حسني بالقاهرة ت ٧٥٠٥٢٣ / ٧٥٠١٦٧ — ص. ب ١٣٠

رقم الإيداع ٤٠٥٣ / ٨١ الترقيم ٢ - ٢٨٧ - ٣٠٦ - ٩٧٧